فيصل حوراني

سمك اللجة

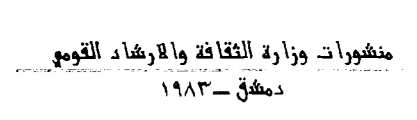
رواية

فيصل حوراني



رواية




منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق ـ ١٩٨٣

الـــى

لمـــا

ولينـــا

وليلى

ابوكن

-1-

استوقفني صوت حانق. والتفتُّ فرأيت الشرطي الذي تجاوزته منذ برهة يشير بيده كي أعود إليه، وقد اندلقت من بين شفتيه ابتسامة ساخرة: "إلى أين، هكذا بغير توقف؟". بقّ الشرطي الممتعض سؤاله، ثم أضاف بنبرة مؤنبة: "نحن هنا". وابتلعت حنقي، ورحت أشرح للديك المزدهي بزي المراسم غرضي من زيارة السرايا. فعلت هذا بهدوء كي أتجنب مشكلة أنا في غنى عنها. لكن حارس البوابة، وقد استفزه ما عدّه تجاهلاً لمقامه، لم يشأ أن يخلي سبيلي ببساطة.

وبينما كنت أخوض الجدل الممض مع الشرطي الغاضب، انضم إلينا رجل يلبس الزي الريفي، واحد من حفنة رجال رأيتهم موزعين حول دار الحكومة وأنا أعبر الطريق إليها. وأخذ الرجل يتأملني بوجه تقول ملامحه: هذا واجبي وأنت ترى أني أقوم به بانتباه! وقد حملني شيء في داخلي على تجاهل الوجه المتطفل. وبقي هو من جانبه صامتاً، لكن دون أن تكف عيناه عن افتراسي.

وأخيراً، أفلحت في تهدئة الشرطي. وشاء هو على ما بدا لي أن يدلل على سماحته، فأشار إلى مكتب الاستعلامات وهو يقول: "اسألهم

هناك وهم يَدلّونك"، ثم انصرف راضياً. ومضيت ممعناً في تجاهلي صاحب الوجه المتطفل. غير أن الرجل تبعني بخطوات نشطة، راغباً على ما يبدو في شد انتباهي إليه بأي ثمن. وحين لحقني، لم يجد هذا المتطفل أفضل من تكرار ما قاله الشرطي: "عليك أن تمر على الاستعلامات". ولم يكتف بهذا، بل سبقني وظلّ يلتفت نحوي كأنما ليستوثق من أني أتبعه. وقادتني خطواته وحركاته المضطربة إلى حجرة فسيحة عند مدخل البناء، ووقفت، وهو بجانبي، أمام أول مكتب فيها.

خير؟

سألني الموظف الجالس وراء المكتب.

- أنا معلم منقول إلى درعا.

الإسم الكريم؟

- سمير.

وجواباً على السؤال الذي انبثق من عينيه، أكملت:

- سمير الكندرجي.

ثم ناولته بطاقتي قبل أن يطلبها، ففردها أمامه وألقى عليها نظرة، وشرع في ملء ورقة الزيارة.

أما الرجل الذي فرض نفسه عليّ فكان يتململ وهو يتحين فرصة تسمح له بإرغامي على الالتفاف إليه. ويبدو أن برمه أعجله فانفلت غيظه الحبيس: "إرفع هذه المسخوطة حتى نتملّى وجهك!". وقرن الرجل القول الفظ بحركة من يده باتجاه وجهي. وخيل إليّ أنه ينوي انتزاع نظارتي، ليتضح أنه إنما أراد الإشارة إليها فقط. والحقيقة أن حركته ضايقتني وفظاظته أحرجتني لأنها اجتذبت إنتباه الموظفين والشرطيين الذين تكتظ بهم الحجرة. ولا شك في أن أحاسيسي انعكست على وجهي، لكني لم أفعل شيئاً سوى رميه بنظرة مؤنبة. ولدهشتي، جاء رد فعله على غير ما توقعت، إذ أن نبرة صوته لانت فجأة وهو يسألني بود غير متكلف: "من أين الأخ؟". ولم أجبه هو، بل خاطبت الموظف: "ما له هذا الفضولي!؟". فأرسل الموظف نحو الرجل نظرة خاطفة وزمّ شفتيه وزفر زفرة خفيفة، معلناً، بهذا، قلة

حيلته، ثم ناولني الورقة بحركة متعاطفة، ووقف ليدلني على الحجرة التي أتوجه إليها. لكن الرجل الذي يحاصرني تنطح للقيام بالمهمة، ولعله، إذ صار مستعداً لملاينتي، لم يدرك أني أضيق به: "غريب، وخدمته واجبة علينا"، ولم يَبْقَ في مسلكه، بعد، أي أثر للوقاحة. بل إن الرجل تنحى متأدباً ليفسح لي الطريق، وقادني حتى أوصلني إلى حجرة مدير المعارف.

كل شيء في حجرة أحمد بك، وهذا هو اسم الرجل الذي أُدخلت عليه، كان يوحي بأن لشاغلها أهمية خاصة: الأثاث الثمين، والستائر السميكة المسدلة، والسجادة العجمية التي تغطي أرض الحجرة بكاملها، والمدفأة الفاخرة، والمكتب المصنوع من خشب الجوز المزين بالحفر والنقوش. كان كل شيء فخماً، إلا الجالس وراء المكتب. فقد كانت لأحمد بك هيأة تتعارض مع هذا كله: فجسمه ضئيل حتى لكأنه دمية موضوعة على الكرسي، ورأسه صغير كث الشعر يصله بالجذع لولب نحيل يقوم مقام الرقبة، وحول اللولب تستدير ياقة القميص المنشاة كالسوار فينزلق اللولب داخلها.

"وصلتَ يا أستاذ! سيقضي أحمد بك حاجتك إن شاء الله". وقبل أن يقول مرافقي شيئاً آخر، اهتز اللولب، وانتهر المديرُ الرجلَ بصوت

فأجأتني غلظته: "وأنت؟ ما دخلك؟ أحضرته أم جئت تتوسط له!". وبدا على الرجل أنه يريد أن يوضح موقفه، إلا أن الصوت الغليظ ساطه كرة أخرى: "اترك هذه الحركات البايخة وأرني عرض أكتافك!". فأقفل مرافقي فمه وانسل من الحجرة.

وتعلقت عينا أحمد بك بوجهي لحظات. ثم سألني وهو يعيد النظر إلى أوراقه:

أمر؟

واذ لم يأته جوابي على الفور ، شد جذعه ومط لولبه ، بينما كنت اتأمله بدهشة من وقع على دمية عجيبة • ولعله ظن ان تجرؤ الرجل بالدخول عليه بغير استئذان حط من قدره في نظري ، فشاء ان يذكرني بمركزه :

ـ ••• أمر ؟

قدمت نفسي ، وذكرت سبب وجودي ، فتجهم وجهه ، وتوتر لولبه، ثم انفردا ، دون ان يتخلى عن محاولته الايحاء بالاهمية :

ـ كان عليك ان تمر على الديوان حتى يحضروا اوراقك • تقول انك جامعي ومعلم منذ احدى عشرة سنة ، فلا اظن انك تجهل الاصول •

ـ ارسلوني اليك ، وذلك الرجل قادني •

فكأنني نخزت النابض الذي يحرك اللولب :

ـ ولد من المباحث ، لادخل له في شغلنا •

لماذا يقول لي هذا ؟ لمع السؤال في ذهني وحرك حذري :

ـ رأيته بين من يراقبون السرايا،فظننت انه من رجال المكتب الثاني•

ـ لاتظن ، رح لرئيس الديوان !

وبين حجرتي احمد بك ورئيس الديوان ، جلت ساعة • ثم طولبت بأن اذهب الى مفتش المعارف الذي اتبعه ، لاقدم نفسي له ، فلما ذهبت اليه ، ابلغني الحاجب انه غائب ، ونصحني بأن ارجع بعد قليل •

وهكذا غادرت السرايا ، وفي نيتي ان اتفرج على درعا التي كنت ازورها للمرة الاولى •

ــ ان شاء الله ، قضى لك حاجتك ؟

ــ كان رجل المباحث في انتظاري على الرصيف •

ــ حاجتي بسيطة •

قلتها مؤملا ان اضع حدا لتطفله • ومشيت مبتعدا عنه ، غير انه لحقني • وبنبرة حملها مغزى لم اتبينه ، قال :

ــ احمد بك حلال المشاكل ، مهما كانت مشكلتك صعبة فهو قادر على حلها •

لم يرد ان يفارقني . كان هذا واضحا ، واذا فقد ناولته بمقدار ضيقي به :

ــ لايحبك احمد بك ، يقول أنك من المباحث •

وبحركة فجة ، اطبق بكفه على كتفي ، وادارني نحوه ، وقال وهو يلوك ابتسامة ساخرة :

ــ الخنزير ! قال لك هذا ! ؟ اي نعم ، انا من المباحث ، كنت فيها وسأظل فيها ، ليس عيبا ، ، اخدم الحكومة وآكل خبزي • اما هــو فاسأله ، كيف صار مدير معارف !

ــ هذا ليس شغلي ، انا لااهتم •

فأمسك لسانه ، ومشيت ، فظل يباريني ، ثم لم يلبث ان عاود حركته الفجة :

ـ ايه ياأستاذ ! تنازل واسمعنا ! انت ابن ناس ونحن اولاد ناس . محسوبك درعاوي ابن درعاوي أبا عن جد وعشيرتي نصف البلد ، انا ابو زعل من عشيرة « . . . » اذا لم تسمع بها اسأل عنها !

وازحت يده عن كتفي بهدوء وقلت وانا امشي :

ـ لماذا تخبرني بهذا ، انتم على العين والراس .

روقت عبارتي مزاجه من حيث لم اقصد ، فأخذ يضحك ، ثم كف فجأة :

ـ بالله عليك ، ارفع هذه النظارة ! يشهد الله اني اريد ان ارى وجهك .

* * *

انذاك ، كان الشتاء يزحف فوق آثار الخريف المولى . وكانت الغيوم الواطئة ، بكتلها الرمادية المبعثرة تتوالي فوق رؤوسنا ، والريح التي تطاردها تلسع وجهي لسعا .

ـ اضع النظارة لاحمي عيني ، وعندكم هذه الريح ...

ـ شرقية قوية . تعال نشرب كوب شاي .

ولم ينتظر ابو زعل موافقتي ، بل امسك يدي ، واجتاز بي الشارع، وقادني الى دكان جعلت مقهى •

وكان المقهى خاليا الا من صاحبه ، وهو خادمه الوحيد •

حياه ابو زعل ببشاشة ، وطلب شايا لكلينا ، وجلس فجلست قبالته • وقد استمرأت الدفء وصرت مستعدا لتمضية الوقت في هذا المكان •

ـ من أي عشيرة انت ؟

ـ انا من « دمشق » •

ـ من دمشق ؟

ـ اقصد من « الشام » ، الشام هي دمشق •

فواجهني بنظرة لائمة وهو يضيق عينيه :

تظنني لاعرف • دمشق هي الشام ، يعني بالنحوى ••• حتى اني مرة رحت للشام ، يعني لدمشق ، كنا ••• مالنا •••

وسكت ، فشجعته :

ـ كنتم في أي شيء ؟

فقال ، وقد انشغل فجأة بموضوع جديد :

ـ تقول : احمد بك لا يحبني ، يعيّرني لاني من المباحث ؟ الكلب ابن الكلب ، ماذا قال لك عن حاله ، لاتريد ان تسمع كيف صار مدير معارف • لا تقل : ابو زعل كذاب ! قبل سنتين جاء لعندنا موظفا في

الديوان ، الرجل الطيب الذي ستراه كان رئيسه وحق الله . وقالوا انه منقول لعندنا لانه مغضوب عليه . قالوا ، كيف يحكونها ؟ معارض للحكومة لسانه طول شبرين ولا يحب الزعيم مع انه ابن بلدة .

وهنا قطع روايته ليسألني :

ــ ... انت تحب الشيشكلي ؟

ولم ينتظر اجابة ، بل استخلصها على طريقته :

ــ ... انت لست ابن بلده ، من اين الى اين ؟ الشام لـ « حماة » . أهل الشام لايحبون احدا غيرهم،ماجاء حكومة الا قاموا عليها ،مظاهرات واضرابات . لما كنت في العسكرية اخذونا للشام لان فيها مظاهرات . قل لي : كيف يترك الناس شغلهم ، من اين يأكلون ؟ في درعا ، الحمد لله ، ما عندنا اضرابات . اشرب شايك واحمد الله على الستر . لاتظن اني أهبل ، انا اعرف الذي يحصل ، لماذا انت ساكت ؟

كنت اتمعن في مدلول ثرثرته :

ــ احب أن أسمعك .

وشاقه تقريظي :

ــ احمد بك ، لا كان بك ولا حاجة ، صدقني ! موظف مغضوب عليه ، لا في العير ولا في النفير . قال ، معارض ، والحكومة خايفــة

منه ، نقلته • طيب ، وحق الله ما رأيت منه شيئا يخوف حكومة ، تقول: جرو ! من يوم ما جاء وهو يساير هذا ويبوس يد هذا • يمكن ، كان يخوف قبل ما ينقلوه والنقل رباه ، وصار بعدها اخوف من حمامة ، تقول له : بع ! يقل امرك سيدي •

وأشار لي أبو زعل لادني رأسي منه :

ــ ••• عنده امرأة ، الله لا يفضح ولايانا ، رأيت بعينيك كم هو شنيع ، اما هي ؟ فشرت فاطمة البدوية التي في الصورة ! جمال ودلال • وشيء منها وشيء منه ، الله لا يفضحنا ، صار اسمه احمد بك ، وصار مديرا يشخط ويمخط في وجه خلق الله • والذين يعرفونه يقولون : ما عنده غير شهادة ••• المسخوطة التي اسمها البكالوريا • كل المفتشين عندهم شهادات أعلى •

فقلت لاشعره بأني مصغ اليه :

ــ نال الرجل حظه ، لماذا انت غاضب ؟

فصمت برهة ، ثم رشف رشفة كبيرة من كوبه ، وتلمظ بصوت مسموع ، واكمل ، مناجيا نفسه ، كأنه نسيني :

ــ لو كان والدي علمني لصرت مدير معارف واكثر • وبذراعي وليس بـ « ••• » امرأتي ، استغفر الله !

ــ ابوك حي ؟

ــ الله يحسن ختامه • اراد الا أظل فلاحا ، حطني في المدرسة ،

فلما كثرت عليه المصاريف ، أخذني للشغل ، فلم أفلح • واحب أن أصير شرطيا لارفع رأسه ••• قالوا له : ما معه شهادة ، ترجى ووسط أهـل الخير فأخذوني مخبرا ، فلان من جاء عنده وفلان من طلع من عنده ؟ لقيتها شغلة هينة ، والحمد لله ساترها •

ثم كأننا تذكرني فجأة :

ـ ••• خلني اكسبك اليوم • تغد عندنا !

ـ انت عارف ، عندي شغل لا اعرف متى انتهي منه ، وعلي أن أعود لدمشق ، خيرها في غيرها •

قلت هذا ونهضت لأؤكد رفضي ، لكنه لم يتزحزح • بل سـأل بغير مقدمات :

ـ لماذا تعارض الحكومة !؟ الحكومة بعـد ربنا ، لا يقـدر عليها أحد •

وأخذت بسؤاله ، فقلت مدفوعا بضيقي وليس بحذري :

ـ لماذا تظن أني أعارض الحكومة ؟

ـ من ساعة ما سمعتك تقول : منقول ، وأنا أفكر ، أفنـدي مثلك ، قاعد في الشام مع أهله ، فيّ وميّ ولقمـة طيبة ، ينقلونـه ويجرجرونه ويفرقونه عن عياله ••• كم ولد عندك ، كثير ؟

ـ ما عندي أولاد •

التمعت عيناه بدهشة خاطفة لم تلبث أن انطفأت ، ثم بدا كأنه تذكر شيئا كان يريد أن يفصح عنه من قبل :

ــ بحق الذي جمعنا من غير ميعاد ، لا تذل نفسك ، فاهم كلامي ؟ اياك أن تصير مثل أحمد بك .

ورجوته ، ضيقا به ، ان يترك سيرة أحمد بك ، واتجهت نحو صاحب المقهى . وفطن أبو زعل الى انني اريد دفع الحساب ، فنهض بجلبة وهو يعنفني ويكرر ان هذا لا يليق . غير اني دفعت وانا اطيب خاطره . فاكتسى وجهه بعبوس مغاضب .

سبقته الى الشارع . وحين لحق بي كان باشّ الوجه ، وقد نسي حكاية الدفع ، وشئت أن أتحرر منه :

ــ أعرف أن عليك العودة لعملك ، سأتمشى لاتفرج على البلدة .

لكن هيهات ! عاوده العبوس ، وشد قامته وسوى العباءة على كتفيه ، وعدل وضع العقال :

ــ والله لا أتركك وحدك ، عيب علي !

كان ضيقي به ، لحظتها ، يسد حلقي ، وجهدت لاستخرج كلمات لا تجرحه :

ــ ثقلتها عليك ، هذا يكفي . والحقيقة أني احب أن أتمشى وحدي !

ولابد أن عبارتي وخزته على نحو ما ، اذ أنه رماني بنظرة معاتبة • ثم لم يطل وقفته ، ودعني وابتعد • الا انه التفت فرآني ما أزال واقفا ، واذا به يعود ،ويضع يده على كتفي من جديد ، لكن بغير فظاظة هذه المرة •

ــ انت خايف مني ، انا فاهم ، عيب عليك ! اريدك ان تعرف ، انا لا يهمني ان كنت مع الحكومة أو عليها ، شغلي أكل خبز ، رح ، الله يسامحك ، ولا تنس وصيتي لك ! من ساعة ما رأيتك قلت : هذا رجل • ابق رجلا لا تصير مثله •

وتريث لحظة ، ثم أفلت الكلام متعجلا :

ــ ••• الكلب الذي يعيرني ، هو ، أي شيء هو ؟ ضربها لفوق ، دبر حاله واشتغل مع المكتب الثاني ، غداؤه مع ضابط ، وعشاؤه مع ضابط •

كان كمن يبق علقة لصقت بحلقومه ، فلما استراح ، ابتلع ريقه ثم استدار ، ومضى من غير ان يلتفت •

❋ ❋ ❋

تجولت بضع دقائق محاولا تمضية الوقت ، الا أن الملل أثقل خطاي ، فتوجهت ثانية نحو السرايا ، عازما على معاودة الحديث مع ابي زعل ، ان وجدته • كان الرقباء المتجولون يتابعون خطواتهم الوئيدة

فرادى ويحيطون دار الحكومة بشبكة نظراتهم ، والشرطي الـذي استوقفني اول مرة يتشمس مع زميل له • ولم تقع عيناى على ابي زعل ، فاقبلت على البوابة وحييت الشرطي ، الذي رد تحيتي بابتسامة مهملة ، ورحت ابحث عن المفتش •

* * *

ادخلت حجرة فسيحة ، تتوزع اركانها ثلاثة مكاتب خالية ومكتب رابع يجلس وراءه الرجل الذي اقصده • وقد اعلنت عنه لوحة صغيرة فوق المكتب حملت اسمه ووظيفته « محمود عبد الجواد مفتش قضاء فيق » • وحين وقفت ازاءه ، قام الرجل مرحبا ومد يده للسلام بحركة سخية ، ودعاني للجلوس •

يتحدث محمود عبد الجواد لهجة فصحى تدل على تعليمه الازهري ، وهو ، بعد ، رجل سمح ، لا تلبث ان تشعر في حضرته بالراحة التامة ، وهذا ما جذبني اليه على الفور • وأخذت اتأمله فيما كان يتحدث :

ــ ملفك بين يدي ، ما شاء الله ! انت مدرس ممتاز ••• تنزيلك من الثانوي الى الابتدائية ، من تدريس الفرنساوية الى الف باء العربية أو ••• ماذا اقول فيه ، لا حول ولا قوة الا بالله •

قال هذا ، وتأملني برهة ، فابتسمت مستجيبا لعاطفته :

ــ اجراء تعرض له كثيرون غيري •

ـ اصدقك القول اني أجهل السبب ، جهة بعينها ، انت فاهم ، وقاك الله الشر ، ارادت بك سوءا ، فلعلها شدة وتزول فتعود الى أهلك. انت شاب ، ما شاء الله ، والشباب للشدائد ، ورب ضارة نافعة ...

ولم أشأ ان اقاطعه وهو يفيض بعباراته المواسية ، الا حين فاجأني .

ـ طلبوا وضعك في اسوأ مكان في المحافظة .

ـ ظننت اني سأعمل في درعا .

ـ اقول لك هذا حتى لا تلومنا .

وانتظر رد فعلي ، غير اني ما عدت راغبا في الكلام ، فتابع :

ـ ... في حوران اماكن كثيرة لا تسر من نرسلهم اليها ولو كانوا من ابناء المحافظة ، فكيف بشامي يجيء من بلد الطراوة ، فلنقل ان الله هيأ لك هذا الامتحان . وانت أهل ...

ـ اين ستضعونني ؟

ـ أمر احمد بك بأن نرسلك الى « البطيحة » . لا اقول انها اسوأ أمر فهي مكان كغيره ، عليك ان تعرف هذا وتقبل قدرك . ولو سمعت نصيحتي لحمدت الله ، ففي البطيحة ، على بعدها وموقعها الخطر ، ماء وخضرة يعزان في جهات اخرى ، وهناك السمك ، سمك البطيحة شهير تفيض به الشطوط ... لعلك تسمعني ؟

كنت اسمعه في الواقع ، وان شغلتني متابعة فصحاه وتأمل طريقته في تفخيم الحروف :

ــ في دمشق ما كنت اعيش في قصر .

ــ بارك الله في همتك ، هذا هو القول الحكيم !

وبعد هذا الاطناب ، دخل المفتش في المسائل العملية . مدرسة البطيحة ، هذه ، لها في الملاك معلمان ، لكني ساكون اول من يذهب اليها هذا العام . ولو لم اكن معاقبا لتوجب ان أعين مديرا للمدرسة بحكم العرف . غير ان احمد بك لم يشأ أن يمنحني هذه الميزة . وقد حاججه مفتشي المتمسك بالاصول ، الى ان انتهيا لاتفاق على تكليفي بالادارة ، وهذا يعني ان اكون مديرا بالوكالة .

الاماكن ، لكنها ليست الجنة التي وعد بها الصالحون ، ومهما يكن من

ــ ليس هناك فرق بالنسبة لك، لن تحصل على تعويض الادارة ، لكن ، لن يكون في المدرسة من يأمرك .

كان محدثي قد تجاوز الخمسين ، وكل ما فيه يوحي بأنه رجل لا يعاني من تعذيب الضمير : وجهه المفرود بغير استرخاء ، والعينان الواسعتان بنظرتهما المباشرة الصافية الودودة ، وهذه العبارات التي تفصح عن تفهمه للآخرين وحدبه العفوي عليهم ، وحرصه على انتقاء عباراته بحيث تؤدي المعنى دون أن تسيء لسامعها .

ــ اخلص لتأكيد ما قلته ...

انتزعني صوته من استغراقي وتلقيت دفقة اخرى من النصائح ، ثم وقفت وانا اشكره بحرارة صادقة ، ودار هو حول المكتب ليودعني :

ـ خذ اوراقك من الديوان ، كل شيء جاهز ، ادعو لك بالتوفيق •

عند الباب ، استوقفني :

ـ سأزورك ، لا بد أن ازورك • وبالمناسبة ، البطيحة يملكها خليل بك ، لا بد انك سمعت به ، كان عضوا في البرلمان • واذا لم يخطيء ظني فأنت من الشباب الذين يسمون امثاله اقطاعيين •

ـ لا اعرف الرجـل •

ـ خليل بك له نزواته ، ما في ذلـك ريب ، سامحه الله ، لكنـي اجده طيبـا •

وادركت أني ساتلقى دفقة جديدة ، فقلت ، وليس في نيتي الا أن اعفيه من الانشغال بشأني :

ـ سأكون في المدرسة ، فما لي وله • لا تتعب نفسك !

فكأنني ، بهـذا ، أثرت شكوكه متعمدا • اغتـم المفتش الطيب وواجهني بنظرة فصيحة الدلالة : انتم الشباب ، لماذا تخطئون في تقدير الواقع ؟ وبقي صامتا لحظة وساكن الحركة ، ثم ، كمن قرر أمرا ، شدني من يدي واجلسني امام مكتبه ، وجلس على الكرسي المقابل •

ـ ارجوك ، لا تخطىء فهمي ، لن ابحث عن المشاكل •

قلت هذا لاطمئنه ، لكن النظرة التي رازتني افهمتني أنه يعدني مراوغا ، وبدا غير مستعد لمجاملتي بالتظاهر بالاقتناع :

اتانا غيرك كثيرون في مثل وضعك وما مال قلبي لاحد منهم مثلما ما ل اليك • انت لا تكبر ابني البكر الا بسنوات قليلة ، مــد الله في عمرك وعمره •

اؤكد لــك •••

ــ كنت شابا مثلك ، احمل السلم بالعرض ويا آرض اشتدي مــا عليك قدي ، كما تقول العامــة •••

رحت اصغي اليه • بينما انصرفت بنظري لتأمل الطربوش المعلق على مشجب في زاوية الحجرة وهو يطل علينا من موقعه معلنا انه جزء لا غنى عنه من شخصية صاحبه •

ــ ••• ايام الفرنسيين واليت الكتلة الوطنية • كان الجهاد أيامها جهادا • والزعماء الذين ناصرتهم كان واحدهم نصف بلد ، وليسوا مثل زعماء هذه الايام لا أصل ولا فصل • ضيعت عمري في السياسة ، فماذا جنيت ! حزنا على الاستقلال ، أي نعم ، لكن ماذا جرى بعد ان رحل الاجنبي ••• الذين كانوا في الحكومة اغتنو وخرجوا ، والذيــن في المعارضة حكموا وملأوا جيوبهم ، وخرجوا ، تداولوا البلد فيما بينهم • اما انا فحيث انا ، في الوظيفة التي اتبلغ براتبها ، ومثلي كثيرون ، كنا نجري وهم يركبوننا خيل طراد الى غاياتهم الخسيسة ، وبالكاد

يصرفون لنا العليق • وانتهيت الى القناعة بما قسمه الله ، فلكل نصيبه المكتوب لا يزيد ولا ينقص ، فلماذا ابدل نظام الكون ! ؟

هذا المونولوج تبعته اولى النصائح :

ــ ••• دع الخلق يا بني لخالقه وطلق السياسة • لن يفيدك •••

فقاطعته وقد صارت نبرتي ، لسبب يختلف عن تقديره ، ادعى لاثارة شكوكــه :

ــ حتى لو طلقتها ، فهي تطاردني •

فتبسم ازاء ما عده رفضا لنصيحته :

ــ لن تتعلم الا على حسابك ، فليكتب الله لك السلامة !

غادرت حجرة المفتش يراودني شعور غامض بأني سببت له الاذى على نحو ما ، لعلي فتحت جرحا يؤلمه ، او ذكرته بوقدة فتوته التي طمرها رماد الخيبات المتراكم • ولم اكن مرتاحا لهذا ، لكن الامر لم يكــن ، بعد ، مأســاة •

ويبدو اني حملت شيئا من شعوري على وجهي وانا انفلت خارجا من السرايا ، فأبو زعل ، الذي كان بلا شك يترقب خروجي ، ابتدرني :

ــ خير ؟ لا تقل ان الاستاذ محمود زعلك ؟

وفي حالتي تلك ، ما كنت مستعدا لان اسمح لابي زعل بتلبسي ثانية ، ولذا لم اجب ، بل سألته بلهجة وئيدة وباتة :

ـ هل أجد سيارة الى دمشق الآن ؟

ـ نذهب للكاراج ونسألهم ، ليس بعيدا ...

وتحرك ، غير منتظر موافقتي .

في الكاراج ، علمت أن امامي ساعتين أخريين ، على الاقل ، وادركت ان ابا زعل لن يتركني حتى لو ضربته ! وهكذا اقنعت نفسي بأن من الخير لي ان احتمله وارخي له حتى يثرثر على سجيته . وتذكرت انه دعاني للغداء غير انه كان نسيها ، واستبدت به رغبة جديدة :

ـ سنأكل لحمة في مطعم عمك عبده ، قصاب شامي ، دمشقي كما تقول انت بالنحوي ، كبابه لا تذوق مثله في الشام ، احلف لك ، جرب وانت تصدقني !

لم يكن مطعم العم عبده سوى دكان تدلت من واجهته القذرة قطع اللحم والاليات المعلقة على الكلاليب والمندلقة باتجاه الشارع . وكان حشد من الذباب يمارس طقوسه فوق هذه القطع بغير تهيب ، كأنه يستوفي حقوقا لا ينازعه عليها أحد . والعم عبده ، بهيئته الزرية ، ووجهه الطافح بالدهن ، كان يقف ، منتظرا الزبائن ، وقفة تضفي على المشهد تلك الرخاوة التي تميزه . وحين اقبلنا عليه ، تلقانا بنظرة نصف مرحبة ، فلما دنونا منه ، ابتسم لي وكشر في وجه مرافقي تكشيرة ممازحة :

ـ السيد من عندكم ؟

ـ الاستاذ شامي ، مدير مدرسة •

وما كان مرافقي يعرف اني مدير مدرسة ، لكنه قالها ليفهم القصاب اني ذو أهمية ، ومع ذلك لم يخل رد فعل العم عبده من استهانة ، فكأنه لا يقيم وزنا الا لمن كان من « عندهم » •

ـ كل الناس خير وبركة •

نطق بهذه العبارة المألوفة ، ثم انصرف لتحضير ما طلبه ابو زعل •

كان دفء الدكان مغويا ، فجلست مسترخيا امام المنضدة التي دفعني اليها مرافقي ، وادرت ظهري للواجهة حتى اتجنب مشهد الذباب • وخلعت نظارتي ووضعتها امامي ، فقام ابو زعل نصف قومة ودنا من وجهي يتأمل عيني بفجاجة ، وهتف :

ـ آخرتها ، رأيت عينيك • لا تعرف الواحد حتى ترى عينيه • عينا صقر علي الطلاق •

ثم شتم النظارة والذي ابتدعها •

انتهرته ، مغيظا من صياحه وتبسطه ، غير انه لم يعبأ بغيظي ، واغلب الظن انه لم يفطن له ، بل تناول النظارة بحركة متشوقة ، ورفعها بعناية من يشيل حرزا ، وراح يتفحصها كأنه طفل وقع على دمية • ثم وضعها على عينيه وشد قامته والقى بجذعه على مسند الكرسي ، وأدار راسه يمنة ويسرة ، مصطنعا حركة متكبرة • ومن الحق اني لم اعد ، بعد ، حانقا وانا اتفرج عليه واتابع حركاته • ثم هتف برنة تضاهي حركته في

تأثيرها المصطنع : « يا ولد » ! فلباه فتى الدكان متباطئا ، وغمغم الفتى بنعم ، فمد ابو زعل يده ، وهو ما يزال يحتفظ بشموخ رأسه ، واخرج من جيب قمبازه ورقة نقدية : « اشتر لنا اوقتي لبن » وسبقته فاعطيت الفتى نقودا ، فثارت حميته واطلق احتجاجا صادقا ، وقد نسي الموقف الذي اصطنعه ، ونحى النظارة ، فتناولتها واعدتها الى وجهي ، فنسي احتجاجه وتوسل :

بالله عليك ، ارفعها ، اتركنا نتأمل وجهك ، الصدق ، الله حط محبتك في قلبي .

وجاءنا صوت العم عبده بلهجته الشامية ، وكنت نسيت وجوده : « بطل كذب يا نصاب » ! والتفت ، مفاجأ بالشتيمة ، فرأيت القصاب وقد ادار رأسه نصف دورة ليرانا بطرف عينه من غير ان يتوقف عن شك الكباب في الاسياخ ، وغمزني الرجل غمزة متواطئة :

ـ كلّ من يجيء به الى هنا يقول له هذا الحكي ، فلاح ماكر يعرف كيف يدبر نفسه .

وظننت ان ابا زعل سيحنق للاهانة ، وعدت أنظر ناحيته متهيئا لانتصر له ، لارى على وجهه بداية ضحكة متبسطة . ولعل نظرتي المشفقة هي التي جمدت مشروع الضحكة ، وابقت عضلات وجهه مشدودة لحظة قبل ان تتراخى ببطء :

ـ شامي لئيم ، اجلب له الزبائن ، وهو يشتمني .

فقلت ، راغبا في أن اخرجه من ارتباكه :
ـ ظاهر انكم أصحاب ، وهو يمزح •

ولامر ما ، لم يعلق العم عبده على قولي • ويبدو أن جليسي عـد صمته تهيبا فتشجع واتجه الى القصاب وامسك بكتفيه واداره اليه ، ووبخه بصوت ضاج : « تعيرني بأني فلاح ، يا شامي يا حرامي • كرشك هذا ، من أين جئت به يا بلاع قضبان الخواريف » ! ؟ وتوقعت ان يتأزم الموقف ، الا ان شيئا من هذا لم يحدث ، فالعم عبده لكز ابا زعل بكوعه فيما يده مشغولة بالاسياخ ، وارسل ضحكة مستريحة ، وقال وهو يضحك : « عارفك وناتفك ، اقعد بلا طول لسان » ! ثم رأى فتاه عائدا فهتف به « حضر الفحمات » • واكتفى ابو زعل بما قاله للقصاب فعاد ناسيا الملاسنة •

ـ صدقا احببتك ، لا تسمع كلامه • ناس تروح وناس تجيء ، أكل خبز • لكن انت ، المحبة من الله •

ومع الدفء وعبق الشواء ، لذت لي ثرثرة ابي زعل المنطلقة ، فتعدل مزاجي • وتأثر ابو زعل باستجابتي فطاب حديثه وذاب تحفظه الساذج ، فما اكثر ما روى من قصصه المستمدة من خبرته في ذلك الموقع المتواضع الذي يشغله ! وحين فرغنا من وجبتنا عزم ، بحمية مفرطة ، على ان يدفع ثمن الطعام ، حتى ان العم عبدو بحلق فيه بنظرات مشدوهة وهو يرى

الحاحه • وبالرغم من أني انا الذي دفعت آخر الامر ، فقد اتبعنا القصاب بعبارة وداع حارة احسست انها موجهة لابي زعل بالذات •

حين صرنا في الشارع • قال ابو زعل وهو يضيق عينيه بمواجهة شمس زاد سطوعها مع الظهيرة :

ــ داري قريبة ، نشرب القهوة ، ثم تتسهل • هذه المرة لن اسمح لك بها •

فقلت ، متعاطفا •

ــ وشغلك ؟

ــ ما عليك ، هينة !

وبحثت يدي عن يده ، فحالت بينهما العباءة ، وانطلقنا •

ـ ٢ ـ

غبطت نفسي لاني انهيت يومي في درعا دون ان افقــد اعصابي وانفجر في وجه احد • فحتى هذا الوقت ، كنت امتد على صفحة الحياة مثل وتر مشدود تكفي ضربة صغيرة ليصدر انغامه الثائرة •

كنت الابن البكر لاسرة فقيرة ، احمل طموحات حــارة واضيق بالقيود التي تكبلها • ارى ما تفرضه الاسرة على نفسها من حرمان لتيسر لي فرصة الانطلاق ، فأتألم لتضحيات الاسرة واغتنم الفرصة على مداها ، وفي غضون ذلك واطد العزم على ان ارد لها الجميل ، واظل على الدوام متوترا ، غير راض ، وغير مستعد للرضى • انعقدت آمال الاسرة حولي حتى خرجتني من الجامعة ومعي شهادة الآداب الفرنسية والوظيفــة المضمونة واشارة الفرج •

ومع اني الزمت نفسي بأقل المصاريف الشخصية ، وعاندت رغبة الوالد في تزويجي ، فان راتبي ، وقد كبرت الاسرة وزادت متطلباتها ، لم يبعدها كثيرا عن الفقر • كل مافي الامر أن أمل الوالد بأن يتم الصغار

تعليمهم صار ممكن التحقيق ، وان اخوتي لم يعودوا ، مثلي ، مرغمين على ان يعملوا ايام العطل في المهن الشاقة التي عملت فيها •

غير اني جلبت للاسرة هما من نوع آخر ، هو هم السياسة • صحيح اني لم انتسب لحزب ، وصحيح اني كنت ، حتى ، طويل اللسان في انتقاد الاحزاب ، ولكني نشأت في زمن يعد فيه التذمر من الاوضاع تهمة ، فكيف بي ، وقد كنت ، الى هذا ، مندفعا للمشاركة في الاضرابات والمظاهرات ، وكل ما يعبر عن السخط ضد الحكومات ! ؟ كنت ألاحق حين تلاحق الحكومات المعارضة ، وعرفت المطاردة والاختفاء والاعتقال• وانتهى الامر الى ان صرت ، في سجلات الامن ، محسوبا على الشيوعيين مع أن هؤلاء كانوا يضيقون بما يسمونه فرديتي المفرطة وينتقدون تطرفي ويعدونني رجل كتب تنقصه الخبرة والواقعية ، وان لم يفقدوا الامل بأن الحياة ستعلمني وستدنيني منهم اكثر فاكثر •

وفي كل مرة لوحقت فيها ، كان القلق يزعزع الاسرة • وفي المرات الاولى ، كانت نصائح الوالد تتوالى ، ومواعظه تفيض على مدى أماسي بطولها • كان يحاول ان يثنيني عن المغامرة ، يتذرع احيانا بقلة جدوى ما اقوم به ، واحيانا ينبهني لحاجة الاسرة لي ، او لحاجتي انا نفسي لبناء مستقبل مستقر • ولكنه انتهى ، بمضي الوقت ، الى طي اماله بامكانية تعقلي ، بل ان شيئا من الزهو اخذ يداخل احاديثه حين يتحدث عـن اصراري وجسارتي في مقارعة الظلام !

وحين عدت من درعا ، وحملت اليه نبأ تعييني في البطيحة ، لم يسطني بكثير من لومه ، وانصرف لمساعدتي في تدبير امور السفر .

أما عصام ، صديقي الاثير ، الذي كان يؤكد أنه يفهمني أكثر من سواه ويتعهد أمام رفاقه الشيوعيين بأن مآلي اليهم في نهاية المطاف ،

فانه لم يخف فرحه حين أنبأته بأني منقول لمدرسة في منطقة حدودية يملكها اقطاعي عتيد .

كان من رأي عصام ان النقل لمحافظة أخرى عقوبة خفيفة ، ما كانوا ليكتفوا بمثلها لو لم يكن المعارضون كثيرين . وما دمت قد نقلت فمن الخير ان أخوض التجربة الجديدة في منطقة كهذه بدل أن أعيش في درعا وسط هموم المثقفين من صغار البرجوازيين أمثالي .

وحين أدرك عصام اني مبلبل بين نزقي المزمن والرغبة في الاستفادة من التجربة المتاحة ، عدّ هذا بادرة خير :

— أنت مقبل على امتحان ، فدعني أفرح بنجاحك فيه !

* * *

بعد يومين ، كنت في « القنيطرة » ، أنا ، والحقيبة ، والمعطف الثقيل الذي دثرني الوالد به كي أتقي برد البلدة المفتوحة لرياح الجبال المثلجة ،

وعناء البحث عن وسيلة تنقلني الى البطيحة • وأخيرا ، وبعد أن هدّني التطواف بأحمالي ، عثرت على من أرشدني ، فعرفت ان شاحنة تحط في ساحة السوق وتنقل البضائع والركاب الى القرية الحدودية • ولما ولجت الساحة لم أجد الشاحنة • وتوجب علي أن أنتظر في ذلك العراء حيث لا مقهى ولا مطعم ولا شيء آخر غير بسطات الباعة التي انفض عنهـا المشترون في ذلك الوقت من النهار • وهكذا بقيت في الساحة مشدودا الى الحقيبة ، الى أن أقبلت الشاحنة الموعودة • وكنت في وضع المستعدّ حتى للاستغاثة من اجل قعدة مريحة • وبهذه الحال ، تقدمت من السائق وعرفتــه بنفسي ، فرحب بي بسودة ، لكنه تجاهل حاجتي للراحــة ، وسألني ، كأنما ليبدل الموضوع ، عما اذا كنت أحمل تصريح الاقامة ، وكاد يطلب ان يراه • فلما أخبرته اني حصلت على التصريح من المكتب الثاني في دمشق ، أظهر اطمئنانه ، ووعدني بأن يجلسني بجانبه حــين تنطلق الشاحنة ، ثم انصرف لتنظيم حشد الركاب والحوائج في صندوقها، وبدا كأنه نسي وجودي •

وحين حملني الارهاق على استعجاله ، وكان يفض منازعات الركاب، اتضح ان الامر لن يطول ، فقد بش فوزي ، وهذا هو اسم السائق ، في وجهي وطالعتني ملامحه الحلوة وسوى شعره المفرود ، وانبأني ان على الشاحنة أن تصل قبل الغروب اذ انهم يقطعون الطريق بالالغام مع

حلول العتمة • ثم لم يلبث أن حزم أمره وأشار لي كي أصعد الى حجرة القيادة •

وظننت اني سأستريح آخر الامر ، وكان هذا ممكنا لولا انه حشر بيننا على المقعد الضيق صبية انتقاها ، جلست جامدة ومتحرجة لسبب لم أدركه الا فيما بعد ، واذ أدركته تبخر أملي بالراحة •

كانت الصبية موزعة بين حاجتها للقعدة المريحة ، التي تجنبها التطوح في الصندوق ، وتحسبها من الثمن الذي لا بد ان تدفعه للسائق الشاب مقابل هذه المزية • وكانت تعبيرات وجهها تعكس مشاعرها بوضوح • رأيتها تجلس ململمة نفسها حتى لا يحتك جسدها بي أو بالسائق • وكان هذا ، حتى قبل ان تتحرك الشاحنة ، عسير المنال ، فلما تحركت صار من المستحيل الا يقع الاحتكاك • وتموجت جهامة الضيق على وجه الصبية المشدود • ولم يلبث توترها الداخلي أن ترجم نفسه بالحركة ، فتنقلت يداها في حركة عصبية مثابرة : تهبطان لتتأكدا من أن ثوبها الاسود السابغ يغطي ساقيها ، ثم تصعدان لتحكما شد المنديل الذي يلف رأسها • أما عيناها فتجمدتا في نظرة مرسلة الى أمام فيما هي تحاذر ان تلتفت الى أي منا حتى لا ترى ما لا تحب أو تضطر للاقرار بأنها عرفت ما ينتظرها حين قبلت بأن تنحشر بين رجلين • ولو لم أكن جائعا ومتعبا ومكتئبا ومشفقا على الصبية لاستهوتني طرافة الموقف •

ـ بلدنا حلوة يا استاذ ، وبناتها حلوات ، وفاطمة زينتهن .

بهـذا ، أطلق فوزي ، المتسلح بالخبرة والصبر ، سهمه الاول . وارتعشت رموش فاطمة ، وشدت اليدان منديل الرأس بعصبية ظاهرة . وتوالت السهام ، ونشطت الحركة المضطربة ، فأي دور تهيأ لي في هذه الرحلة ، وأي مشاعر حاصرتني ! وما كان الشاب ليهتم بضيفي ، بل انه خطا خطوة أخرى في حصاره للصبية فور خروجنا من البلدة ، فعند اول منعطف على الطريق لفّ عجلة القيادة مباغتا الفتاة ، بحيث صار عضده يضغط على صدر الرهينة ، ثم أعاد الشاحنة الى اتجاهها المستقيم بحركة مماثلة ألقت جسد فاطمة عليه ، وضحك ضحكة فاجرة . وحين استعادت الصبية اعتدال قعدتها ، جهدت لكي تبتعد عن فوزي ، فالتصق جسدها بي ، فتزحزحت مضطربـة بيني وبينه ... وهكذا ، بغير استقرار . وتركها فوزي برهة فيما رمانا بحفنة أخرى من تلميحاته الملغزة ، ثم كرّ للهجوم : وضع يده على مقبض الفوتيس بطريقة تبيح له أن يدخـل قبضته بين ركبتي فاطمة ، وبادرت هي للدفاع فضمت الركبتين بقوة ، لكنه ظل يحاول امرار قبضته . حنت جذعها كأنها تريد أن تسوي الرداء ظانة اني لم ألحظ الحركة الفاجرة ، وأزاحت القبضة المتلصصة . وعلى هذا النحو ، اتصل العراك بين وقاحة الشاب وحرج الصبية . وعنّ لي أن أنجدها ، فسألته ان كان متزوجا ، فاذا به يقهقه : « أتزوج ؟ لماذا ؟! قلة نساء » !؟

وبعد حوالي عشرين دقيقة ، توقفنا أمام مخفر للشرطة العسكرية . وهبطت من الشاحنة ليسجلوا أوراقي . وجاء فوزي بأوراق الصبية . ولأني كنت جديدا ، اقتضى الامر أن أتأخر ، بعد أن فرغوا من أوراق الآخرين . فلما رجعت الى الشاحنة ، كان فوزي يحاول ضم فاطمة بذراعيه ، وهي تسند ظهرها لظهر المقعد وتتحصن به . ولم يتحرج اذ فاجأته بهذا الوضع ، بل فرض عليّ هذه اللزوجة بقية الطريق .

* * *

أتذكر هذه التفاصيل لاني كنت أسيرها عندما أطللت على المشهد الذي انطبع في مخيلتي الى الابد ... مشهد غور البطيحة كما رأيته للمرة الاولى .

انفتح المشهد أمامي فجأة حين وصلت الشاحنة الى رأس المرتفع الذي يطلّ عليه . ومن هذا المطل ، رأيت تكوينات الطبيعة في المنطقة التي سأعمل فيها . فكيف أصفها ؟ بل كيف أصف شعوري وأنا انسلخ من الدبق الذي أحاط بي طيلة الرحلة لأشرف على الفسحة الملونة المفرودة على مدّ النظر ! لكأن ستارة انزاحت فجأة عن لوحة خارقة ، اطار من التلال المتماوجة يسيج دائرة تامة ، السهل يشغل نصفها ، وتنبسط بحيرة طبرية على نصفها الآخر . وعلى صفحة السهل ، تتناثر القرى

والمسيلات والغدران وعشرات البرك الصغيرة اللامعة • اما نهر الاردن الذي حفر مجراه أسفل السفوح اليمنى فيلتمع التماعة سيف اسطوري ألقاه في هذا المكان فارس من عمالقة الزمن الغابر • وماؤه الذي يغذّ السير مع انحدار المجرى يتعجل الوصول الى حضن البحيرة فيما تستقبله المعشوقة بمهرجان ألوانها المتدرجة تحت أشعة شمس الغروب المولية • كان لهذا كله هيئة البيت الكبير ، الاب الذي يتعجل الأوبة ، والاولاد الذين يلعبون في السهل ، والام الواثقة من عودتهم قبل الغروب ، حتى ان لهذا البيت بوابته التي تشكلها اجمتان باسقتا الاشجار ، تحيطان بالمصب من جانبيه ، فتبدوان من المطل البعيد ركنيّ بوابة تحدب على العائد وتحجب عن الاعين الفضولية لحظة العناق •

ــ ايه يا استاذ ! نصف الالف خمسماية !

رآني فوزي شاردا فشاء أن ينبهني • وكانت فاطمة تتأملني بغير تهيب ، للمرة الاولى ، وقد فارقها تشنجها بعد ان كفّ الشاب عن تحرشاته فيما نحن ندخل المنطقة التي تعرفها •

ــ أين البطيحة بين هذه القرى ؟

فضحك غير ساخر :

ــ السهل كله اسمه البطيحة ، والقرية التي في الوسط تحمل ، وحدها ، هذا الاسم • وبقية القرى ••• كل واحدة لها اسم . «الدوغا»،

« تل الاعور » . « الطواحين » ، « الحسينية » ، « المسعدية » •••

ــ والمدرسة ، أين هي ؟

ــ المدرسة في قرية البطيحة ، قريبة من السرايا •

وجوابا على سؤالي ، اوضح فوزي :

ــ سرايا البك ، سأنزلك عندها ، جماعة الحكومة كلهم ينزلون في السرايا •

هذه العبارة دفعت الى ذهني المشكلة التي لم أفكر فيها من قبل : اين ، حقا ، سأقيم ، بل أين انزل الآن؟ وسألت كأني احاور نفسي :

ــ الا يوجد مكان آخر انزل فيه ؟

ــ انزل في دار المختار •••

كانت تلك اول عبارة تفوهت بها فاطمة • وانتهرها فوزي ، مقاطعا :

ــ بلا مختار ، بلا بطيخ ، يترك السرايا ويذهب للدور الوسخة ! ؟ الا ترين انه ابن ناس !

ولمع في ذهني خاطر :

ــ تعرف دار الآذن ، آذن المدرسة ؟

ــ المدرسة مالها آذن •

بهذا اجاب فوزي وهو لا يخفي عجبه ، ثم اضاف :

ــ ••• اين تظن نفسك ؟ هذي البطيحة وليست الشام !

وسادت لحظة صمت قطعها فوزي :

ـ ••• اسمع يا افندي ! اذا كنت غاويا البهدلة ، سانزلك عند دكان ابي جسعة اسأله عن رجا العبد الله فهو نسيبه ، جعلوه سقاء . عارف ماذا يعني سقاء ؟

فاجبت باقتضاب :

ـ عارف • نزلني عند الدكان !

- ٣ -

مع انحدارنا على الطريق الترابي الهابط الى عمق الغور ، ومع هذه المشكلة التي اغرقت ذهني في هم السكن ، غاب بهاء الطبيعة من ساحة الرؤيا ومن ساحة النفس • فما تراه العين لم يعد تلك اللوحة الآسرة ، بل البيوت الطينية المتناثرة والاخصاص الصغيرة المصنوعة من اعواد القصب والمسقوفة بما تيسر من خرق ، والناس الذين يحركهم الوهن بكلال او يقعدهم امام بيوتهم • والاطفال الحفاة ، بأسمالهم ، وهم يستوفون آخر فرص اللعب فوق الدروب وبين البيوت قبل ان يلمهم الغروب ويطفيء حركتهم •

والدكان الذي توقفت الشاحنة عنده كان براكة اقيست ، مثل نقطة مراقبة ، عند مفترق دروب مهدتها الاقدام ، متصل بالطريق العام الذي تسير عليه السيارات • هناك تركني فوزي بعد أن ناولني احدهم حقيبتي • واذ أحسست بدفء الغور ، ضقت بالمعطف فالقيته فوق الحقيبة ، ثم ولجت الدكان •

كان رجل ، حزرت انه ابو جمعة ، مشغولا باعداد مصباح الكاز معطيا ظهره للداخلين • وهتفت منبها :

ا — مرحبا !

واذ بقي منصرفا الى شغله ، قلت بصوت أعلى •

— ••• حضرتك السيد أبو جمعة ؟

فتنبه ، واستدار نحوي ، وهو يكرر الترحيب بنبرة سرت فيها الحرارة بعد ان عرف اني غريب •

لم يكن ماتبقى من ضوء النهار المولي يبيح لي رؤية معالم وجهه • كان امامي كهل قصير وسمين • ولما تكلم اختلطت في عباراته لهجات عدة • وبلغت حرارة ترحيبه ذروتها حين عرف غايتي • ومع انه اندهش ، هو الآخر ، حين فهم اني لا اقصد السرايا ، فقد تأدب في اظهار دهشته ، ما دمت اقصد نسيبه بالذات •

ارسل ابو جمعة ، على الفور ، من يستقدم رجا العبد الله • واوقد اللوكس احتفاء بقدومي ، ثم اعد الشاي ، وهيأ لنا مجلسا ، امام الدكان ، من صناديق الخضار الفارغة •

كان الكلال والجوع يرخيان جسدي ويمسكان لساني فلا أجد رغبة في الحديث ، بينما يتكوم امامي جسد ابي جمعة البرميلي ، ويندور وجهه بسمرته الغامقة المبقعة ، مفعما بالفضول لمعرفة سبب احجامي عن التوجه الى السرايا • وبرغم تأدبه ، لم يفلح الرجل في اخفاء رغبته • داور في الحديث ، ثم قلص عينيه الصغيرتين حتى غابتا في لحم وجهه المكتنز ، وسألني :

ـ فيه ، لا سمح الله ، شيء بينك وبين أحد من جماعة البك •

فأجبت ، وفي ظني أني سأوقف أسئلته :

ـ لا أعرف أحدا منهم •

ـ وبينك وبين البك !؟ هو الآخر ، بلا مؤاخذة ، شامي •

فقلت :

ـ ريح نفسك ، لا أعرف حتى اسمه !

وهنا كست الدهشة وجهه وبدنه كله • وراح يهز رأسه مؤكدا استعصاء الموقف على الفهم :

ـ عجيبة ، أول واحد اسمع منه أنه لا يعرف خليل بك ، صيته مالي الدنيا ، ومعروف في الشام كلها !

وكان عدد من الزبائن والفضوليين قد تجمع حولنا تستثيره اللهفة لمعرفة القادم الجديد •

ويبدو أن الحديث ، اذ وصل الى هذه النقطة ، أخذ يستهوي المتجمعين •

أحسست بثقل العيون المراقبة وهي تتفحصني ، فتململت •

ـ تأخر نسيبك •

وبهذا حملت أبا جمعة على الاهتمام باستعجال مقدم رجا •

وأخيرا ، بعد ان صار الفضوليون حولنا حشدا تتماوج ظلاله في

ضوء اللوكس المنصب علينا من مكانه في أعلى الباب وتختلط بالظلال التي تعتم نفسي . أعلن أحدهم أن رجا وصل ، فاستروحت نسمة انفراج. ونهضت لاستقبل رجا الذي شق الحشد وبادرني فاردا ذراعيه وهو يردد عبارات الترحيب .

كان رجا ، هذا ، فتى لم يبلغ العشرين . ورغم ان عبارات الترحيب التي أطلقها لم تنقصها الحفاوة ، فقد كان في هيئته شيء ما لم استرح له تماما ، أكان ذلك بسبب زيه المدني الذي ميزه عن مواطنيه أم بسبب غرابة تقاطيعه ، أم لأن رهبة غامضة تلامحت على وجوه المحتشدين حين أقبل ؟ لست أدري ! الذي أدريه اني جفلت للحظة وهو يحتضنني ، ثم نسيت الامر . وحين فرغ من مجاملاته قلت له :

ـ أنا تعبان . خذني الى المدرسة وتدبر لي منامة !

ولأمر لم أتبينه على الفور ، انفتحت عيناه الجاحظتان ودار لسانه ليبلل شفته السفلى الرقيقة مثل حدّ أداة قاطعة ، وبدا عليه غيظ صادق :

ـ عيب يا استاذ ! لك صدر الدار والعتبة لنا . مخدومك رجا العبد الله ، وتنام في المدرسة !

وتدخل أبو جمعة :

ـ خلنا نكسب الاستاذ عندنا ، داري ودارك واحدة .

وتدخل آخرون . الا أن رجا حسمها وحلف بالطلاق على أن يكون

عشائي ومبيتي عنده • وعبثا . حاولت أن أقنعه بأني لا أحب أن أثقل على أحد ، لم تكن حجتي مفهومة عنده أو عند أي من المحتشدين ، وكانت نبرة صوتي ، على كل حال ، تفتقر الى الحماسة •

* * *

بدا بيت رجا ، ونحن نتجه اليه ، متميزا عن سواه من البيوت التي مررنا بها • تتكون البيوت الاخرى ، هذا اذا لم تتحدث عن الاخصاص الصغيرة وبيوت الشعر ، من حجرة واحدة أمامها فسحة سيجت بسياج ما أو تركت بغير سياج • وتلحظ العيون ، بالكاد • أضواء مصابيح الكاز ، أو أسرجة الزيت ، التي تنير هذه البيوت • أما بيت رجا فميزه على الفور ضوء اللوكس الذي علق أمامه كأنه علامة تعلن عن انتظار ضيف • وفي البيت حجرتان متجاورتان ، ولباحته سياج من الحجارة البازلتية التي يمكن الوقوع عليها متناثرة في الغور ، وفي زاوية الباحة قامت حجرة صغيرة واطئة لها وظيفة المطبخ في البيوت الحديثة •

وكان مجلسنا في احدى الحجرتين قد هيء قبل وصولنا ، مدت الفرش ، وعلتها الوسائد ذات الرؤوس الملونة • وفي وسط الحجرة ، توهجت حطبات مشتعلة في منقل نحاسي ، فأضفى أجيجها وعبقها على الجو سمتا خاصا ، لعلي كنت الوحيد الذي التقطه • وعلى طرف المنقل ، انتظم صف من أربعة أباريق نحاسية متفاوتة الحجوم ، تنتصب كأنها

مآذن صغيرة • وكانت بقبقة الشراب الذي يغلي في الاباريق تعلن اننا سنشرب القهوة المرة •

وحين وصلنا ، رجا وأنا ، رحبت بنا صبية بادية الحياء ، ثم انصرفت على عجل • وكانت هذه عائشة زوجة رجا وابنة ابي جمعة كما عرفت • وبعد قليل جاءت الام لترحب ترحيب من تدرب على استقبال الضيوف بما يليق من الحفاوة ، ثم جلست قبالتي ، ولم تترك مكانها طيلة السهرة•

ومع اني رأيت أم رجا مرات عديدة بعد هذه الليلة ، غير أن صورتها تلك ، انحفرت في مخيلتي منذ اللقاء الاول ، ولم تبرحها قط • وأظن أن الصورة ما كانت لتبهت حتى لو بقي ذلك اللقاء هو لقاءنا الوحيد • فقد كان حضور المرأة طاغيا • ولأم رجا ، التي أخذت أتأملها مستعيدا نشاطي ومتبعا عادتي ، وجه يحتفظ بشيء من بياض بشرتها على رغم تلويحة شمس الغور التي أكسبته لون حبات القمح حين تكون حديثة الجنى ، وهو يطفح بمظاهر العافية ، وفيه سمنة لا تجور على تقاطيعه ، ولا تحرمها بروزها • وتميز الوجه عظمتا الخدين ، اللتان تكسبانه قساوة فاتنة وتجعلان له جاذبية آسرة • ولأم رجا عينان سوداوان واسعتان تفصحان ، بغير مجهود ، عن شخصيتها المتماسكة ، وتشيان بروح التسلط الذي تمارسه على كل من تعرفه ، وتظلان ، مع ذلك ، توحيان بأن هذه المرأة ، على وضوح شخصيتها ومباشرتها ، ما تزال

تخفي في داخلها أشياء لا تبين • والوجه ، الى هذا ، مزين بدقات وشم زرقاء مخضرّة تنتظم في صفوف قليلة فوق الذقن ، مؤكدة طابع الوجاهة التي تحرص عليها مثيلات أم رجا • أما القامة فمتينة رغم امتلائها • ولو لم يقل لي رجا انها أمه لما حزرت انها هي •

انشدّ انتباهي لأم رجا ، وحدهـا ، تقريبا ، من بين من حضروا السهرة واستوعبت كل كلمة قالتها ، ومنها عرفت تلك الليلة ان زوجها قضى غريقا وهو شاب ، وانهما لم يخلفا غير رجا والبنت التي تزوجها أبو جمعة مبادلة مع عائشة التي تزوجها رجا • وكان رجا عندما مات أبوه وليدا في أول حبوه ، وهي التي رعت الاسرة ، ومن أجل رجا أبت أن تتزوج على رغم كثرة طالبيها •

كانت أم رجا تحكي القصة التي يعرفها الحاضرون كلهم سواي أنا ، وكنت أستدرجها لأن حديثهـا طاب لي وشاقتني قصتها • ولعلهـا استشعرت صدق رغبتي فلم تضنّ ، ظلت تحكي ، والحاضرون ، الذين توافدوا تباعا حتى ملأوا الحجرة ، يصغون تأدبا ازاء اهتمامي الظاهر ، فيما يروح رجا ويجيء بين الحجرة والمطبخ حيث يجري اعداد عشائنا • وأمكن لي أن الحظ منذ هذه الليلة ما تأكد لي بعدها أن شخصية رجا ، القوية والمندفعة حين تكون أمه غائبة ، تبهت في حضورها حتى تكاد تنسحق كلية ، وأن الأم تعدّ هذا حقا من حقوقهـا على الابن الذي انصرفت لتنشئته وضحت من أجله بالزواج •

وعلى الرغم من اكتظاظ المجلس بعد قليل من وصولنا ، فان حضور أم رجا وكذلك تميزها ، لم ينتقصا . كان من الجلي أن الجميع يعاملها على أساس أن لها حقوق الرجال ، وأنهم ألفوا قوة شخصيتها وتسلطها وتدخلها في شؤونهم ، وحتى سخريتها منهم . حتى ان ابا جمعة ، وهو نسيبها ، واجه السخرية فور وصوله ولم يمتعض ، ذلك انها قالت ، ولم يكد يجلس : « احلف برحمة عبد الله أنك جئت من الدكان الى هنا ، ولم تذهب للدار » ، فضحك الحاضرون الا أنا لانني لم استشف في هذا القول ما يضحك . ولا بد انها أدركت هـذا فوجهت نظرهـا ناحيتي وهي تبتسم :

ــ كرشه دليله ، لا يغلط أبدا !

عندها تبسمت ، وأكملت هي :

ــ ... حين تفوح رائحة الزفر انتظروا أبا جمعة !

ومع أن ضحك الجميع صار قهقهة ، فاني اكتفيت بالابتسام خشية أن أجرح شعور الرجل . ولم يتوقف سيل سخريتها :

ــ ... الله منعم عليه ، ومع ذلك ، يترك عياله يعيشون عيشة بعلية ويدور بكرشه هنا وهناك !

كل هذا ، وأبو جمعة لا يضطرب ، بل انه قال بصراحة أدهشتني ،

أنا الذي لم أكن قد ألفت ، بعد ، مجالس الفلاحين والتندرات التي تدور فيها :

ـ زوجت رجا بنتي ، ولي في هذا البيت حقوق !

فواصلت أم رجا هجومها :

ـ مسكينة عائشة ، كأنها كانت تعطيك طعامها هي الاخرى ، حتى يمتلئ كرشك !

وكانت تلك غمزة في الصميم صاغتها بهذا القدر من الدقة، وأرغمتني على الضحك ، فعائشة نحيلة بالفعل كأنها عود قصب .

وحاول ابو جمعة أن يصد الهجوم :

ـ من جورك عليها ، انسدّت شهيتها .

لكن المرأة المتسلطة لم ترحمه :

ـ شوفوا أبا كرش ، لماذا لم تسمنها في دارك !؟ كانت بطة عندك وصارت عندنا حمامة ؟! يا أخي ، كبحك ! من غيرك خلاها قليلة الاكل ؟ كلي يا عائشة ، مالي نفس ! تعودت على القلة في دار أبيها فلا تصدق ان الناس يشبعون ! من بخلك جعلت البنت مثل الشريطة ، الله يجازيك!

وبدا لي ان ابا جمعة الذي ألف مثل هذه المماحكات وربما صار يستمرئها ، متحرج لأني موجود ، فقد انخطف بصره ناحيتي ، ثم قال متوسلا :

ـ أسوق عليك النبي ، حلي عني !

وضحكت أم رجا ضحكة رخية ، ثم توجهت ناحيتي مغيرة مجرى الحديث :

ـ أبو جمعة رجل طيب ، صدقني • ولولا هذا ما زوجته ابنتي • هل ستأتي زوجتك الى هنا ؟

ـ مالي زوجة •

أجبت بهذا الايجاز لأني فوجئت بسؤالها ، فألقت عيناها سؤالا ممزوجا بالدهشة ، وهما مصوبتان نحوي في نظرة مباشرة كأنهما تحاصرانني • وتلبسني التحرج • حاولت الفكاك ، فأضفت كمن يعتذر:

ـ ••• ما صار نصيب •

فقالت وقد تراخى حصار عينيها لي :

ـ شوفوا دلع أولاد المدن ! في عمرك ، لازم أن يكون عندك جيش أولاد •

ثم سألت متسرعة :

ـ ••• إياك ان تكون كما يقولون عن أولاد المدن ، لا تنفع للنساء !؟

هذا السؤال انتزع مني بسمة مرة ، ولم أجد رغبة في الاجابة • وسرحت متفكرا في الهموم التي منعتني من الزواج ولا بد أنها أساءت فهم شرودي •

ـ انت مثل ابني رجا •••

فقاطعتها لاادري لماذا :

ـ انا اكبر منك بكثير ، عمري ست وثلاثون سنة

ولعلها حدست شيئا وراء اعتراضي :

ـ انت اصغر مني على كل حال

ـ لايبدو هذا عليك • من يراك يقل انت في الثلاثين

فبرقت عيناها لحظة خاطفة ، ثم قالت مستعيدة تبسطها مع الجميع :

ـ شوفوا الشطارة ، رجا عمره تسعة عشرة ، والبنت واحدة وعشرون •

وتدخل ابو جمعة ، محسولا ، على مابدا لي ، بأن يعارضها

ـ الاستاذ يقول الحق ، ولدت بكرك وانت في السادسة عشرة •

وبنبرة واثقة ، قالت ام رجا :

ـ ياأخي ، كبحك ! حتى على حسبتك انا اكبر منه •

واتتني الهمة فقلت :

ـ ومع ذلك ، تبدين أصغر •

وقالت حاسمة الجدل :

ـ خلنا من هذا ••• في أي شيء كنا ؟ اذا كنت مثل ماانا خايفة ، ادلك على الحاج راغب المحمود • أبو جمعة يقول لك • حجاب واحد

من الحاج وتصير مثل الحصان . والبنات مرميات مثل الزبل ، انتق التي تحلو لك ...

على هذا النحو مضى حديثها . وجاء العشاء فاكلنا وهي توزع ممازحاتها وغمزاتها وانا مشدود اليها بكليتي . وحين رفع الطبق الكبير، كانت ام رجا في ذروة تألقها . وقد صار لليونة حديثها دبيب يسري في جسدي كما تسري نشوة النبيذ الجيد .

عادت لحديث الزواج ، وحجب الحاج راغب ، ولامر ما ، لم اتحمس لتصحيح انطباعها ، كما لم ارغب بالطبع ، في تأكيده ، رأيت ان غموض المسألة يتركنا في دائرة الحديث المستطاب ، فداورت في الكلام مستثيرا حميتها للامعان فيه . كنت جديدا على هذا الجو ، لااعرف حدودي فيه . أما هي فظلت تترقب ايضاحا شافيا ، يستثيرها الفضول فتهم بتناولي كما تفعل بالاخرين ، ثم يلجمها التأدب مع الضيف الجديد، فتتوقف .

وقال شيخ من الحاضرين ، لعله شاء ان يخرج الحديث عن دائرته الخصوصية ، او شاء ان يوجه هجومها ناحية أبي جمعة كرة اخرى : « لم تحك للاستاذ ماالذي عمله الحاج راغب لابي جمعة » . وأثارت ملاحظة الشيخ هبة ضحك ملأت الحجرة ، الكل يعرف . وتبسمت هي متمهلة فأدركت ان علي ان استثير همتها للحديث ، والحفت فلم

تستدرجها أسئلتي للتو ، بل انها سحبت بسمتها واخذت توزع اكواب الشاي التي أحضرتها عائشة • الا ان ابا جمعة نفسه ، ولعله ظن انها تتهيأ للهجوم عليه من جديد ، تطوع باستفزازها من حيث اعتقد انه يدافع عن نفسه :

ــ لاتترك سترا مغطى ، هذه المرأة •

وكان ان انفتحت :

ــ ياليته لم يكتب لك ذلك الحجاب • من يومها ، وانت لاريب مثل الثور المعصوم !

لم أفهم التشبيه ، لكني ادركت مغزاه • وفي هذه اللحظة داهمني الاحساس بأني عرفت امرأة كهذه قبل الآن ، اعتصرت ذاكرتي فلم تسعفني • وغبت لحظات في دوامات الذاكرة المعتمة • ولم تتركني ام رجا لشرودي ، نبهتني بحركة فتنتني بساطتها ، وضعت كفّها على ركبتي وهزت الركبة :

ــ نعست ؟ اشرب شايك قبل ان يبرد !

فاجبت على سؤالها صادقا ، مدفوعا بخوف سري من ان ترغمني على النوم وافتقد متعة استلذها بقوة :

ــ ابدا ! طير حديثك اللطيف النعاس من عيني •

واختطفت كوب الشاي بنشاط اردت منه ان يؤكد ماقلته ، ورشفت رشفة كبيرة وانا الاحظ ان قولي انعشها . وتهيأ لي انها تستشعر سحر شخصيتها عليّ وسوف تتصرف منذ الان على هذا الاساس .

اما ابو جمعة ، المتحفز للرد على تعريضها به ، ففتح فمه ليقول شيئا غير أنها اسكتته باشارة متسلطة من يدها قبل ان ينطق . واكتسى وجه ام رجا صرامة جادة ، وقالت كانها ملكة توبخ تابعا :

ــ كبحك ياخنزير البراري ، تتشمم أقفية النساء ، ولاتنال شيئا !

فضحك الحاضرون بغير تحفظ ، وابو جمعة نفسه ضحك بانبساط ادهشني ، في حين لم تفارق الصرامة وجهها . وفي هذه اللحظة سطع في ذاكرتي ماكنت ابحث عنه ، وقفزت الى مخيلتي صورة ملكة من ملكات الطوارق كونتها وانا اقرأ رواية عنها قبل سنوات . ملكة الطوارق تلك كانت تقتل عشاقها الواحد تلو الآخر ، وتحنط اجسادهم بطبقة من النحاس وتحفظها في توابيت داخل قبو هيأته لهذا الغرض ، وكان عشاقها من الغرباء الذين تحملهم اطماعهم الى حجراتها . ورحت اقارن بين جمال الاثنتين ، وعن لي ان كثيرين اشتهوا ام رجا وانها قهرتهم دون ان ينالوها .

ــ نعست !؟

هذه المرة ، كانت تحثني على التنبه ، وادركت انها ، هي الاخرى ،

تستطيب الجلسة • وفسرت بما ينسجم مع هذا الاستنتاج ، حركتها حين تناولت كوبي وضعته في يدي •

ـ عندما انعس سوف اخبرك

هكذا اجبت بشيء من الدلال • ولم تعلق هي بشيء بل مضت في حديث لابد انها شرعت فيه وانا منصرف لمقارناتي :

ـ وقالت لي فاطمة الموسى انها سمعت حركة وراء الاشجار ففهمت ان هناك من يتلصص على عريها ، ورمت نظرها على تلك الناحية ••• احزروا من كان هناك ؟

ضحك الحاضرون لانهم حزروا . اما انا الذي لم يسمع اول الحكاية ، فنظرت الى ابي جمعة متوقعا ان يكون هو المقصود ، لالشيء الا لانها نظرت ناحيته ايضا • وبدا ابو جمعة كالمطوق يحاصره الصمت المتواطيء الذي تبع موجة الضحك ، والنظرات المتهمة • وشاء ابو جمعة ان يكابر فتساءل مستنكرا :

ـ كنت انا ؟ قوليها !

ولما رأى ان الاعين كلها تدينه ، هتف بنبرة انضاف فيها الاحساس بالخذلان الى بقايا مكابرته :

ـ ••• علي الطلاق انها كذابة !

فاطلقت ام رجا اتهامها صريحا :

ـ شوفوا الرجل . يكذب ويحلف بالطلاق ! انا ابحلف برحمة

عبد الله الرجا انك انت الذي كان يشمشم عند النبع ، حتى لو لم ترك فاطمة الموسى بعينها ، فمن يفعل هذه الدنية غيرك !

ولم يجد ابو جمعة ، بعد ، مايقوله ، في حين اكملت هي الرواية :

ـــ والانكى من هذا انه بدل ان يستحي ويواري حاله نط من بين الشجرات . وهجم على المرأة العارية . خشيت فاطمة الفضيحة حسبت حساب بلاء الرجال ببعضهم ، لكنها قد حالها ، صدته وهي مشلحة ، بطحته وغطسته في النبع ولا من شاف ولا من دري !

ـــ متى حكت لك هذا الحكي ؟

القى ابو جمعة سؤاله بنبرة مشككة ، آملا ان يحملها على التراجع ، غير ان ام رجا مضت في الاتهام :

ـــ من يوم ما عمل لك الحاج راغب المحمود الحجاب .
قالت هذا وابتسمت ابتسامة عريضة .

حين بدأت اصغي للحكاية خيل الي انها وقعت في هذا اليوم او في الامس .

ولما ادركت ان الحكاية قديمة ، داخلني ، لاادري لماذا ، شيء من الشك في ان ام رجا انما تمزح او تبالغ . وعلى كل حال فان ابا جمعة لم يستسلم :

ـ آخرتها ، تعرف فاطمة الموسى هذه الى اين سيودي بها الكذب. اذا ربنا ما كوى لسانها بالنار ساجعلكم تبولون على قبري •

وكأن ام رجا ادركت انها افضت بأكثر مما يجوز الافضاء به وعزمت على التوقف :

ـ كذب !؟ كذب • قل ماتحب • الاستاذ تعبان ، نتركه لينام •

ونهضت وهي تقول لي :

ـ ريح بدنك يابني !

وكان قيامها ايذانا بأن السهرة انتهت ، فنهض الاخرون بدورهم ، وودعوني وانصرفوا • واستدعت ام رجا كنتها واصدرت اليها اوامر دقيقة لاعداد فراشي في الحجرة التي سهرنا فيها •

وحين تسددت ، كانت تستحوذ علي صورة ام رجا وشخصيتها واصداء حديثها ، فتملاء مخيلتي • وبينما اخذت اهوم للنوم ، كانت ام رجا تختلط بسلكة الطوارق ، وكلما اوغلت زالت الحدود بينهما •

* * *

في الصباح ، ايقظتني الجلبة المتسللة من باحة الدار • وتوهمت للحظات اني في الحجرة التي انام فيها مع ابي واخوتي في بيتنا في دمشق• وكنت وانا اخرج الى عالم الصحو اتشبث بهذا الوهم لابقيه في مخيلتي،

شوقا لرؤية الاخوة الذين فارقتهم وللتمتع بدفء الصباح العائلي الذي فقدته • غيران هذا لم يدم طويلا ، فلم تلبث اجواء سهرة الامس أن تراءت لي ، ومعها صورة المرأة الآسرة ، فاستسلمت لها ، مستشعرا هناءة غامضة تستزج لذائذها مع دفء الفراش وتشدني اليه • ولم اجد مايحسلني على النهوض الى ان دخل رجا ، اطل اول الامر متلصصا من وراء الباب ، فلما وجدني صاحيا حياني بصخب ، ثم شرع يحدثني فيما لم اسأله عنه •

كان يتكلم بطلاقة تزيد من تفتح عينيه الجاحظتين ، وانا اتأمل هذا التفتح الذي يتناقض تماما ، مع انطوائه وانسحاقه في حضور أمه •

ومنه عرفت امورا اخرى عن احوال اسرته ، لديهم قطعة ارض مروية يستأجرونها من البك ، كان أبوه يستأجرها قبل وفاته ، ولديهم قطعة أخرى بعلية توسط بعض الاصحاب فاقنعوا البك بتأجيرها لهم • وبهذا ، فاسرتهم هي الوحيدة في السهل ، من غير اسر المخاتير • في تستفلح اكثر من قطعة • ومنه عرفت ، ايضا ، مشاعر الذين حضروا سهرة البارحة ازائي ، فقد اعجبوا بي ، واولهم واكثرهم اعجابا ابو جمعة ، الذي مر مبكرا هذا الصباح ليسأل عني • وحين اتى رجا على ذكر ابي جمعة ، افهمني انه رجل طيب ، وفسر لي رجا سر مجيء امه امس على حكاية فاطمة الموسى ، فقد سمعت الام ان ابا جمعة يحوم

حولها حتى يخطبها بينما تصده فاطمة • كما افهمني ان امه هي التي انتقت له ابنة ابي جمعة من بين البنات كافة ، وقال ان زوجته بنت حلال، وان كانت حين تزوجها لاتجيد الطبخ ، اما ابو جمعة فهو غير موفق مع اخته لان هذه لاتطيقه •

وروى رجا ان امه صحت مبكرة واعدت بنفسها عجين الزلابية ثم ايقظتهم كي يلقوه ، ومضت تتفقد الحقل بعد ان امرتهم بأن يتركوني حتى اصحو وحدي ، ووعدت بأن تعود لتفطر معنا •

كان رجا منطلق العنان ، وهكذا مضى في ثرثرته ، منتقلا من موضوع لآخر ، الى ان اوقفه صوت ابي جمعة ، قادما من الباحة : « دستور يا اهل الخير » ! ثم اقتحمت القامة المستديرة الحجرة • والقى القادم نظرة علي وانا جالس في الفراش ، واضاءت ابتسامة واسعة قتام وجهه : « نوم الاكابر ! ماهذا ، معود على الدلال » !

فقمت بحركة اردت بها ان اعبر عن احترامي له ، وعندها ، فقط ، اكتشفت انني نمت بثيابي • وتذكرت اني لم افتح حقيبتي ، حتى اني نسيتها تماما ، ووجدت النظارة ملقاة بجانب الفراش • ومرت في خاطري فكرة : لقد تصرفت كأني في بيتي •

هتف ابو جمعة مشجعا ، كأنما ارادها فاتحة للحديث :

ـ افرد وجهك • بلدنا خير من غيرها ، ماء وفيء وخضرة وسمك ، الا تعرف سمك البطيحة ؟ يأخذونه الى الشام •

ــ لا نأكل السمك كثيرا في بيتنا •

ــ لو اشتهيت اكلة سمك ، وصني ! الصيادون كلهم زبائني • فقط اعطني وقتا فهم لايصيدون كل يوم •

قال ابو جمعة هذا وغمزني بعينه :

ــ ••• تعرف ، الصيد ممنوع ، يسرقونه سرقة •

فسألته مدهوشا :

ــ ممنوع ، لماذا ، عندكم النهر ، وعندكم البحيرة ؟

وبدا انه مدهوش لدهشتي ، ووشى تعبير وجهه برد فعل فيه استهانه بجهلي لا يحاول اخفاءها • ثم فتح عينيه الضيقتين قــــدر استطاعته :

ــ امانة الله ، لاتعرف ؟ حلفتك ، قل الصح !

ــ اعرف ماذا ؟ اقول لك : نهر وبحيرة ،فما الذي علي ان اعرفه بعد!؟

وتدخل رجا :

ــ ابو جمعة يزودها ، فهم يصيدون على كل حال ، احسن الصيادين في الدنيا عندنا •••

لكن ابا جمعة قاطعه ، وقد انفتح له باب جديد لادهاشي :

ــ الصيادون الجويدون ، واحدهم ، يومه بعشرة ارطال يصيدها بالخيط ، لكن الحكومة تحاربهم خوفا من اسرائيل ، الحكومة لاتريد المشاكل •

وهم رجا بالاحتجاج فاسكته ابو جسعة بنظرة ، واكمل :

ـ ... كل هذه البواريد ، حاشاك ، عليهم ان يحطوها في اقفيتهم، العصي انفع منها فلأي شيء يقتنونها . طول عمرنا نصيد لحد ماجاءت الاسرائيل وجاءت الحكومة !؟

ولامر لم اتبينه ، ظهر على رجا امتعاض مفاجيء وقاطع نسيبه لأنما :

ـ نظام ، الدنيا فيها نظام .

فانتهره ابو جمعة :

ـ اسكت انت ، ايش عرفك ياابن البارحة !؟ بلا نظام بلا طز . حاشا من سمع !

واذ تنبه الى اني لااشترك في الحديث ، سألني :

ـ لماذا انت ساكت ؟

فأجبت ، وكنت قد نهضت وفتحت حقيبتي :

ـ مسألة لااعرف عنها شيئا ، فماذا اقول ؟

واصر رجا :

ـ ابو جمعة زودها ، المنع ليس كل يوم ، يسنعون حين تشد اسرائيل ، حكم على الكل .

ولعل ابا جمعة فسر استنكافي عن الكلام بأنه ميل الى رأي رجا ، ولذا اطبق فمه مجاملة لي ، وحين نطق انتقل الى موضوع آخر :

ــ تضحيتم ، الا تريدون ان تفطروا ؟

وهذا ، في الحقيقة ، ماكنت افكر فيه . وارتبك رجا وهو يقول موجها الكلام لي :

ــ نفطر اذا شئت ، الاكل حاضر .

وبرغم جوعي ، قلت ، اذ ادركت سبب ارتباكه :

ــ ينتظر الوالدة ، الم تقل انها ستفطر معنا ؟

وتساءل ابو جمعة ، وكان وجهه المشدود قد انفرد :

ــ حقا ! اين ام رجا ؟ لاتطيب المناكفة بدونها .

ودخل رجا في حوار مع نسيبه ، بينما رحت ابحث عن الماء محاولا ان اجده بنفسي دون اقلاق مضيفي . ولما فشلت في العثور على الماء ، استنجدت برجا فقفز خفيفا ليعود بعد قليل وعائشة وراءه تحمل ابريقا، فقلت محييا :

ــ صباح الخير .

فجمجمت برد خجول ورأسها منكس .

وبينما كنت اغسل وجهي بمعونة عائشة التي اصرت على ان تصب لي الماء ، وصلت ام رجا ، دل عليها صوتها قبل ان تلج الباب :

ــ احلف ان ابا جمعة هنا ، جذبته رائحة الزلابية !

ملكة الطوارق وتسلطها . لكن أية ملكة هذه الطالعة من طين الارض.

وجه مكدود ، وشعر معفر ، واردية مغبرة ، وقدمان تحملان نضار التربة ! امرأة كأنها واحدة اخرى غير تلك التي اسرتني في الليل • لكن الشخصية هي هي لم تتبدل ، والحضور ذاته لم ينتقص ، والمقدرة ذاتها ، لم يصبها وهن •

وعلى الفور ، صدرت الاوامر للكنة ، ومد الفراش على المصطبة التي مازال ظل الدار يغطيها • وجلست ام رجا قبالتي على الحصير في حين اقتعد ابو جمعة الفراش بجانبي ، اما رجا فقد اختفى حضوره • وحضرت الزلابية ، واستبقتنا ام رجا فتناولت قرصا طوته ثم ادخلته في فمها واشارت الينا كي نبدأ • وتذكرت لحظتها ان الرواية لم تصف ملكة الطوارق مرة واحدة وهي تأكل •

ـ لاتعجبك الزلابية ؟ لماذا لاتأكل ؟

القت سؤلها ثم لم تنتظر اجابتي :

ـ ••• ابو جمعة اكل قرصين وانت مامددت يدك !

وسبقني ابو جمعة الذي رد بشيء من الحزم :

ـ اسوق عليك النبي ، لمي لسانك خلينا نتهنا ، لولا انها زلابية لما اكلت ، فأنا افطرت قبل ان اجيء •

فقالت ، وهي تشرع بطي قرصها الثاني :

ـ كل ، واسكت !

لكن لهجتها وهي تردعه خلت من الفظاظة ، بل ، على عكس هذا ، كان فيها شيء من التشجيع ، خصوصا انها اطلقت امرها وهي تبتسم . ويبدو ان ابا جمعة اكتفى بهذا ، فلم يفه بما يستثيرها . ولعله تعمد تجنب شرها حين انتقل الى موضوع آخر :

ــ متى ستزور البك ، لابد انه عرف انك وصلت ؟

فعلقت ام رجا بنبرة ذات مغزى :

ــ سلامة الذين يجلجلون بالاخبار !

وكان ابو جمعة ، لحظتها ، يحشو فمه بقرص جديد ، فلم يجد فسحة للتفوه بكلمة . والتفت انا ناحية رجا :

ــ نذهب الان الى المدرسة ، علي ان اراها واعرف حالها . ثلاثة اشهر انقضت منذ بداية العام الدراسي ، ولابد ان نبدأ .

غير ان ماكان يشغلني لم يكن يشغلهم . وادركت ان رجا لم يفهم عبارتي الاخيرة ، فقد اجاب :

ــ في العام الفائت . ماكان عندنا استاذ ، جاء واحد كم يوم وراح . وجاء بعده ثان ، ظل اسبوعا اسبوعين ، علق مع جماعة البك وراح هو الآخر ...

فقاطعه ابو جمعة :

ــ طرده البك .

فألقى رجا نحوه نظرة معاتبة رد عليها ابو جمعة ضاحكا :

ـ ياعم ، بطل !

وتدخلت ام رجا :

ـ لاطرده البك ولاحاجة ، الحكاية ومافيها انهم مسكوه في الخلاء، اجلك الله ، على جحشه . خجل وراح لحاله . البك ، عمره ، ماشافه .

وهتف ابو جمعة ، مصرا على تفسيره :

ـ ياستي ! البك طرده لانه ناكفه .

وهم رجا بأن يقول شيئا ، غير ان امه هي التي تكلمت :

ـ ابو جمعة دائما هكذا ، فلا تسمع كلامه ، يرى الدنيا كلها من صرم البك .

وهنا انبرى ابو جمعة ، متحديا :

ـ حكاية الجحشة من الذي حكاها ، من منا شاف الاستاذ ؟ حكاها جماعة البك ، والهبل داروا بها !

وبهذه الغمزة من ابي جمعة ، اتخذ حوارهم منحى آخر ، قذفته ام رجا بنظرة غاضبة ومتهمة :

ـ عال ! انت الذي قلتها ، كم مرة حكيتها انت ، لماذا تكذب حالك الآن ، لماذا تتلون قدام الاستاذ ، عند أهل البلد شكل وهذه الساعة شكل !؟

واسقط في يد ابي جمعة فالتجأ الى المكابرة :

ــ يعني انا كذاب ، كل عاطلة حطوها في ، ابو جمعة .. ، ابـــو جمعة كذاب ، وبعد قليل تقولون : ابو جمعة هو الذي اخذ الجحشة للاستاذ !

وقرن كلامه بحركة احتجاج ، استرجع يده التي كانت على وشك ان تتناول قرصا ، وسحب جسده الى وراء واسنده على المخدة مستنكفا عن الاكل . غير ان ام رجا لم تؤخذ بهذا كله بل تابعت هجومها :

ــ الجحشة التي ان شاء الله ، تركبك ... قدام اهل البلد الذين يوصلون كلام للبك تحط الاستاذ في ذمتك ، والآن ، قدام الاستاذ سمير تعمل روحك طاهرة . شوفوا الشطارة ، يحرد عن الاكل بعد ما ملأ كرشه ، كان من الاول !

كنت اتابع المشاحنة فاهما مالذي يرمي اليه ابو جمعة ، ولم يلبث هو ان افصح عن بيت القصيد بنفسه :

ــ لاتقولوا جحشة ، ولاغيره . البك هو الكل في الكل ، لو اراد لابقى الاستاذ المسكين حتى ولو جاء بمئة جحشة الى السرايا !

« البك هو الكل في الكل » ، كلام وجهه ابو جمعة لي . وعزمت على ايقاف المشاحنة :

ــ نذهب اليوم للمدرسة يارجا .

فصمت الجميع اذ ادركوا ضيقي • ثم جاءت الكنة تتعثر بخجلها المزمن ، احضرت الشاي ، وحملت طبق الزلابية الى حيث اقتعـدت الارض قرب المطبخ لتأكل وظهرها الينا • اما ام رجا فهدأت سـورة غضبها ولعلها ادركت ، هي الاخرى ، مارمى اليه ابو جمعة واستصوبته فكفت عن مناكفته :

ـ اسمع يابني ! يد البك قادرة ، سايره اذا كنت تنوي الستر ، سايره وقل : نصحتني رقية المفلح • نحن نكسر كلاما ، لكن اذا جئت للصحح ، البك رجل طيب •

وفي داخلي ، اخذ شيء يفور •

ـ ٤ ـ

مايعدونه مدرسة لم يكن سوى مبنى طيني من حجرتين متلاصقتين في طرف ارض خلاء تقوم مقام الباحة ، وفي الحجرتين تكتظ مقاعد للدراسة جار عليها الاهمال ، ولا شيء غير هذا ٠

ومع انني حين قدمت ، لم اتوقع وجود اشياء كثيرة ، الا ان تلك الحالة ، التي جبهتني قسوتها ، اورثتني خيبة أمل مريرة ، ورمتني في حيرة لم ادر كيف اخرج منها ، فمن أين سأبدأ اذا كان المتوفر لا يعدو ان يكون صفرا ؟ سؤال تكوم امامي بحجم الهم المقيم ٠

كان رجا يراقبني وانا اتجول وسط هذا البؤس ، وما بدأ يفور بداخلي منذ حوارنا عند المصطبة صار يلسعني لسعا :

ـ متى استخدمت هذا المدرسة آخر مرة ؟

جمجم رجا برد غير مفهوم ، فكررت السؤال ، لالشيء الا لاتخلص من اللسع ٠ واتاني رد لايقدم اي ايضاح :

ـ كيف اعرف ؟ شغلوني سقاء في العام الفائت ٠

لسعة اخرى ، ودفعة جديدة من البخار الكاوي ، وضعتا على لساني سؤالا آخر لا هدف له :

ــ من الذي شغلك ؟

ــ النصيب .

هكذا اجاب ، وفي عينيه رجاء . ألا احمله مسؤولية ماليس هــو مسؤولا عنه .

ــ كيف سنبدأ امام هذه الحالة ؟

وكأنما كان جوابه حاضرا ، او كأنه لايهتدي بالفعل لوسيلة اخرى:

ــ رح للبك ، هو وحده الذي يديرها .

وكانت الاشارة للبك كافية لكشف الغطاء عن البخار المحبوس :

ــ طز في البك ، الا يوجد غيره على السنتكم !

فبرقت من عينيه الجاحظتين ومضة دهشة مقرونة بالخوف ، واتسعت فتحتا الانف كما ينفتح منقار طائر داهمه الرعب . واخرس الصمت رجا وجمد التهيب حركته . اما انا فيبدو ان حنقي هدأ في اللحظة التي بلغ فيها ذروته :

ــ اين يمكن ان اجد على الاقل ورقا ؟

ــ كنت ادخل مع نفسي في حوار البداية ، اما هو فكان مايزال على خشيته من انفجاري برغم ان نبرة صوتي حملت له بعض الطمأنينة :

ــ لا في قريتنا ، ولا في البطيحة كلها . من الذي يحتاج الــى الورق !؟

وتشجع اذ لاحظ اني لم انفجر :

ـ ... لا اظن أن أحدا عنده ورق غير البك .

قال هذا ، وأرخى جفنيه مترقبا احتدادي ، فلما وجدني صامتا واتته الشجاعة :

ـ ... سألتك بالله ، لا تزعل . أي شيء فيها اذا رحت للبك !؟

هذه الحقيقة ، التي كررها رجا وجلا ، كانت تنبثق أمامي في تلك اللحظة بالذات : لا مهرب من الالتجاء الى السرايا .

وكنت ، وأنا أصل الى الاقرار بها ، أجلس على مقعد مكسر يهتز تحتي ، باحساس الجالس على لوح نجاة يحمله فوق لجة تيار صاخب . كنت ، في الواقع ، مغتاظا لاني لا أجد سوى المدخل الذي أكره ولوجه. ورحت أفكر ، بينما كانت عيناي تلتقطان مشهد نفر من أهل القرية يتوافدون ويراقبوننا . كانوا يصلون الى الباحة ويحتشدون فيها ، يلجمهم الحياء من الدخول الى الحجرة التي نجلس فيها فيقفون مادين نحونا نظرات فضولية . وكان المشهد كله يدور أمامي كأنه يجري فوق شاشة سحرية ، ويختلط تأثيره علي بأفكاري المضطربة ، مسلما اياي الى حالة يصعب وصفها . ولكأني كنت أعلم ان المشهد يقول لي اشياء لا استطيبها ولكنه يفصح عنها باقناع لا مجال للزوغان عنه . وحين انتهيت الى الاقتناع بأن لا مفر من الاستعانة بخليل بك ، كان مشهد الناس في الباحة يكتسي واقعيته الصارمة . أما في داخلي فيسري ذلك

الاحساس بالراحة الذي يلم بمن قرر الاستسلام للامر الواقع بعد أن وافق على ان يستنكر ماضيه .

ولابد ان وجهي كان يعكس احساسي المرير هـذا ، فالوافدون الذين ابتدرتهم بالتحية ردوها بجمجمة وتهيب ، فنبهني ردهم الى مـا أنا فيه ، وضغطت على مشاعري كي افلح في التبسط معهم .

ومن بين الحشد ، تجرأت طفلة صغيرة ، يكسوها الفقر من شعرها الاشعث الى قدميها الحافيتين ، فتقدمت نحوي وعلى ثغرها ابتسامـة مترددة اثارت شجني بأكثر مـا أثاره فقرها ، وقفت الطفلة صامتة وابهاما يعبث بجانب فمها ، ووجهت لي نظرة طويلة غير ملحاحة ، ثـم نطقت :

ــ أي شيء هذا الذي على عينيك ؟

وبحركة عفوية ، امتدت يدي تتحسس النظارة . ووجدتني اسألها:

ــ انت من المدرسة ياشاطرة ؟

ــ أنا خزعة بنت محمود السلمان ، أبي في الحرس الشعبي .

ودنوت منها متوددا وجثوت كي الاطفها . وخلافا لما توقعته ، لم تجفل الطفلة ، بل مدت يدها وتحسست النظارة وهي مدهوشة ، وقد انبسطت بسمتها فغطت وجهها كله . ثم سحبت يدها ، فجأة ، كأنها احست بأنها تفعل مالا يجوز . واذ لم أجد ما أحاورها به ، كـررت السؤال :

ـ انت في المدرسة ؟

وبدا لي انها لا تعرف بم تجيب • وجاءني الرد من أحد الواقفين ، باردا ومحايدا •

ـ في المدرسة لا يسجلون البنات •

فصوبت نحو رجا نظرة مستفهمة • ثم سألته اذ بقي صامتا :

ـ لماذا ؟

ـ ما الذي يدريني •

ثم ، كمن قرر ان يقول شيئا حاسما ليتخلص دفعة واحدة من نظراتي واسئلتي :

ـ الحق ان المدرسة لم تفتح منذ اشتغلت فيها ، لا جاء صبيان ولا بنات ، ولا احد يهتم •

عادت خزعة لتتحسس نظارتي بكلتا يديها • ويبدو انها انتبهت فجأة الى ان عدستي النظارة تعكسان صورتها ، فاضطربت عيناها تحت وطأة هذا الامر الغامض الذي شاقها في الوقت نفسه • وبادرت ، من جهتي ، فخلعت النظارة ، ووضعتها على عينيها ، وانا امسك بها حتى لا تسقط عن الوجه الصغير ، غير أن رغبتها رؤية صورتها تغلبت على خوفها من الغموض ، فهتفت :

ـ خلها مطرحها !

لفظت العبارة المحلية ، فلم افهم قصدها ، ولم استرجع النظارة . فتململت متضايقة ، وحاولت ان تنحيها بيديها ، وظننت ان الصغيرة تخشى ان اتضايق لو بقيت نظارتي على عينيها وانها لهذا تحاول اعادتها. وشئت أن أظهر تسامحي بابقائها على وجهها اطول مدة ممكنة . وهكذا نشأت المفارقة ، هي تحاول ان تعيد النظارة الى عيني كي ترى صورتها فيها ، وأنا أبقي النظارة على وجهها ظانا اني بهذا اسعدها .

واخيرا ، استنجدت خزعة برجا الذي افهمني مطلبها . واذ تنبهت الى المفارقة ، ضحكت ضحكة انتقلت عدواها الى الطفلة فضحكت بدورها. ووجدتني، احتضنها وادني وجهها من وجهي حتى ترى صورتها . وانقشع تحفظ خزعة ، وشاع في قسماتها فرح اظهرته ضحكتها الطلقة وكركرتها التي سرت في الحشد فاذابت تحفظه وجموده، لتسيل على الاسئلة والتعليقات .

وحين هممت بمغادرة الحشد ، امسكت خزعة بي ، وفي عينيها شك في استعدادي للاستجابة لطلبها :

ــ في نفسي أن أقرأ عندك ، مثل الصبيان .

فكأن قبضة امسكت بجماع احشائي فاهتصرتها . ما الذي لا يهون ازاء رغبة طفلة بريئة !

وفي مآقي تكثفت مشاعري حاملة طفرة دموع تكاد تنفجر . ايتها

الطفلة التي غمرني فرحها ، ما كان اسخفني اذ اتمسك بكبرياء شخصية حين تحرمك من نور التعليم • اما المحتشدون فضحكوا ضحكا حرت في تفسير مغزاه ، واندفعوا نحوي ، وكل منهم يريد مصافحتي قبل ان امضي ، حتى طوقتني حلقة من الايدي الممدودة ، وسأل كهل احتفظ خلال الصخب بالصمت والوقار :

ــ ستفتحون المدرسة ؟

ولاني لمست في صوته شكا مبطنا بالسخرية ، اندفعت اقول ، كأني أؤكد هذا لنفسي ، بأكثر مما أؤكده له :

ــ عما قريب ، سنفتحها •

ــ كلهم يقولون هذا الحكي ، ثم يرحلون • اصحاب البنطلونات لا يهمهم الفلاحون •

القى الكهل الاتهام صريحا • وتدخل رجا متباهيا :

ــ هذا الاستاذ ليس مثل الآخرين ، صدقوني !

كان ، من غير ان يدري ، يعطي ، بالنيابة عني ، عهدا التزم به •

وسرت مبتعدا وانا اشيل ثقل الرجاءات التي تحيطني بها العيون • وسار رجا ورائي ، ثم باراني ليقول بلهجة متعاطفة :

ــ خلنا نذهب للبك ، لا يحلها غيره •

كان يكرر ما يعتقده ويؤكده ، ولكنه كان ، في الوقت نفسه ، يدفع الحوار الذي يدور في داخلي الى نهايته •

لم أقل شيئا على الفور ، الا ان خطاي اخذت تواكب خطاه ، وكأنها تسبقني الى الموافقة .

ومضيت ، وفي ذهني تنبثق صورة عصام . الصديق الذي ظلت صورته تتلامح في مخيلتي كلما واجهت حكاية الاستعانة بالسرايا . ما أكثر ما ردد عصام اثناء مناقشاتنا المديدة في دمشق : « انت ياسمير ، انسان شريف ، لكن ذاتيتك هي مشكلتك الكبيرة ، وهي التي تحجبك عن الانخراط في صفوفنا . وعاجلا أو آجلا ، ستتعلم ان مشاعرك الشخصية ، وحتى كرامتك الشخصية ، ليست أهم من مصلحة شعب بأسره » . وفي تلك اللحظات كان عصام حاضرا بكل تأثيره ، وكنا نتحاور ، كنت احاور نفسي اذ احاوره . هو الطرف الآخر الذي يحثني من داخلي أن أجرب نصيحة هذا الفتى الصامت بجانبي .

واذ انتهيت الى قرار ، وخشيت ان انكص عن الاستجابة لصوت العقل ، التفت الى رجا ، وهتفت :

ـ خذني الى السرايا !

* * *

تتوسط السرايا سهل البطيحة وقراه ، وتنبسط فوق بقعة واسعة في هذا الموقع . ولامر ما ، لعله مقصود ، كان للسرايا طراز القلاع أو شيء يذكر بهذا الطراز . نسط بنائها ، والسور المرتفع الذي يحيط بها.

والبوابة التي يقف امامها الحراس • تعبر هذه البوابة فتفضي بك الى باحة مربعة كبيرة • تحيط بها من ثلاث جهات حجرات متلاصقة امامها رواق يقوم سقفه على اعمدة • أما في الجهة الرابعة ، المقابلة للبوابة فتقوم فيلا كبيرة للسكن ذات طابقين ، يصلها بالباحة باب مغلق ولها من ناحيتها الاخرى باب ثان يصله بالطريق • وللفيلا سطيحة مزينة تطالعك عرائشها ، وتبدو ، من حيث نظرت اليها ، احواضها المزروعة بالورود •و السور يحيط بقسمي السرايا هذين ، يوحدهما ويحميهما من انظار الفضوليين •

ولجت البوابة عبر حشد الحراس المدعمين بالكلاب • وقد ابتدرهم رجا قبل ان يسألوه : « استاذ جديد يريد ان يقابل ابا حسان » • وحين استفهت عن أبي حسان هذا ، اجاب بمهابة « انه وكيل البك » •

وأمام حجرة الوكيل ، وقف رجا مترددا كأنه ينتظر قدوم من يطلب لنا الاذن بالدخول • فلم اطلق هذه الوقفة ، بل دخلت بغير استئذان ، في حين بقي رجا في الرواق • بعد ان تزحزح الى ناحية تسمح للوكيل بأن يلحظه •

كان أبو حسان يجلس وراء مكتب في صدر الحجرة ، ومع انني داهمته بغير استئذان ، فقد شملني بنظرة خلت من أي معنى محدد ، وخلت خصوصا ، من الاحساس بالمفاجأة • وهذا في الواقع ما ادهشني واربكني في الوقت نفسه ،أنا الذي شئت أن أجعل اقتحامي لحجرته حدثا

ادل به على تسيزي ! وانقضت لحظات، رحت خلالها اتأمله بينما ظل هو صامتا ، الى أن نطق اخيرا داعيا رجا للدخول . وقد دخل سقاء المدرسة وحيا بأدب مفرط وبكلمات يكاد جرسها لا يبين، ثم وقف ويداه مرخيتان وهما متشابكتان عند ملتقى فخذيه . وبحثت عن كرسي أجلس عليه لان ابا حسان لم يدعني للجلوس ، وكان أقرب الكراسي موضوعا ازاء المقعد الذي يجلس وراءه ، فاحتللته . وهنا فقط قذفني الوكيل بنظرة لم يجهد لاخفاء وقاحتها ، وكأنه يقول لي : ليس لك هذا الحق . ثم سحب نظرته بعد أن اطمأن الى أن مغزاها وصلني بتمامه ، واستفهم ، موجها السؤال لرجا : « الاستاذ الجديد » ؟ فأجبت أنا : « نعم ، جئت لارى خليل بك » . ومضى هو في تجاهله لي ، وظل حديثه موجها لمرافقي : « الذي قدم امس ولم يكلف خاطره بزيارتنا » ؟ وكنت مستعدا لمواجهة تحديه . وبتسرعه ، على هذا النحو ، في التعبير عن استيائه ، ايقنت أنه أخف مما توقعت . واجبت ، مرة آخرى ، مستبقا رجا ، ولم اكن مستفزا : « لا يتوجب علي أن أشرح دوافع سلوكي الشخصي ، فأنا لا أعرفك وليست لك على حقوق . كل ما في الامر اني فهمت أن لمعلمك صلة بعمل المدرسة . وجئت لاستجلي هذا الامر ، ولا عرف ما اذا كان خليل بك راغبا في المساعدة . ليس لي غرض آخر » .

كان للجالس أمامي هيئة ليس فيها ما يميزها عن كثيرين ، فهو

ليس ضئيل الجسم وليس كبيرة • وله وجه ممسوح القسمات والناظر اليه لا يرى شيئا ذا بال ، الا ان هذا الوجه يصير شيئا اذا تكلم ، اذ يكتسي قدرة على التعبير لعله اكتسبها بالمران الطويل • وله ، الى هذا، شنبان كبيران ومديدان ، تتناقض ضخامتهما مع القسمات الممسوحة ، فكأنه شيء اصطنعه صاحبه استجابة لمستلزمات وظيفته ليس غير • ومع ان بياض الشيب اختط دروبا وسط عتمة السواد في رأسه ، فان الشنبين يحتفظان بسوادهما التام ، وينتصبان علامة تدل على مكانة حاملهما •

اصغى أبو حسان لعباراتي التي انتقيت الفاظها وتعمدت صوغها بالفصحى ، وقد ارغمته نبرتها غير الودية على الانتباه • وكان يستمع بينما تقول نظرته ببطء بارد : الافضل لك ان تتأدب • ثم خاطبني وهو يواجهني بالنظرة ذاتها :

ـ الظاهر أن الاستاذ ، ما اسمك ؟ ، شامي •

فقلت ، متغافلا عن سؤاله ، ومستخدما نبرة الاستهانة ذاتها التي استخدمها :

ـ انت الآخر شامي ، هذا واضح حتى مع هذه الملابس •

وكنت بهذا اشير الى اختلاط المديني والريفي في زيه ، البدلة الكاملة برباط العنق ، مع الحطة والعقال على الرأس •

ولم يضطرب ازاء نظرتي المتأملة ، بل تابع ما بدأه من اسئلة :

ــ من أين ، من أي حي ؟

ــ من حي العمارة •

ــ ابن من في العمارة ، أنا من هذا الحي ؟

ــ ابن الكندرجي ، أبو سمير ، سعيد الكندرجي ، أنا سمير •

كنا نتبادل العبارات كأننا نتراشق بقذائف •

ــ اعرف اباك ، كان اسكافيا له بسطة عند درج النافورة على باب جامع الاموي ، ثم عمل كندرجيا ، هل صارت له دكان ؟

ــ ابي خباز ، يعمل في الفرن •

ــ كان اسكافيا حين تعرفت عليه قبل ولادتك ، لعله لم يقل لك ، حتى لا تخجل •

ــ انت لا تعرف أبي ، هذا واضح ، وأنا لست ممن يخجلون من أية مهنة ، فخيط بغير هذه المسلة !

ولم يضطرب وانا اتهمه صراحة بالكذب •

ــ قد يكون من عرفته شخصا آخر من عائلتك •

ــ عائلتنا صغيرة ، وليس فيها واحد لمهنته صلة بالاحذية •

وهنا فقط ، اخذ خيط من الحنق يبين في تصرفاته ، وشئت أن اوغل في استفزازه :

ـ عرفت انك تخدم عند خليل بك،استفهم اذا كان حضرته موجودا.

ـ انا هنا وكيل البك .

ـ انت الذي ترتب مواعيده ، أريد أن أراه بأسرع وقت .

واذا به يسألني بغير مقدمات :

ـ لماذا لم تأت الينا البارحة ؟

ـ استضافني رجا .

فرمى رجا بنظرة خاطفة ، وبدا لي أنه لا يعرف ماذا يقول بعد ، وصمت متفكرا فقطعت صمته :

ـ ... هل ستخبر خليل بك ؟

وكأنما اعطاء سؤالي فرصة ليقول شيئا لا يخرجه عن تعاليه :

ـ البك غير موجود .

واذ رآني اقف بنية الانصراف ، أكمل :

ـ البك في الصيد ، سأطلبك عند ما يصير له وقت لك .

وعن لي ، بعد ان صرت في منتصف الحجرة ، ان استشيره ، فالتفت وسألته بنبرة متهمة :

ـ لماذا تحتقر الناس ؟

وبدا ، هذه المرة ، مفاجأ تماما :

ـ انـا ! ؟

ثم قام ودار حول المكتب ، لاكتشف ، مفاجأ بدوري ، انه يعرج عرجا بينا ، وينتعل ، بسبب عاهته حذاء أحد كعبيه أعلى من الآخر • وتقدم نحوي حتى وقف بمواجهتي ، ورماني بنظرة طويلة ليفهمني انه ليس من حقي ان اخاطبه بلهجة كهذه ، ثم سألني بدوره :

ــ ما الذي تناله حين تعادي خلق الله ؟!

ــ لا اعادي الا من يستحقون العداء •

قذفته بهذه العبارة ،وانفتلت خارجا ، قبل ان يجد الفرصة ليقول جديدا • وتبعني رجا بخليط من مشاعر الخوف والدهشة والاشفاق علي • ولاني رغبت في ان اخرج مرافقي من سهومه ، سألته حين صرنا خارج السرايا :

ــ منذ متى يعمل هذا الرجل هنا ؟

ــ وعيت وهو موجود ، لا اعرف متى جاء •

ثم أضاف كمن ينبيء بأمر خطير :

ــ ••• ابو حسان كره الناس بالبك ، وجهه ناشف ، ولا ينجو احد من شــره •

فقلت مدفوعا بحسي السياسي الذي استثارته ملاحظة رجا وانا اكرر تقريبا ما اعتاد عصام ان يقوله :

ــ تظن ان خليل بك رجل طيب وان العلة في وكيله وحده ، ولــذا

تستغرب قسوة الوكيل • لو أن الامر هكذا لما احتفظ به خليل بك هذه السنين كلها • العلة في الوضع وليس في الاشخاص •

وهنا توقف رجا وواجهني ممسكا ذراعي وقال مترجيا :

ــ كيف يطرده وهو يخدمه ! اسوق عليك النبي ، هونها ! تقول اشياء لا افهمها • نحن نعيش هنا كما ترانا ، الراضي راض والزعلان زعلان ، كل واحد له نصيبه •

— ٥ —

اذا كان « المكتوب يظهر من عنوانه » فاللقاء مع الوكيل اكد احساسي بان المتاعب ستأتيني من السرايا . ولاني كنت غير قادر على الاستغناء عن نشدان معونة السرايا ، فما العمل ، كنت في هذه البيئة الجديدة اعمى رمي في مكان يجهله وترك ليتلمس طريقه وحده ، وكان حولي جرذان فزعة أو افاع سامة تمرست على عادة افراغ سمها في جسد من يجرؤ على ان يحمل جديدا لهذه المنطقة الراكدة . ما كنت قليل الخبرة لاجهل مكمن الخطر او امضي بلا هداية وليكن ما يكون ، وكنت اعرف ان علي أن اتبصر ما حوالي ، ما دمت بغير اسلحة ، حتى احل مشاكلي .

اين اسكن ؟ كانت هذه اكثر المشاكل الحاحا . والحقيقة اني لم أدرك انها مشكلة الا حين بدأت ابحث عن سكن . كنت قد حملت معي راتبي للشهر الاخير ، حارما الاسرة من نصيبها منه ، وذلك لان الوالد الح علي كي احتاط للطوارىء . وظننت أن كل ما احتاجه هو ان استأجر بيتا او حجرة . فاتحت رجا في الامر ، فعلت هذا ببساطة ،

ولدهشتي البالغة ، ارتسمت على وجهه تعابير من يسمع لقول منكر ، جحظت عيناه ، واتسعت فتحتا الانف ، ووجه لي نظرة تحمل عتبا شديدا :

ــ هل ضايقك شيء عندنا ؟ ! داري مفتوحة لك ، الصدر للضيف ولنا العتبة .

لم افهم سبب دهشته ، ولم اعرف كيف استمر في مناقشة الموضوع :

ــ الحكاية وما فيها أني احب السكن وحدي .

ــ وجودك معنا شرف لنا ، ومادمت لا ترغب في الذهاب الى السرايا فالدار دارك . امي ، هي الاخرى تقول هذا .

ومع حرصي على مداراة مشاعره ، فان اشارته لموضوع الاقامة في السرايا ساءتني ، فقلت حازما :

ــ أستأجر مسكنا ، هذا ما اريده .

ــ من الذي يؤجر داره في بلدنا ، الدور تستقبل الضيوف ايا كانوا ، فكيف وأنت الاستاذ الغريب ، وأنا عندي هذه الدار الواسعة !

ــ انا مستعد لدفع الاجرة مهما غلت .

ــ التأجير عندنا عيب ، لا أحد يؤجر داره والا تعرض للمهانة ... داري دارك فانس حكاية الايجار ، ارجوك !

فقلت ، وكنت بدأت افهم سبب دهشته :

ـ دارك لك وللاسرة • افهمني ، انا لا اقول انك متضايق مني ، لكني لا احب ان افرض نفسي على أحد •

وعلى هذا النحو امتد الجدل عقيما بيني وبينه • الامر بالنسبة لـه واضح ، رجل الحكومة يذهب للسرايا ، يأكل ويشرب من خيرها الكثير • وما دمت ، لسبب لا يدركه ، اتجنب هذا ، فلا بد أن تستضيفني احدى الدور ، وداره هي الاولى • اما أنا فاحاوره كمن يحاور نفسه ، متلمسا مخرجا من هذا الفخ • وفي سياق هذا الحوار كرر رجا السؤال الذي شغل بال ابا جمعة قبله :

ـ اي شيء بينك وبين البك ، بلا مؤاخذة ؟

كان من الصعب اخراجه مما ألف ، فتجاهلت سؤاله ، وواجهته بسؤال مني :

ـ اين يسكن رجال الدرك ؟

ـ اهذا سؤال ، اين ، يعني ؟ طبعا في السرايا ، نوم وأكل وشرب وانبساط ؟ !

اكثر من هذا ، مبنى المخفر بناه البك قريبا من السرايا ، حتى لكأنه جزء منها • والعسكر ، عندما جاؤا منذ صارت المنطقة حدودية تجاورها اسرائيل ، اقام لهم البك مبنى يعيش فيه قائد السرية وينام فيه الضباط • والمراقبون الدوليون ، الذين يشرفون على الهدنة ، يقيمون في دار بناها البك •

ـ ••• مبنى قيادة السرية هناك ، تستطيع ان تراه •

قال هذا ، واشار الى مبنى يعلو قبة صغيرة تواجهنا •

اما ضباط الصف فيقيمون في السرايا ايضا • والجنود ينامون في الكمائن في الليل ، ويسضون النهارات هنا وهناك •

واحد من ضباط الصف افلت من الحلقة ، جاء رجا على ذكره عرضا •

ـ كان مثلك ، اراد ان يسكن وحده ، فلم يجد من يؤجره • وظل ينام مع الجنود في باحة مبنى السرية ، حتى لاحت له فرصة •

وما كان اشد لهفتي وانا أسأله :

ـ كيف ؟

وجاءت في الرد جمجمة ، كان شيء ما ، لا يفصح عنه رجا ، يقبض حلقه ، وحين ارغمته على الافصاح ، لم يخف كرهه للرقيب جدعان :

ـ حاشاك ان تفعل مثله • ما من أحد في الديرة يحبه •

ـ ما الذي فعله ؟

ـ رجل ، بعيدا عنك ، مكلح ، لا يقدر عليه أحد •

استثار الامر فضولي ، خصوصا رغبته الفريدة في ان يستقل ، بينما تشد حبال السرايا الوافدين جميعا ، وتملك رقاب السكان ، والاشياء • وكان من العبث ان اشرح هذا لرجا ، ولـذا اكتفيت بأن اعلنت عن رغبتي في الالتقاء بالرقيب المتوحد ، وطلبت من رجا ان

يأخذني اليه في الحال • وكان واضحا لي اني احمل مرافقي على ما يكره ، وهو ، على كل حال لم يخف اعتراضه ، بل ان تشبثه برايه كان على درجة من الشدة فاقت توقعي • كنا نتجادل ونحن ماضيان على الدرب ، وقادنا سيرنا الى دكان ابي جمعة • وهنا قام رجا بمحاولته الاخيرة ليثنيني عن الذهاب للرقيب ، نادى نسيبه ليستعين به • واذا لم يكن ابو جمعة على معرفة بما اختلفنا انا ورجا عليه ، فقد ابتدرني :

ـ ان شاء الله ، صابت معك في السرايا ؟

ما اسرع ما تنتقل الاخبار في هذا المكان •

ـ اسأل رجا ، يقل لك •

فغام وجه ابي جمعة وقد استقى من تعبيري الحانق مضمون الاجابة • ومع ذلك كرر السؤال متوجها به الى رجا ، الا ان هذا كان مشغول البال بالهم الآخر • حتى انه لم ينتبه لسؤال نسيبه ، بل داهمه بشناعتي المستجدة :

ـ الاستاذ رايح لعند الرقيب جدعان •

فاجأ النبأ ابا جمعة ، دون شك ، لكن يبدو انه وطد نفسه على توقع ما ليس مألوفا في سلوكي ، ولذا ، بقي متماسكا امام المفاجأة الجديدة ، واكتفى بأن سألني وهو يضيق عينيه :

ـ انت تعرف الرقيب جدعان ؟

بلبله تفيي ، واوقعه في الحيرة ، فلم يهتد الى ما يقوله ، فعاد الى سؤاله الاول :

ــ ما الذي قالوه لك في السرايا ؟

هذا الانصراف عن حكاية جدعان اغاظ رجا ، فنفث بخاره المحبوس:

ــ البك في الصيد ، احك له عن الرقيب !

ــ الله يستر على خلقه .

بهذه الايماءة ، اصدر ابو جمعة حكمه على الرجل الذي لا اعرفه ، وحاذر ، في الوقت نفسه ، الخوض في سيرته . والح رجا وهو يحث نسيبه على التدخل ، الا ان صاحب الدكان تمترس وراء تعففه ، مكتفيا بترديد اشارته الغامضة . فقلت مغيظا ، وفي نيتي ان اوقف هـذه الحركات :

ــ ما الحكاية ؟ انت لست ذاهبا الى اسرائيل !

فطاطا رجا رأسه ، وقال ابو جمعة ، ملاينا :

ــ لا تزعل ، ستعرف بنفسك .

— ٦ —

كان الرقيب يجلس عند باب احدى الحجرتين اللتين تضسهما الدار ، وهو يقرأ في كتاب • وكان صوت بابور كاز يملأ الحجرة ويصل اليه ونحن ، بعد ، في الباحة • ولذا لم ينتبه جدعان لقدومنا ، الى ان تنحنح رجا بصوت مرتفع ، وكرر ذلك ثم هتف : « دستور ! » نحى الرقيب الكتاب ، فوقع نظره على رجا ، فعبس عبسة تشي بالاستخفاف ، وتهيأ لان يقول شيئا لكنه ابصرني ، فقام غير مفاجأ ، ورحب بي ، وهيأ مجلسا في الحجرة المجاورة ، ودعاني للجلوس ، دون أن يدعو رجا ، فظل هذا واقفا وعليه علائم حيرة وارتباك واضحة ، كان من الجلي ان الرقيب يريده ان ينصرف ، فلما لم يفعل من تلقاء نفسه ، رماه بنظرة باردة ، وقال بنبرة أبرد : « ارني عرض اكتافك ، من غير مطرود » • وصمت جدعان حتى ابتعد رجا ، ثم اقبل علي باشا :

ـــ لا تزعل ، هذا الكلب لا أئتمنه •

فكأنه لم يأت بما يثير الزعل !

كان مضيفي ، وهو رجل يقترب من الاربعين ، متماسك البنية ،

آميل الى القصر . تشي تقاطيع وجهه بأصله البدوي مع أن الوجه يطفح بالعافية ، وله شارب ، على غير الزي البدوي ، قصير الشعر يشغل ما يشبه المربع بين حافة الشفة والانف • وكان سمار بشرته رائقا لا تشوبه شائبة • اما شخصيته فكان واضحا ، من اول لحظة ، كم هي متينـة وهجومية ، شأن من عركتهم الحياة فلم تهدّهم •

ـ أنت وصلت البارحة ، عرفت هذا من الناس • يقولون انك مدني تتغرب لاول مرة ، وانت مصمم على فتح المدرسـة ، هذا زيـن ، سنفتحها !

كان يتحدث ببساطة من يؤكد اتفاقا بين شريكين تباحثا بشأنه مـن قبل • واعطى تعهده ثم نهض ومضى الى الحجرة الاخرى ، تاركا في نفسي انطباعا آسرا ؛ لقد ملكني بسحر شخصيته منذ تلك اللحظـة بالذات • وحين عاد كنت الغريق الذي وجد خشبة النجاة وهو يتشبث بهـا :

ـ فتح المدرسة ليس صعبا ، اليس كذلك ؟

ـ لا تهتم !

وكأنما اعتبر من جانبه ان الامر مبتوت فيه ، فانتقل لموضوع آخر ، وكان ، لدهشتي اللذيذة ، هو ذاته الذي يشغلني :

ـ ••• اين ستسكن ؟ هنا لا يؤجرون دورهم •تعرف ،هم فلاحون يحرثون ويزرعون لكنهم ، مثل البدو ، عشائر وحمائل •••

قلت مقاطعـــا :

ــ انت بدوي ؟

فبرقت في عينيه لمعة خاطفة ، ما كنت سالحظها لو لم اكن اتأمله ، لحظتها ، بامعان •

ــ عرفت من لهجتـــي •

واضـــاف :

ــ ••• ماقدرت أن أغيرها •

ثم ابتسم ابتسامة من نحى للتو خاطرة مزعجة ، واستراحت قسمات وجهه ، واستعاد طلاقته :

ــ ••• لم ار البادية منذ سنين •

ومن جديد غام وجهه للحظات لم تطل ، ثم انطلق ثانية :

ــ ••• اذا كان في نيتك ان تسكن عند البك فعلى المدرســة الســـلام !

ــ اين يمكن ان اسكن اذا ؟

كان عنده الجواب والحل ، اسكن معه ، والدار واسعة •

ــ انا لست صاحبها ، وصاحبها غير موجود ، رحلوه ، قالوا انــه جاسوس ورحلوه ، فكان هذا لصالحي • ماذا يهمني ان كان جاسوسا او غيره ، امسكوه يعبر النهر الى المنطقة الاسرائيلية ومعه سلة بيض ، وشهد كثيرون انه فعلها قبل مرات عديدة • وقالوا ان بين البيض ما كان

يحمل اشارات وعلامات ... وهكذا صارت لجدعان دار ، وانا لا آكل في السرية ، آخذ بدل الطعام نقودا واطبخ بنفسي .

ما كان أفتن بساطته في تناول الامور !

ــ ... اذا سكنت عند البك سيغرقونك ...

ــ اعرف هــذا .

ــ لن تفعلها ؟ هــه ؟

فأجبته باشارة من رأسي قاطعة الدلالة ، ولم يطلب هو مزيدا ، بل انشرح انشراحا حقيقيا كأن نجاتي من فخاج السرايا تخصه شخصيا .

ــ لن تندم على سكنك معي ، والآن ستتغدى ، ستذوق طبيخ اخيك جدعان وتحكم بنفسك .

قال هذا ونهض قافزا الى الحجرة الاخرى ، وحين جاءني صوت انفلات الهواء من محبسه في بابور الكاز ، وتلاشى ضجة البابور نفسه، كان بخاري المحبوس ينفلت هو الآخر ، وكانت نفسي تهدأ .

ولن أمل من تكرار القول ان شخصية جدعان اسرتني ، كان فيــه الكثير مما هو بسيط ومستقيم ، وفيه ايضا شيء غامض لــم اتبينه ، ولا اتسكن من التعبير عنه ، جذبني ، بدوره ، الى هذا الرجل .

رجع جدعان وبين يديه قصعة يجللها البخار وتفوح منها رائحــة السمك المطبوخ بالبصل والطحينة :

ـ حكوا لك عني اشياء شينة ...

ـ في الحقيقة ، نعم ، وانا استغرب .

فرمى شتيمة مجلجلة ، دون أن يفارقه انشراحه :

ـ أنا ، أنا ، بخيري وشري ، ولا اهتم لما يقولون . كل وتستع !

كان شيء ما في نبرة صوته يلجم فضولي ، ومع ذلك ظل الفضول يغلبنـــي :

ـ لاحظت ، كيف اقول ، أنهم لا يحبونك .

ـ من الذي يهتم بهم ! ؟ لا ظلوا بدوا ولا صاروا فلاحين ، هؤلاء الـ ... وكرر الشتيمة ، ثم اكمل :

ـ .. البك يركبهم فيعطونه اقفيتهم وهم مسرورون ، يفلحون ارضه وهم مستخذون . واذا ركب زلم البك نساءهم اغمضوا عيونهم ، فان فعلها واحد من غير زلم البك انتخوا كأنهم اعز الاشراف . هؤلاء لا يستأهلون المعاملة الطيبة ، صدقني ! يبيع الواحد منهم امرأته لارضاء خادم في السرايا ، اما اذا ضحكت انت في وجهها فيصير سبعا وهـــو اجبن من خاروف .

وشئت ان اوقف هذا المجرى الذي يصدمني :

ـ منذ متى تعيش بينهم ؟

ـ جئت في العام الذي فات . هذه البطيحة الملعونة اعرفها شبرا

شبرا ، قراها ورجالها ونساءها ، وهم يعرفونني • اقول لك الصدق : لن تندم معي ، واقول لك اكثر : ستعلمني •

قبل سنوات ، انفك جدعان عن عشيرته في بادية الشام لسبب لم يفصح عنه ، ثم لم يعد اليها قط • آنذاك ، كان فتى في الثامنة عشرة يفور بالحيوية ، واجه الدنيا غير مسلح الا بالعزيمة ، تشرد فترة في حمص ، ثم وجد طريق الجيش ، وكان الفرنسيون في البلاد ، فتطـوع كجندي محترف ، وفي الجيش تعلم القراءة والكتابة ووجد دائما مـن يحبه ويساعده •وبعد الاستقلال تابع تعلمه ، وساعده ضابط تعرف عليه في حرب فلسطين حتى ظفر بشهادة الدراسة الابتدائية • وبمعونة الضباط اختاروه لمدرسة الرتباء فتخرج منها رقيبا • واستحوذت عليه الرغبة في التعليم لكنهم نقلوه الى الجبهة لان ضابطه سرح وسجن • ورمي جدعان في هذه البقعة وانقطع عن الدراسة الى ان وجد السكن المستقل فبدأ يستعد لامتحان الشهادة المتوسطة ، ولو ظفر بهذه الشهادة فسينفتح المجال امامه لدخول الكلية الحربية لو تجاوزوا مسألة عمره ، فيصير ضابطا ، انه يدرس هنا وحده حيث لا يوجد من يعينه ، واشغاله كثيرة لانه المسؤول عن تدريب الفلاحين الذين ينظمونهم في الحرس الشعبي •

كنت ، وقد استعدت شهيتي ، اشاركه وجبته بشعور من التقى للتو

صديقا بعد فراق سنين • وانساب حديثنا بيسر ، ننتقل من موضوع لموضوع كأننا في نزهـــة •

سألته في ثنايا الحديث :

ــ لماذا لا تحب رجــا ؟

ــ اقول لك ، هذا الكلب « حلس ملس » ، يسايرك ، يحزر من انت يسايرك • واقول لك ، عرفت انه مخبر ، شغله النقيب عطيه حتى يتجسس على خلق الله • أنا اعرفه ودائما اطرده • انه شخص « مريب »، كما يقولون بالنحوي •

فسألته ، متوقفا عند صلة رجا بالنقيب ، وقد تحرك حذري تجـــاه المخبرين :

ــ هـــل اذاك ؟

ــ فشر ! النقيب عطية بحاله لا يقدر على ايذائي •

ثم ، وقد فطن فجأة لمغزى سؤالي ، اضاف :

ــ ••• لا تؤمن له • اما عند جدعان فليس له فت خبز ، أخوك كاسر عيون الكل ، انا لا اخاف منه لكني لا احب المخبرين • وهـــذا الولد بالذات لا احبه ، يقبض خمس ليرات على الاخبارية ، وفي المدرسة شغلوه سقاء وهو لا يعمل شيئا •وفي الموسم ، يشتغل وزانا عنـــد حسين الفار سمسار الخضار ، يغش الفلاحين في الوزن فيدفع لـــه

السمسار الكلب ، كيس الفاصوليا ابو الثلاثين كيلو يصير عشرين ، سترى بنفسك عندما يجيء الموسم وتعرف ان جدعان لا يكره الناس لوجه الله ، حرامية ونصابون ، و ... هؤلاء هم !

ـ ليست له خطورة على كل حال ، مثله كثيرون ... قبل أيام تلبسني واحد في درعا ، لكنه كان طيبا .

ـ حين تجد واحدا منهم يغيظك ، أقول لك شيئا حتى اضحكك : كيف اكتشفت انه غشاش ، كنت امر في ساحة السوق واتفرج على القبان من باب « الفضول » ، كما تقولون بالنحوي . ولاحظت ما يفعله رجا ، فضربته ، اي والله امام الجميع . شكاني حسين الفار للنقيب عطية وجاء النقيب ، جاء لعند قائد السرية وبهدلني ، فقلت له ان رجا حرامي فهل انت حامي الحرامية ؟ فثار في وجهي لكن نقيبنا تدخل . نقيبنا رجل طيب ، ستعرفه ، قال للنقيب عطية : جدعان لا يسكت على الفسق ، فقال النقيب عطية : لكن هذه ليست شغلته ، هو عسكري فماله وللغشاشين ! وغمزني قائد السرية ففهمت عليه ، وقلت : معك حق . وهكذا ذهب ، لم يأخذ مني حقا او باطلا . وفي الليل ترصدت لرجا في مكان خال وضربته ، ضربته ضربا « مبرحا » ، كما تقول بالنحوي ، ثم انذرته : اذا شكوتني مرة اخرى او جئت على سيرتي سأقتلك ، غش الفلاحين فأنا لا اريد ان اقيم الدين في مالطة ، لكن لا تتحرش بجدعان . ومن يومها وهو يتحاشاني ، واذا ابصرني يصير مثل الصرصور .

ومع الشاي ، الذي جاء بعــد الوجبة ، طاب الحديث لجدعان ، منتقلا ، كعادته ، من موضوع لآخر بتغير مقدمات ، وحاشيا « نحوياته » في سياق العبارات • ومن حكاية رجا ، انتقل ليروي حكاية قائد السرية سعيدا لانه يبهرني بجديد :

ـ النقيب عوني كان قبل سنوات ، وكيل ضابط ، وكان في خدمة عقيد له وزن فسعى له حتى صار ملازما • وفي أحد الاصباح ، أخــذ العقيد عسكره وعمل انقلابا وصار زعيما يحكم ويرسم ، فرفع صاحبنا الى ملازم أول وجعله قائدا لحرسه ، يروح ويجيء معه من الدار الى القصر ومن القصر الى الدار ••• جاء غيره ليعملوا عليه انقلابا ، اتفقوا مع النقيب عوني ، وعدوه بأن يجعلوا منه حاجة كبيرة «فارتخى ضميره» وباعهم الزعيم • دخلوا على الزعيم وقتلوه بين حريمه وأخذوه ودفنوه قبل الفجر • وفي الصباح « بلاغ رقم واحد » جاء حكام جدد • ولم ينسوا قائد الحرس ، رفعوه نقيبا وهذا كل شيء لانهم نسوه بعدها • ثم جاء غيرهم « بلاغ رقم واحد » جديد ، فأرسلوه الى البطيحة • لكن نفسه ظلت مكسورة رغم النجمات الثلاث التي نالها في سنوات قليلة ، يأكله الندم لانه فرط بمعلمه • والآن تراه يعيش ، يأكل ويشرب بينما يشرب الغم عافيته ، عمره خمسة وأربعون سنة ، تراه فتظنه ابن ستين • يشرب الخمرة كل ليلة ويحتاج لمن يؤانسه ، فاذا دارت به يبكي لانه يتذكر فعلته • أول ما جئت ، تعال يا جدعان ، أقعد يا جدعان ، اشرب

يا جدعان ، اسمع يا جدعان ! اهيء ••• اهيء ••• يوما ، أياما ، مللت• بعدها قلت له : « يا سيدي ، شف لك ابن آدم غــيري فأنا لا أنفع للشرب » ، زعل ، قلت في نفسي : يزعل ! وتركته ، « نجوت بنفسي » ، وصرت أبيت في الكمائن على النهر ، يسأل عني فلا يجدني ، ومن حسن حظي ان الكمائن ليس فيهــا تليفونات ، ويسألني في اليوم التــالي « فأتذرع » بأني أقوم بالواجب المقدس • هكذا أقول له بالنحوي فيسكت • وعرفت ان هذه الكلمة مثل الحجاب ، تحميني من البهدلة ، حتى وجد غيري وحل عني ، وبقينا أصحابا •

قلت لجدعان ، مبديا اعجابا صادقا :

ــ يعني ، قادر على تدبير أمورك !

فضحك ، وصب الشاي في كأسي ، بحركة تجعل لصبيبه رنة مرحة ، وهو يقول :

ــ أنا أعجبك ، عندنا يقولون : عسكرية ، دبر راسك ! وأنا ••• كيف تقول بالنحوي ، « اتبع القاعدة » •

ثم ، متنبها لشيء فاته أن يسأل عنه ، ضيق عينيه :

ــ ••• نسيت ان اسألك ، ربما تحب ان تشرب العرق ؟

ــ ليس دائما ، انا قليل الشرب •

ــ أحسن ! لا احب الشرب ، خير لي ان أظل صاحيا !

ـ تحب الشاي ؟

فبش وملأ كأسه بالحركة المرفانة ، وانتقل لموضع جديد :

ـ ما دمت لن تحط راسك تحت رجل هذا الكلب الذي في السرايا، اطمئن ، سنفتح المدرسة •

ثم سألني فجأة :

ـ لماذا نقلوك الى جهنم هذه ؟

فأجبت ، مدفوعا بتأثير الرغبة في أن أصدقه القول :

ـ أسباب كثيرة ، جاء آخرها حين طلبوا من الموظفين أن يقسموا يمين الولاء للشيشكلي فلم أقبل • فعاقبوني كما ترى • كان من الممكن أن يطردوني ، لكن الذين رفضوا كثيرون ، فلم يقدروا على طرد الجميع •

فرنت في الحجرة ضحكة صافية ، وخبط جدعان على فخذي ، معبرا عن روح المرح التي تملكته ، وقال وهو ما يزال يضحك :

ـ نحن ، الآخرين ، حلفونا ، أقول لك كيف : النقيب عوني جمع السرية ، حلف اليمين ورددت السرية وراءه • أي شيء يعني هذا !؟ الرئيس رئيس ، الشيشكلي أو غيره ، كلهم مثل بعضهم ، أنا في السياسة، يا دار ما دخلك شر !

ثم قال ، وقد تأجج مرحه اذ تذكر شيئا يعده طريفا :

ـ كان يقف بجانبي في الصف رقيب مجند ، الله يذكره بالخير ، لا أعرف أين هو الآن ، عمل بعدها شغلة فأخـذه النقيب عطيـة الى الحبس ، قالوا عنه لست أعرف من أي حزب ، يعني ليس مع الشيشكلي، مالنا ، كان يكره الشيشكلي . ويوم حلفان اليمين ، كان العسكر يرددون الكلام وراء قائد السرية ، أما هو فكان يشتم الشيشكلي ، يومها ، عليم الله ، لولا خوفي من الملامة لفطست من الضحك .

ولست أدري لماذا عنّ لي لحظتهـا بالذات ان أسأل جدعان عن السبب الذي أبعـده عن عشيرته . طرحت السؤال فكأني دلقت ماء باردا ، واذا باشراقة الوجه تغيض لتسري فيه غمامة اكتئاب وأسى . ولكنه ما لبث ان احتبس اضطرابه فتجمد في عينيه لا يفيض منهما . وصمت جدعان ، معلنا رغبة سافرة في تجنب الخوض في هذا الموضوع . أي خطأ ارتكبته؟كنت أتأمله ، آسفا لشيء لاأدرك كنهه ، باحثا عما يعيد البشاشة الى مجلسنا . ورأيته ينهض ، ولعله شاء ان يتحرك ليداري أحاسيس تمضه ، حمل الكأسين الفارغين والابريق ، ثم استدرك :

ـ تريد أكثر ؟

ـ لا ، فقد رويتني .

وقرفص ، موليا أياي ظهره ، بجانب برميل صغير قرب باب الحجرة ، وانصرف لغسيل الكأسين والابريق ، ثم حمل اناء الطعام وشرع يغسله .

وظل دست محرج يفصل بيننا وانا لا اهتدي الى جسر الوصل ، حتى وجده جدعان أخيرا :

ـ لماذا لا تحب الشيشكلي ؟

كان السؤال وقع باهت ، لانه طرحه ، فيما بدا لي ، برغبة الدخول في موضوع جديد يصرفه عن الذي استثاره ليس الا • وشئت ان أتظرف لعلي استعيد التواصل :

ـ نصيب !

لكني لم أصب الهدف ، بل ، على العكس ، بدا ان اجابتي احنقته ، فلفت رأسه نحوي ، وعقب بحدة لم أتوقعها :

ـ أنت لا تريد أن تقول الصدق •

كنت ازاء رجل مفرط الذكاء ، وان كان محدود المعارف • ورجل كهذا لا يمكن خداعه أو التحدث معه بأسلوب مداور ، فلماذا لا أسترضيه بالقول الصريح :

ـ اسمع يا جدعان ، معك حق ، لا أحب الشيشكلي ، أنا ضده لأسباب سياسية ، تقول انك لا تحب السياسة ، وانا ليس لي الآن مزاج للخوض فيها • أعدك أن نتحدث عن كل شيء بالتفصيل فيما بعد •

وفيما بعد وفيت بوعدي وفاء كاملا ، اما يومها ، فاكتفيت بما قلت ، وتأثر جدعان بصدق نبرتي ، فما أسرع ما اعتدل مزاجه العكر واستعاد رغبته في ابهاري بحكاياه الطريفة . فعاد يجلس قبالتي :

ـ اسمع !

نطقها بصيغة من سيستأنف حكاية بدأها من قبل :

ـ ••• خليل بك صاحب للشيشكلي • تعرف ، انه يدعوه « بين وقت وآخر » ، يجعلون الامر سرا ، يحضرون نساء ويملأون فيلا ّ السرايا • يستنفروننا للحراسة ، ويقولون لقائد السرية ألا يخبرنا من هو الضيف • يسكر الزعيم حتى الصباح ثم ينام الى الظهر • اما ماذا يفعلون بالنساء فما من أحد شاف هذا بعينه ، يجيئون في سيارات مغطاة بالستائر ويرحلون فيها • ولا ترى البك مسرورا كما تراه في تلك الزيارات • مرة جاءوا فأرسلني قائد السرية مع مجموعة من العسكر لحراسة السرايا ، وبقيت مزروعا هناك من الظهر حتى ظهر اليوم الثاني ، الى أن خرج الزعيم • وقد لمحني وهو يتجه الى سيارته ، فاستدعاني • كان « منشرح المزاج » وأراد أن يمتحنني وهـو يغمز البك بعينه ، فسألني : عرفتني ؟ أقول لك الصدق ، أحببت أن أقول : نعم ، لكن النقيب عوني كان واقفا وهو الذي باح لي بالسر ونبه علي بألا أخبر أحدا ، ولذا أجبت من ارتباكي : سيدي الزعيم ، لم أعرفك ! فانبسط وضحك ، فضحك البك والآخرون ، بينما اضطرب النقيب ، صار لونه مثل الليمون • ومدّ الشيشكلي يده الى جيبه فأخرج ورقة المئة ليرة وناولني اياها وقال : خذ هذه واسكر بها ، أنت جدع ! وأعطاني البك ورقة مثلها وهو يقول : هذه لاولادك ! تعرف ، ليس عندي أولاد لكن ،

طز فيه . شعرة من ذقن خنزير مكسب • وكرر الزعيم : أنت جدع • وكنت فرحا بالمئتين . وفكرت بحرج النقيب عوني فاستهبلت وقلت : أنا الرقيب جدعان يا سيدي • يومها دخل السيارة وهو ما يزال يضحك• أقول لك الصـــدق . كان خفيفـــا ، لم يمــلأ عيني • ولم يعجبني ، « جعبة فارغة » !

وحين فرغ جدعان من نكاته ، كان قد تسدد ، ثم سألني :

ــ تنام بعد الظهر ؟ أنا أنام لاني أسهر •

فقلت وقد تذكرت حقيبتي :

ــ نم أنت . وسأذهب لأحضر الحقيبة •

فدبت فيه دفقة نشاط :

ــ أهي في دار رجا ؟

ولم ينتظر اجابتي :

ــ ••• لا تجعل هذا الكلب يحضرها . اطلب من أمه أن تجيء بها •

قلت :

ــ أحملها أنا •

فاعتدل ، مندهشا ، وقال بنبرة ناصحة :

ــ لماذا تحملها انت . هذه شغلتهم ، عليهم ان يخدموك • هل رأيت أمه ؟ . أعجبتك ؟

ـ امرأة مقتدرة •

كان مشوقا للحديث عن أم رجا ، وهذا ما اندفع فيه برغم نعاسه :

ـ تقول : مقتدرة ؟ هي امرأة ، مقتدرة أو غير مقتدرة ، أية أهمية لهذا ! امرأة ، هذا هو المطلوب • أقول لك الصدق : صارت فوق الثلاثين وهي شهية ، لا تتهيب ، جربها !

ولا بد أنه استخلص من تعابير وجهي ما استوقفه ، وعلق بصيغة من يحاور :

ـ ••• كلهن مومسات ، صدقني • خلق الله النساء ليرفعن أرجلهن ، ولا واحدة منهن ترفض الا اذا كانت خائفة ، اذا تمنعت أم رجا هاتها لي فأريك كيف أجعلها ترفع رجليها أمامك هنا •

بالطبع ، ساءني قوله ، وفهم هو رد فعلي على طريقته فقال وهو يتمدد ثانية :

ـ ••• أنت حرّ • اذا كنت لا تصدقني الآن فستعرف هذا بنفسك • المرأة لها رجلان ترفعهما ان لم يكن برضاها فغصبا عنها • الصدق ، أم رجا مقتدرة ، معك حق ، لكن عليك أن تدبرها ، معي هي تتعزز ، أما معك ؟ أين حيل أولاد المدن ؟ حملها الحقيبة وهاتها . وبعدها تتدبر •

فقلت ، قاطعا ثرثرته :

ـ نم أنت ، وسأعود اليك !

– ٧ –

طالعتني عائشة بقامتها الناحلة ووجهها المكسو بالحياء والتردد • لا رجا ولا امه كانا في الدار • وعائشة ، حين عرفت عزمي على تركهم ، اربكتها الحيرة ، وجمجمت بكلمات فهمت منها ان رجا سيحنق لو اعطتني الحقيبة في غيابه • لكنها ، امام اصراري ، احضرتها وهي تحملها على راسها معتزمة ان تنقلها الى حيث اريد • ولم يجد اعتراضي ، بل انها ذعرت عندما ادركت اني انوي حمل الحقيبة بنفسي ، تلبسها عناد لم تنفع معه كل محاولاتي لثنيها عن القيام بما تعده واجبا لا مجال للمناقشة فيه • وكان الحل الوحيد ان اترك الحقيبة ، وهذا ما فعلته آخر الامـــر •

ولم اشأ ان أرجع لجدعان كي لا آزعجه وهو نائم • وهكذا ، عن لي ان اقوم بجولة أشغل بها نفسي الى أن يعود رجا فأتفاهم معـــه • وانحدرت مع الدرب الذي يمر امام داره ، سرت متئدا اتأمل ما حولي بغير ما هدف محدد • ثم لم البث أن لاحظت أن هذا الدرب يقـــود الى النهر ، فصار لي الهدف الذي امضي نحوه ، وتسارعت خطاي •

وجدتني اعبر بيوتا متفرقة تشكل طرف القرية من هذه الناحية . ليفضي بي سيري بعد قليل الى خلاء فسيح يستد مئات الامتار بين القرية والنهر . تتعرج الارض ، ومثلها يتعرج الدرب وهو يخترق حقولا صغيرة متلاصقة استخلصتها ايدي الناس عبر مئات السنين من الوعر ، فنقتها من الحجارة وجعلت من هذه اسيجة تقسم الارزاق حصصا تكبر او تصغر وفق مقامات من يفلحونها ودرجات رضى المالك عنهم . وقد انبثقت من تربة الحقول السمراء طلائع النبتات فبقعتها ببقع خضراء متصلة ومتفرقة احيانا اخرى . انها مزية الغور ، ففي دفئه وحده تستنبت الخضار في هذا الوقت من السنة . وأجمل ما صادفته الاجمات الصغيرة المتفرقة التي تكتنف الينانيع ، ومسيلات الماء الرائق ، تطلقه العيون ثم تهديه الى التربة ، واشجار الكينا ، بتميزها بقاماتها المرتفعة واغصانها الوارفة ولمعان اوراقها تحت اشعة شمس تجهد كي لا يظهر كلالها ، واشجار الحور الرشيقة الناحلة ، التي تعرت من الاوراق ، وبدت مشوقة للاكتساء من جديد . والسروات المجللة بالمهابة ، باوراقها الابرية وخضرتها الداكنة وتكتمها واحتشامها . طبيعة سخية تلك التي احاطت بي ، دافعة الى ذهني ، برغمي ، حقيقة التناقض بين هذا السخاء المفرط وقسوة المالك الذي يحرم اهل هذه الارض من التمتع بخيراتها . حتى انني حين مررت بحقل فيه شجرة وحيدة ، وكانت زيتونة فتية ، فسرت الامر على هواي ، فتصورت فلاحا اشتهى تشجير الحقل الذي آل اليه فاعوزته الامكانية فنصب هذه الزيتونة المتفردة

شهادة على خذلانه • وحين مررت بحقل آخر تجلله زيتونات عتيقة كامدة الخضرة والتقطت عيناي كم هي هامدة وكئيبة ، امتد خيالي في منحى التفسير ذاته فتصورت انها غرست قبل ان يضع الاقطاع يده على هذه البقعة ، وان الشجرات حين ادركت ما آل اليه مصيرها توشحت باالكآبة معلنة عصر الانتكاس ! وعلى حوافي صخور لم تنل منها يد الانسان ، قامت الجذوع الخاوية لشجرات تين تعرت من الاوراق فبدت قليلة الحيلة ، مثل عجائز جئن للاستحمام في البرية فسرق الشياطين ثيابهن ليسخروا منهن ، وتركوهن بانتظار جني خير يحمل اليهن الستر • كان في هذا كله شيء يذكرني بغوطة دمشق ، ليست هذه هي الغوطة ، غير ان هنا ما يحمل على المقارنة •

وغرقت في أفكاري ومقارناتي الى ان تنبهت حين وضعني الدرب ، وهو يوشك ان يلمس حافة المجرى ، بمواجهة سدرة وحيدة هائلة الحجم ، مهيبة وغامضة ، لها جذع ضخم كأنه صخرة انغرست عروقها الحجرية في الارض ، أما الهامة التي تجلل هذا الجذر ، بأغصانها وفروعها وأوراقها ، فقد تكورت مثل قبة ، وكأن يدا حاذقة وضعتها في ذلك الموضع لتصنع منها مستظلا يأوي اليه من يعنيه السير في هذه البرية • دنوت من السدرة ففاجأني وجود فتى يخفيه الظل ، كان جذع الفتى يلتصق بجذع السدرة ، ونظره مسترسل في المدى ، بينما يجلس ساهما ومسربلا بالصمت والتوحد حتى لكأنه اياهما • ولعل صوت المجرى المتدفق بحسية وجلبة هو الذي منع الفتى من التنبه لوقع خطاي ، الى

أن صرت بجانبه تماما . عندها ، هب واقفا ثم تجمد كما يفعل جندي في حضرة ضابط . وما كان أشد أسفي اذ اقتحمت عزلته ! حتى لقد كنت محرجا بأكثر مما كان هو . فاجتزته متعجلا . وسرت خطوات قليلة صاعدا حافة المجرى لأجدني فجأة امام مائه .

هذا هو ، اذا ، نهر الاردن ، وها انا لا احتاج الا لوثبة صغيرة لو أردت أن أستحم في مائه . ومن يدري ، فربما كنت سأثب على الفور لو أن قوة التيار كانت أقل مما هي عليه في هذا الفصل من السنة !

يا عشرات الحكايا ، ويا كتب التاريخ والجغرافيا ، ويا كل الامجاد والمآسي ، أيها المجرى من الصور والخواطر ، اني هنا ، امام النهر العظيم ، يملأ ضجيجه أذني ، وتتناوج الحكايات على صفحته ، وفي أنفي يمتزج شميم التاريخ برائحة التراب . تيار أزلي الدفق يشق هذا المجرى ، ويتجمع ماؤه من عشرات الينابيع الصغيرة والكبيرة التي تعطي للنهر مكنونات السفوح الجنوبية لسوريا ولبنان فينحدر بها ، مخلوطة بحتيت الارض ، حتى اذا أثقلت الاحمال خطوه يتوقف وقفة قصيرة للاستراحة في بحيرة الحولة فيتخلص مما يفيض عن طاقته ، مشكلا ، بفيضه ، المستنقعات التي تتحول قيعانها بعد الشتاء الى منابت للرزق ، ثم يستأنف انحداره الشديد نحو بحيرة طبريا ، محطة استراحته الثانية ، الكبيرة . يفعل هذا بهمة المؤتمن الكتوم الذي ينقل رسالة هامة . وبحيرة طبريا التي تتلقى رسالته بامتنان ، ترد له الجميل على

طريقتها ، تفرد له مستراحا فسيحا بين التلال والأجمات ، وتحتضنه في ساعة استراحته فتخففه من أحماله وتمتعه بمكنوناتهـا ، ثم تطلقـه لحريته • ويمضي الرسول الامين في رحلته الطويلة عبر غور الاردن المديد ، مشوقا للحرية ، وموزعا الودائع ، الى ان يتعبه الجري المضني ، فيستسلم كليلا بين يدي البحر الميت الذي يبتلعه فارضا عليه ملوحته ومواته • وكما يحدث في صحوة الموت ، ينتفض النهر انتفاضته الاخيرة، فيصارع الموت محاولا أن يستخلص منه بعض مائه ، فاذا نجا منه وأفلت من ناحيـة البحر الاخرى ، تتلقفه الصحراء لتقبره في رمالها بغـير ضجيج ولا شهود •

ذلك هو النهر الذي يبدأ رحلته فتيا مزهوا في سفوح الجبال لتتبدد قواه في أعماق الغور ، النهر الذي ألقت الاحداث على عاتقه مهمة شاقة ، فصار يشكل الحدود ما بين الوطن الفلسطيني الذي يغتصبه الصهيونيون والوطن الذي ما يزال يعاند طمعهـم في اغتصابه ويتحايل حتـى لا يفرط فيه المهملون من أهله •

هل كان المشهد الذي أراه قليل الروعة ؟ لا شك في انه كان جميلا جمالا آخاذا ، غير اني ، حين وقفت أمامه وقفتي الاولى تلك ، داهمتني هموم سياسية أثارتها رؤيتي للنهر الشهير ، وما كنت قادرا على تنحيتها ؛ فعند الحافة الاخرى ، بعد عشرين أو ثلاثين مترا هي عرض النهر في هذا المنبسط ، تبـدأ أرض فلسطين ، الشريط السهلي الذي يحف بالنهر

والتلال التي تتماوج بعده . واذ أراها رأي العين بعد ان عشت أقرأ عنها وأسمع من بعيد ... أراها وأعرف اني لا أملك أن أطأها . كانت اسرائيل تقف امامي بما تمثله من غموض وقهر وتسلط ، تقف جدارا يحبس عن وطني الراحة والانسام ، كنت اقف ازاء هذا الجدار واتذكر الخطب التي تصوب نحوه ، خطبا صاخبة يطلقها متبجحون ومزايدون وأفاقون ومستسهلو زعامة ، فترتد الينا انقلابات وسجونا وجوعا واذلالا واعتداءات وطغيانا ، وكلما تكررت الخطب ، تفاقمت البلايا فكأنها ، أمراض استوطنت فصارت أوبئة تداهم الوطن بين فترة وأخرى .

وتذكرت حديثي مع جدعان ، من الحق يا جدعان أن الحياة وجبة شهية ، وكوب شاي مع جليس أنيس ، وامرأة مرغوبة وكتاب تقرأه فتزداد معرفة وتتقدم في الرتب ، ومن الحق أن بعض الناس يجد هذا ، ومنهم من يجد ما هو أكثر منه بسهولة ، ولكن كم عدد هؤلاء يا جدعان، وكم عدد من يفتقرون الى الغذاء والكساء والتعليم ويستبعدون المتع حتى من أحلامهم ؟ هل عرفت الآن يا جدعان لماذا لا أحب الشيشكلي وطغمته ؟ هل فهمت لماذا أخبيء بين جوانحي قبس النور الذي لاح لي ، أتدفأ به وأعطيه جهدي وقودا ولا أشح عليه بدمي ؟

وكما يجر الهم الهم ، تذكرت ابي ، بعد ان تلقى نبأ نقلي ، كيف

لاك اللقمات الباقية من وجبة غذائه كأنه يلوك آلام السنين الطويلة التي أكلت عافيته وهو ينتظر ان افرغ من تعليمي واتوظف واشيل عنه بعض عبئه ؛ ثم كيف انسحب عائدا الى فرنه وهو يتجلد ، فيستحيل كتلة من الأسى ؛ وكيف تبعته الى الفرن وقعدت بجانبه قرب بيت النار : كنا صامتين ، وظلت يداه تشيلان الطرحة ، تدخلان أرغفة وتخرجان أخرى ، ووجهه مسربل بصبره الابدي . واتصل بيننا ذلك الحوار الذي لا يحتاج الى تعابير ، وحين نطق قال : « الشغل في السياسة يجلب المتاعب ، أعرف هذا » ، ثم انحبس في صمته مرة أخرى ، وأدخل أرغفة وأخرج غيرها ، وعندما تكلم من جديد قال : « الله يجازي أولاد الحرام الدائرين وراء أولاد الناس » ، وبعد فترة صمت جديدة ، نظر الي نظرة أفصحت عما انتهت اليه حسبته قبل أن يتكلم : « اترك التدريس ، ما دمت بين المتعلمين ستظل السوسة في رأسك ، تعال اشتغل معنا في الفرن ، لن يكسر صاحبه خاطري لو طلبت منه تشغيلك ، وهو محتاج لبائع يحل محل عمك ابي ياسين الذي تلف ، وأين سيجد بائعا مثلك ، علم وأدب ! القرشان اللذان ستكسبهما هنا ابرك مما ستوفره بعد مرارك في الغربة ، تظل بيننا ، الدار واحدة ، والطبخة واحدة ، وما يصيبنا يصيبك » .

ولما أردت أن أهون عليه الامر فقلت « انا في وظيفة حكومية فكيف أفرط بها » ، تسلح بآرائه التي كونها بعد أن خابت آماله منذ توظفت « مال الحكومة لا بركة فيه ، يدفعه الناس وهم يلعنون الحكومة فكيف

تحل فيه البركة ! طول عمري أقول لك ، البركة في العمل ، ولا فائدة من المدارس ، وانت الذي أصرّ على التعلم ، فماذا فابك غير التعب » ، واذ كنت أتوقع أقواله هذه تعمدت ان أزوغ عن المناقشة وقلت وانا أتهيأ لمغادرته « انها غمة وستزول فلماذا أخسر وظيفتي » •

كان مجرى الذكريات يتدفق حين انتزعني منه صوت شبابة نافذ ، فأعادني الى وقفتي عند مجرى النهر المنطلق امامي • والتفت بفعل المفاجأة فرأيت فتى السدرة ، بجذعه الملتصق بجذعها ، وهو يشرع شبابته ويصب فيها ذوب نفسه ، ربما نسي الفتى وجودي ، أو لعله أرسل انغامه خصيصا من أجلي • وتأملت الفتى ، متوقعا أن ينتبه لي وينظر ناحيتي ، وصار توقعي توقا ، لكن نظره بقي منساحا في الافق •

ووجدتني أسير على حافة النهر ، ماضيا باتجاه التيار ، مدفوعا بقوة لا أتبينها كان صوت الشبابة يحملني على مهاد خفيفة • وكان النهر هو الآخر يسير بهدى النغم ويمتد في امتداده ، ويتعرج مع تبدل ايقاعاته • كنا ، أنا والنهر وصوت الشبابة ، معا في صحبة ، ندنو سوية من المصب ، وصار بامكاني ان اتبين الحجوم الضخمة لاشجار الكينا التي تكتنف جانبي هذا المصب ، الاجمتين اللتين لحظتهما قبل ايام وانا اشرف على المنطقة من أعلى الطريق ، وكانت الاشجار المتجمعة والمتشابكة على جانبي المصب بوابة حقيقية ، يعبرها النهر مجللا بالحنان ليستريح بين أحضان بحيرة طبريا •

وكما انطلق صوت الشبابة فجأة كذلك انقطع ، لاستعيد احساسي بالواقع وانا على بعد عشرات الامتار من المصب . ومن موقعي هذا ، شهدت هبوط الشمس الى مغربها خلف تلال مدينة طبريا التي تبدو معالمها على الجانب الآخر من البحيرة كخيال بعيد يحف به مهرجان كامل من الالوان ، ألوان أشعة الغروب وهي تتبدل كل لحظة ، والبحيرة ، وهي تستجيب هادئة لهذا التبدل ، وتتلقى ، مطمئنة ، وعود الشمس بالعودة في اليوم التالي ، وتتحاور معها بلغة الالوان هذه ، والتلال ، المكسوة ببقع الخضرة التي تتوزع السفوح ، وهي تقف خاشعة بين يدي هذا الجلال .

كنت في ذروة استغراقي في المشهد ، أتلقى تلويحة الوداع الاخيرة من أذرع الشمس الغاربة ، حين تنبهت على صوت رجا يناديني ؛ افتقدني فجاء يبحث عني ، وظل يجري متقصفا فوق طين الحقول المروية الى أن لمحني . ولما رأى التفاتتي نحوه تسهل ليلتقط أنفاسه المبهورة . كان ظهوره في تلك اللحظة ، وقد عرفت عنه ما عرفت ، بمثابة الصفعة التي أخرجتني من اغفاءة عميقــة . صار جسمه الممشوق ، الذي أثارت رشاقته انتباهي قبل ذلك ، مثل علامة تعجب ناحلة وضعت امام عبارة لا تثير الدهشة . أما وجهه ذو العينين الجاحظتين والانف الافطس فما أشد ما ذكرني بوجوه كلاب الحراسة التي شاهدتها عند بوابة السرايا !

ـ جريت لأحذرك ، أنت في مكان خطر ، فبعد الغروب تأتي الكمائن ، هنا من ناحيتنا وهناك من ناحيتهم ...

وأفاض في شرح دواعي الخطر الى أن اطمأن لحسن ادراكي فتذكر ما حمله للبحث عني :

ـ قالت لي عائشة ...

ـ جدعان دعاني للسكن معه .

ولم يكن في قولي ما يفاجئه ، فلم يعقب بشيء ، بل تحدث عن موضوع آخر :

ـ عشاؤك الليلة عندنا ، قمنا بالواجب ، ودعونا الناس .

ثم ، كمن توقع أن أعترض :

ـ ... تذهب عند حضرة الرقيب بعد العشاء ان أحببت .

و « حضرة » هذه عنت لي انه الزم نفسه منذ اللحظة بالاحترام الواجب للرقيب الذي استضافني ، وانه سيكف عن لوك سيرته امامي. وقد حمل لي هذا بعض الترضية . اما الدعوة للعشاء فلم يكن امامي مجال لرفضها . لكن ، خلافا لتوقعي ، لم يستسلم رجا كلية ازاء رغبتي في السكن مع جدعان :

ـ ارادت امي ان نعطيك حجرة عندنا ، قالت اننا نستطيع ان نبني

واحدة خلال ايام ، صحيح ان الوقت شتاء ، لكن الطقس مايـــزال جافا ••• لو رغبت في •••

ـ لااثقل عليك ، دار جدعان واسعة •

فاربد وجه رجا وهو يستدير نحوي بعصبية ، ولم افهم السبب الى ان تكلم :

ـ ليست داره ، هي دار عمي !

ـ اتعني ان الرجل الذي رحلوه هو عمك ؟

ـ ظلموه ، والله العظيم ظلموه ، لما رحلوه كنت كبيرا ، ماكنت ولدا ، وأعرف •

كنا نتجه ناحية الدور ، يقودني رجا في درب اقصر من الذي سلكته قبل قليل • وكان صوت الشبابة قد عاد ينداح فوق السهل بنغـم حزين ، واخذ رجا يقص حكاية العم : كان العم مسؤولا عن الاسرتين ، اسرته واسرة ابي رجا بعد وفاته ، وكانت عشيرة رجا تملك قطعة ارض صغيرة على الجانب الاخر من النهر حيث تمتد المنطقة المجردة بعرض مئات قليلة من الامتار • وكان من حقهم ان يقطعوا النهر كل صباح ليعملوا في الارض على ان يعودوا قبل حلول الظلام • وكانوا ، هم وامثالهم من الفلاحين ، يجتازون مخاضة بعينها حددتها السلطات كـي تسهل مراقبتهم ، وبالطبع ، لم يكن من شأن هذه الرحلة ان تنتظم ،

فما اكثر ما تتواتر الظروف التي تقطعها ، من الاحوال الجوية التي تجعل التخويض في النهر صعبا ، في الشتاء ، في اوقات المطر ، وفي الصيف عندما تذوب الثلوج في الجبال التي تغذي النهر بمائها ، الى الاضطرابات الامنية على الحدود والاستنفارات التي ترافقها ، الى تقلب امزجة العسكر الذين يحرسون المخاضة ، فيمنعون هذا او ذاك ، او يمنعون الناس جميعا . والى هذا ، كان الاسرائيليون يسطون على الحقول في الليل . وهكذا افتقدت الحقول دأب الرعاية ، فلم تعد تعطي ما كانت تعطيه من غلال ، فساءت احوال فلاحيها ، وبحث بعضهم عن سبل للارتزاق ، الذين اسعفهم الحظ تطوعوا في الجيش ، وتدبر آخرون امورهم مع البك فأجرهم قطعا من ارضه . اما العم فما كان في سنه قادرا على الخدمة في الجيش ، ولم يفلح في كسب رضى السرايا . وانتهى الامر بهذا العم الى ممارسة نوع بسيط من التهريب ، يشتري البيض من دور الفلاحين ويعطيه لسمسار يبيعه على الجانب الاخر من النهر للاسرائيليين . وكان السمسار ، كما قال رجا ، يملاء افواه العسكر الذين يحرسون المخاضة . ومرة تبدل قائد الحرس وشاء الجديد ان يرفع قيمة الرشوة ، فاستثقل السمسار طلبه ولم يدفع ، فاغتاظ قائد الحرس ، ولكي يضغط على السمسار اعتقل اول واحد من جماعته واسلمه للمكتب الثاني ، وكان ذلك هو العم الذي اعتقل بتهمة التعاون مع العدو . ولحسن الحظ سوى السمسار مشكلته مع

المرتشي ، ولم يتخل عن رجله ، فتوسط له حتى افرجوا عنه بغير محاكمة واكتفوا بابعاده عن الحدود •

ـ وهكذا صار علي ان اشقى انا وامي حتى نبعث للعم •••

ـ ولهذا وقعت في سنارتهم ؟

لم يفهم فاوضحت :

ـ شغلوك مخبرا ، فانفرجت احوالك •

وانتفض كمن شكه مخرز في رقبته :

ـ انا لست مخبرا •

ـ اصطادوك ، اعطوك من ارض البك بدل القطعة اثنتين ، وشغلوك سقاء في المدرسة ودبروا لك العمل عند سمسار الخضار •

واستسلم :

ـ جدعان قال لك ، حزرت هذا ، هو لايحبني •

كان ينتفض ويكاد يبكي •

ـ لست الومك ، لست انت المسؤول •

وكأنما شجعه تعاطفي ، فعاد للمكابرة :

ـ لماذا لايحبني جدعان ، اليس هو الآخر في الجيش ، ماالفرق ؟!

واستفزتني مكابرته :

ـ هل تعرف امك انهم جعلوك عينا على ابناء عشيرتك ؟

ـ دخيلك !

لفظها بحشرجة فأر يغرق :

ـ ... لا تقل لها ! لو عرفت لبصقت علي ، امي قاسية ، كل شيء الا ان تعرف هي !

وانهمر نشيجه .

ـ ٨ ـ

كانت الحجرة مكتظة ، بعضهم من زوار الامس وآخرون جدد ، وقد تركوا مجلسي في صدر المكان خاليا •

ـ اين غبت ، قلقنا عليك ؟

ملكة الطوارق ، مرة اخرى ، بحضورها الطاغي ، نظيفة ومشعة وتامة البهاء ••• وهكذا بدت على ضوء اللوكس • وطاب لي الجلوس ، يمتد الليل وانا لااشعر بمضي الوقت • ولم اكن اعرف ان المحتفين بي لاينصرفون الا اذا ادركوا اني راغب في ذلك • حتى اذا اضطروا ، آخر الامر ، للانصراف خلافا للتقاليد ، نهضوا ، الواحد تلو الآخر ، مكررين اعتذارات لم افهم لماذا يتشددون في ابدائها • ابو جمعة وحده بقي ، كأنه ظن ان هذا من واجبه •

وادهشني ان تألقها لم يبهت ، هي التي عملت منذ الصباح الباكر في الحقل ، وسهرت كل هذه الساعات •

ـ طاب المقام للاستاذ يااباجمعة •

فلاحظ ابو جمعة :

ـ هذا ليس مثل الآخرين .

ثم وجهت الخطاب لي مادة نحوي نظرة ودود :

ـ ياحسرة امك ، تلقاها الآن قاعدة حزينة ، تتذكرك وتبكي .

ـ ليس لي ام ، امي ماتت .

ولم يثرها افصاحي عما أعده احد شجوني ، بل اكملت ، كأن كوني بلا أم ليس هو الذي يعنيها :

ـ لو كانت تعيش لحزنت على فراقك .

ماالذي كان يختفي وراء نبرتها ، وهل كانت كلماتها تخفي ، حقا ، اي شيء ؟

ـ صاح ديك الدوارات ، هذا نص الليل .

وتململ ابو جمعة وهو يردد عبارته ، لكنه لم ينهض . وصار علي ان افهم انه يحثني على الانصراف .

ـ انت شارد .

قالتها ام رجا بنبرة هيأ لي احساسي انها حانية .

ـ ... نم اذا كنت تحب ان تنام الآن .

ووجدت في استدراكها دعوة لي الى المكوث . كنت عازما على المبيت عند جدعان ، وكل مابغيه لحظات اخرى في حضورها ، غير ان

الجلسة كانت تتراخى ، ابو جسعة يتثاءب ، ورأس رجا ينوس ، وانا يلبلبني الحرج • هي وحدها ظلت متماسكة ، تصلني بنظرة مباشرة تطول ولاتقول شيئا محددا ، ويسكن بيننا صمت شفاف يملاء المساحة بين الروح والروح ، شبكة تحيط بالسمكة لكنها لاتتحرك •

وفجأة ، اقتحمنا صوت جدعان آتيا من باحة الدار مع الوقع الثقيل لخطاه بالحذاء العسكري :

ـ ساهرون !

جلجل الهتاف وسط السكون • ومثلما فعل صوته ، اقتحم جسده القصير المتماسك الحجرة دفعة واحدة ، المشية الرشيقة التي ميزها احتراف العسكرية ، والوجه الاسمر الرائق بشاربه الذي يسود ظاهر الشفة ، وقد اضفى عليه ضوء اللوكس مهابة لاتتناسب مع عسره :

ـ حيهم !

جلجلة اخرى مرنانة ، شفعها جدعان بنظرة دارت علينا دون ان تتوقف عند أي منا • ولكنها ما ان مرت بابي جمعة حتى هب هذا واقفا كمن تلقى وخزة مباغتة ، وعلى وجهه تعبير هو خليط من البلاهة والدهشة والتهيب • وصحا رجا ، مباغتا هو الآخر ، الى درجة أنه لم ينهض بل نهضت عيناه ممدوتين باقصى جحوظهما •

وحدها ، ام رجا ، لم يبدر عنها رد فعل غير مألوف : قامت بتؤدة عندما دخل جدعان ، وهي تردد كلمات ترحيب مناسبة ، ثم دعت الزائر

الطارىء الى الجلوس ، فأخذ مكان رجا ، بعد ان استفاق هذا من دهشته وتخلى عن مجلسه بجانبي ، فجلس جدعان ومد ساقيه امامه لكي يبقى حذاءه بعيدا عن الفراش •

ـ جئت لآخذ الاستاذ !

كان قوله يتناقض مع القعدة المريحة التي اتخذها ، ولعله لم يفه بعبارته الا كمدخل للحديث ، وقد اضاف وهو يرمي أم رجا بنظرة متحدية :

ـ ••• سمير جديد هنا وانا اخاف عليه !

وردت ام رجا غير مستثارة :

ـ الاستاذ على الراس ، وهو عندنا في داره •

ـ هذا ما أخاف منه !

فاهتز جفنا ام رجا اهتزازة تكاد تكون غير ملحوظة ، وسددت نحو متحديها نظرة مباشرة :

ـ دارنا آمن من غيرها ، انت تعرف •

ولدهشتي ، أنا الذي خشيت أن يتوتر الموقف فيحرجني ، رأيت جدعان يطلق ضحكة صافية ويقول ساحبا مخابثته :

ـ هو ادرى •••

غير انها ، وقد ابتدأت رد الهجوم ، لم تتوقف :

ـ اين كنت تخمخم ؟

ـ كنت مطرح ما كنت ، ما دخلت انت !؟

قالها وهو يحتفظ بطلاقة قسماته ، ثم بدل مجرى الحوار :

ـ عندكم قهـوة ؟

فقفز رجا ناحية المنقل ، وقد وجد ، اخيرا ، ما يحرره من ارتباكه • واغتنم ابو جمعة ، الذي بقي صامتا منذ وصل جدعان ، فرصة الانفراج، فانسحب وهو يردد : « ما بقي عندي حيل للسهر » غير موجه عبارته لاحد ، ثم اختفى جسده البرميلي بخفة لم اتوقعها •

رشف جدعان جرعة القهوة دفعة واحدة ، ثم مد فنجانه لرجا ليملأه ثانية ، ورشف الجرعة الجديدة على عجل ، ونهض مشيرا الي :

ـ خلهم يناموا ، غدا ارسل عسكريا من اجل الحقيبة •

* * *

اسلمنا ضوء اللوكس لشطوط العتمة الى ان استحوذت علينا لجتها • سرت بجانب جدعان ، وانا استهدي بضوء البطارية الذي يؤرجحه امامي ، فيتعثر خطوى • اما هو فكان كمن يتجول داخل بيته • واتاني صوت جدعان كأنه يتم حديثا لم نفرغ منه بعد :

ـ اشتقت اليها فجئت •

ثم استدرك بنبرة ذات مغزى :

ـ ••• لعلك تفضل أن تنام عندها ؟

ـ كنت استعد للانصراف عندما جئت أنت •

ـ خلك من هذا ، انت الآخر تشتهيها !

كان لهذه « الآخر » وقع جاف في نفسي ، خدشت قدسية الملكة التي سكنت مخيلتي • لقد غاظني تناول جدعان لها كأنها امرأة ساقطة• وانطلق من فمي تعبير لم استخدمه منذ زمن طويل :

ـ خاف الله ! ام رجا شريفة •

فباغتني برنة حزينة :

ـ أي شيء تعرفه عن هذا الصنف ، النساء !

ثم بسخرية فاجعة :

ـ ••• كلهـن شريفات !

وعلى غير ارادة مني ، تفلسفت :

ـ لك نظرة متشككة ، لا أقبلها •

واغلب الظن انه لم يسمع ، وعلى كل حال فان حدته لم تخفت :

ـ ليس في هذه الدنيا امرأة شريفة ، اسألني انا !

واضطرب المصباح في يده ، وما كنت قادرا على الخوض في نقاش وانا اتعثر فوق الدرب ، فقلت :

ـ دعنا منها ، احك عن غيرها ان شئت !

لكنه صمت • واذ لاحظ تعثري ، سدد الضوء على نحو يساعدني وامسك بيدي حتى وصلنا الدار •

وانصرف جدعان لتهيئة فراش لي بجانب فراشه ، وكان مزاجه معتكرا • وحين استقلينا كنت استعيد صحوي ، اماهو فبدا غير مهتم ، كان كمن فارقني لعالم آخر يخصه وحده • ولعله ظن اني غفوت • وانتهيت انا الى الظن بأنه استسلم للنوم ، فهمت ، بدوري ، في عالمي •

لست ادري كم امتد الوقت الى ان تسلل الي صوت نشيجه واستفز حواسي • كان جدعان يبكي ، بدأ نشيجه متخفيا ، ثم لم يلبث ان فاض بصوت مسموع • أكان يبكي في نومه ، أم أن نوبة هم داهم ايقظت شجونه ؟ ما كان لي أن أعرف دون ان اتطفل على عالمه ، وهذا مالم افعله ، فتحجرت في الفراش لائذا بالصمت والسكون •

- ٩ -

ايقظتني جلبة الصباح الريفي فنهضت قبل جدعان • واحببت ان اسدي له خدمة باعداد القهوة • وفي الحجرة المجاورة ، حاولت تشغيل بابور الكاز فلم افلح • ويبدو ان جدعان صحا على ضجيج محاولاتي فخف الي نشطا واعد القهوة وهو يعلق بسرح على قلة حيلتي ، ثم جلسنا نحتسيها •

كنت ، على خلافه ، معتكر المزاج • وتحت وطأة الهاجس الـذي يشغلني قلت :

ـ كيف سنفتتح المدرسة ؟ انا هنا من أجل المدرسة •

فهمهم جدعان ، مصطنعا تكشيرة يقلد بها ابتئاسي :

ـ نعم « هذا هو الموضوع » ، كما تقولون بالنحوي •

فتوسلت ، وقد ظننت انه لا يعطي للموضوع الوزن الذي اعطيه له:

ـ جدعان ، اتكلم جادا .•

وبثقة غاظني رسوخها ، أنا الذي لا أعرف من اين تأتيه ، رد :

ـ حيلتكم قليلة يااولاد المدن • خلها علي ، كل شيء يتدبر •

ـ خليتها عليـك !

قلتها واشعلت سيكارة ، ثم ذهبت الى الحجرة الاخرى لاحضر نظارتي . ولما عدت ، تلقاني جدعان ببشاشة من يوشك ان يعلن نبأ مفرحـا .

ـ اسمع ياشيخ الاساتيذ ، عندما تأمر نبدأ الشغل !

وبالطبع ، ظننته يمزح ، فجاريته :

ـ بارك الله فيك !

ـ تمـزح ؟

نطق بسؤاله معترضا على سخريتي ، وكان في اعتراضه جد ارغمني على الاصغاء اليه باتنباه .

ـ اقول لك ماذا فعلت انا بينما رحت انت تدور حول قفا امـرأة يملأ الرأس . أمس درت على الناس ، نبهت عليهم ، الشـغل ينتظر يملأ الرأس . أمس درت على الناس ، نبهت عليهم ، هذا الشغل ينتظر مادام كله للبك . سيجيء الناس للمدرسة ، كلهم يجيئون ، الفلاحون واولادهم ونساؤهم . ننظف المدرسة ونقلع الحجارة من ارض الباحة ونجعل لها سورا . يبقى ان نقنع النجار ، أبو سليم يحميه البك ، نجار شامي بخيل لا يحرك يديه اذا لم ترن له بالفلوس ، ومالي عليه حيلة ، رحت له فحلف الا يمس خشبة الا اذا ندينا يده ، علينا ان ندبر هذه ، تعهدت ان ندفع له .

فقلت . وقد وخزني شك مفاجىء بعد ان شالني حديثه الى السماء :

ــ ليست عندي مخصصات ، انت لا تعرف ؟

ــ اعرف انك جئت ترطرط خصاويك ، لا من ورائك ولا مــن قدامــك .

وما كان جدعان ليقول هذا لو لم يهتد الى حل ، فلم اتعجل . وصب فنجان قهوة آخر وهو ينظر الى السيكارة :

ــ رايح اخليك تترك هذا المخزى الذي يهري صدرك . اسمع ماذا عملت ، سأبيع الفلاحين سكاير واجمع لك النقود .

وحين رأى دهشتي المقرونة بتشككي ، ضحك ضحكة الظافر :

ــ قليلو حيلة ، هكذا انتم يا اولاد المدن ، اقول لك كيف ادبرها .

وراح يشرح خطته متلذذا ، مع القهوة ، باستثارة فضولي :

ــ في العسكرية يقولون : دبر راسك . « تلك هي القاعدة » . في الجيش يعطون سكاير خاصة للعسكر بسعر مخفض ، عشرين علبة للجندي ، وثلاثين لضباط الصف ، وللضباط قدر ما يشاؤون . العلبة باثني عشر قرشا ونصف . والذين لا يدخنون يبيعون حصصهم للفلاحين ، يأخذون منهم ثلاثين قرشا للعلبة .

ثــم سألني :

ــ فهمت شيئا ؟

فرددت مشغولا بما يختفي وراء شرحه الطويل :

ــ لـــم أفهم •

ــ أفهمك • اعيد ؟

ــ اكمـــل •

ــ الآن يا شيخ الاساتيذ ، اذا انا احضرت لكل فلاح عشرين علبة ، واعطيته الواحدة باثني عشر قرشا ونصف وليس بثلاثين ، فكم يربح ؟

ولم ينتظر اجابتي •

ــ ••• لا تتعب نفسك عند الصباح ، انا حسبتها ، ثلاث ليرات ونصف بالتمام والكمال •

كنت ما ازال غير فاهم ، الا انني ادركت انه دبرها فعلا ، ولم اعلق• اما هو فتأملني برهة ، ثم استعاد نبرة السخرية المرحة :

ــ ستسألني من اين اجيء بهذه العلب كلها ، حزرت ؟

ــ •••

قليلو حيلة انتم ، لا تزعل ! هذا السر اقوله لك فلا تتشاطر وتحكيه للفلاحين • عندنا يا شيخ الاساتيذ حرس شعبي ، نسجل فيه الفلاحين القادرين ونقول انهم تطوعوا • انا مدرب هذا الحرس ، اما الضابط المسؤول فهو لا يهتم لانه يبيت خارج البطيحة • وهؤلاء يخصص لهم الجيش حصة سكاير مثل الجنود ، لكنهم لا يعرفون هذا ، وما من أحد

عندنا يقول لهم • لماذا ؟ لان العسكر والضباط غرضهم ان يربحوا ••• مــالنــا •

من هنا وضع جدعان خطته لجمع النقود • اتفق مع النقيب قائد السرية على احضار مخصصات الحرس الشعبي لهذا الشهر ، وبدل ان يضيف على السعر الرسمي ثلاث ليرات ونصف ، سيضيف نصف هذا المبلغ فقط من أجل المدرسة والفرق الذي سيكسبه الفلاح يعادل اجرة يومي عمل •

ـ ارتــاح بالــك ؟!

يا جدعان ، لكم كنت مدهشا ! كدت اقفز لاحتضنه لولا خشيتي من ان يسخر من خفتي بعد سخريته من قلة حيلتي • وكان هو فخورا بتدبــيره :

ـ جدعان قال : المدرسة تفتح ، يعني : تفتح !

وهكذا عبرنا باب الفرج •

* * *

في أيام العمل ، كان امامي ان اتعلم الكثير • وكنت اتذكر صديقي عصام ، فلكم حاورني وانا الوك امامه افكاري مراوحا بين اليأس والوهم • كان يقول لي : « تتمترس باستقامتك وتظن ان هذا كل

شيء ، ولكنك لا تفعل اكثر من ان تشحذ ذاتيتك ، فقط حين تحتـك بالجمهور ، بحرارة التجربة ، ستتعلم ان طهارتك كلها قد تؤكد براءتك امام نفسك ، لكنها لا تخبز رغيفا لجائع ، ولا تعلـم حرفا لأمي • وافكارك هذه التي تتلذذ بايمانك بها ، لا تنفع أحدا سواك ما لم تتقد وسط الجموع » •

في اليوم الاول ، احتشد فريق الفلاحين ، جاءوا لاوامر جدعان ، ولم تكن همتهم في العمل عالية • ولاحظ جدعان : « عندما تصل علب السكاير ستدب الحمية » • واظن ان الفلاحين لم يثقوا بوعد جدعان ، كانوا مثل كل المسخرين ، لا ينشط واحدهم الا حين تقع عليه عـين الرقيب • وهكذا ، كثر الضجيج والعجيج في ذلك اليوم ، الا ان العمل الذي انجز لم يكن مما يعتد به • وفي اليوم التالي ، جاء عدد أقل ، وكانت الهمة أدنى ، لكن الحال لم يلبث ان تبدل مع الضحى • وذلك حين اقبلت سيارة السرية وظهرت الصناديق الواعدة •

نظفت الحجرتان ، وطليت جدرانها من الداخل بالكلس ، ودعـم السقف بطبقة جديدة من الطين المخلوط بالتبن ، واحضر جدعـان الواحا من التوتياء من ستودع السرية ، وتدبر الفلاحون اغصانا وفروعا فصنع أبو سليم من هذا كله ثلاثة مراحيض متجاورة اقيمت في أحـد اركان الباحة • واعطتنا السرية ايضا برميلين للسقاية اقام لهما النجار مناصب خشبية ملائمة • وقد تبدت خبرة هذا النجار ، اكثر ما تبدت ،

حين انصرف لتحويل حطام المقاعد الى اشياء يسكن الجلوس عليها بأمان.

وآخر ايام العمل خصصناه لتسوية الباحة ، كان اقتلاع الحجارة من الارض الوعرة عملا شاقا مع غياب الادوات ومع ذلك تضافرت زنود الرجال ونشط الاولاد والنساء ، فنظفت الباحة ، وصفت الاحجار المقلوعة ، فتشكل منها سور بارتفاع نصف قامة ، وصارت للسور بوابة مهيبة يسدها غصنان معتبران موصولان بالعوارض ، يمنعان تسلل الدواب الى ما صار مدرسة ..

والحقيقة انه تهيأ لنا ، بعد ايام عمل قليلة ، ما يجوز ان نسميه مدرسة ، شيء ما كنت اصدقه لو لم اره يتحقق امامي دقيقة بدقيقة .

وتناقلت قرى البطيحة انباء انجازاتنا مضخمة مثل الاساطير ، فتوافد علينا زوار كثيرون ، كان زلم السرايا يقبلون بهيئاتهم المتعالية ، يلقون تحيات باردة ويطوقوننا بنظرات مشككة ثم ينصرفون . ورجال الدرك كانوا يجيؤون وهم يحملون استهانتهم المزمنة بجهد الفلاحين مثلما يحملون الكروش التي انبتتها العيش الرخي على حساب الآخرين . اما عساكر السرية فقد تنوعت ردود فعلهم بين مستهتر ومندهش ومتضامن ، ومنهم من تبرع بمشورة او ساعة جهد . ومن بين الجميع ، كانت حالة المخاتير هي الاكثر لفتا لنظري ، كان واحدهم يجيء بكامل قيافته ، فأنا آخر الامر ابن حكومة ، وكان يجتاز الحشد عابسا

عبسة المهابة الى ان يصل الي فيلقي تحيــة مجلجلة ، وبرغم صخب التحيات والتبريكات تظل مشاعره موزعة بين خشيته من فقدان شعبيته لو استهان بعمل مواطنيه وتحسبه من غضب السرايا حين يؤيد عمــلا لا يد للبك فيه .

وزارنا ابو حسان ، جاء الوكيل في اليوم الرابع وكنا على وشك اتمام ما بدأنا به ، اخترق بحصانه حلقات الفلاحين التي كف افرادها عن العمل منذ انتبهوا لقدومه ، وتوقف الحصان امامي دون ان يترجل فارسه ، القى الرجل التحية بنبرة محايدة ثم تساءل عما اذا كنا بحاجــة لمساعدة السرايا . وقبل ان اجيب ، سبقني جدعان « خل البك يجيء ليتفرج » ، لم يحمل جدعان عبارته اي معنى خاص ، لكن الوكيل فيما يبدو اخذها على محمل التعريض ، فقال دون أن يلتفت ناحية الرقيب : « انا اكلم الاستاذ » ، وكرر سؤاله . واذ كان مزاجي رائقا لم اشأ ان استفز الوكيل ، فقلت :

ــ اليس من الافضل ان تترجل .

ــ لا تؤاخذني يا بني !

قالها وبدأ يتململ ليهبط عن السرج . وتذكرت لحظتها عرجه فخففت لمساعدته ، فغمره حرج ظاهر ، وحين صار على الارض كــان امامي رجل ممتن :

ـ اسأل جادا ، هل تريدون مساعدة ؟

ـ لو احتجنا لشيء من عندكم ، ساطلب عونك •

وتبسط ابو حسان في حديثه معي ، واسر لي بأن ابنه الوحيد الذي ما يزال صغيرا هو في الصف الاول الآن ، ومن اجله وحده تبقى الام في دمشق ، ولو نجحت المدرسة فسيكون بمقدوره أن يأتي بزوجته • وحين انصرف ، اقتاد حصانه ولم يركبه الا بعد ان اجتاز حدود الباحة •

كنت في تلك الايام منتشيا كمن يعيش مهرجان فرح متصل • في البداية ، خامرني الاحساس بأنه لا لزوم لي في هذا العمل فقد كان جدعان يقوم بكل ما يلزم • لكنني كنت اتعلم مع تقدم العمل ، واكتشف لنفسي مهمات اقوم بها • وكان جدعان ينشط بهمة من يبني بيتا لنفسه • اما الفلاحون ، الذين بدأوا بروح السخرة ، وتحركوا باغراء السكاير ، فان استمرار العمل ورؤيتهم لما يتحقق من ثماره ، ولما يبثه من اهتمام في كل مكان ، اوصلت هممهم الى الذروة ، ولم يعد جدعان بحاجة الى تقريعهم ، فقد صاروا ينخون بعضهم بعضا دون حاجة لتدخله •

في احد الايام زارنا قائد السرية ، كنت التقيه للمرة الاولى • جاء النقيب عوني راكبا حصانا ابيض من خيل السرية ، وكان يرتدي الزي الكامل لضباط الجيش كأنه يشترك في استعراض عسكري • وبعد ان

شمل النقيب الحشد بنظرة قائد استعراض ، قفز عن السرج واتجه نحوي وحياني ببشاشة ، واطلق عبارات التشجيع بطريقة اراد بها ان يفهمني ان ما يجري انما يتم بفضله • ولم يأل جهدا في حملي على ملاحظة انه يبذل كل ما يقدر عليه ، وانه بهذا يقوم بواجبه نحو رسالة التعليم • ولعل جدعان ، الذي تصلب في وقفة عسكرية ، خشي ان يستثيرني تبجح النقيب ، ولذا غمزني غمزة متواطئة تقول لي : اتركه يتفاخر !

كان النقيب عوني كما وصفه جدعان • رجلا يبدو انه اشرف على الخمسين ، امتلا جسمه من غير ان يترهل واستدار بطنه مبرزا كرشا لم يرتخ ، وله وجه طافح بحمرة مبقعة ، شأن من اعتاد تناول الكثير من الكحول ، وله عينان صغيرتان انطفأ لونهما ولكنهما تحتفظان بنشاط حركتهما • كنت اصغي اليه فيما ينشد انتباهي الى ارنبة انفه المحمرة مثل بلحة ، والى فمه المسموح حين ينفتح عن اسنانه الصناعية بكثافتها الكلسية ، وكان في هذا كله شيء يصرفني عن الاهتمام بفحوى حديثه •

وكان النقيب ، كما ينبغي ان يقال ، على شيء كثير من طيبة النفس التي تتسق مع سذاجته الظاهرة بجلاء • وكان اهتمامه بالمدرسة متكلفا بحيث لا يعينه سوى اظهاره • وقد ظهر تكلفه اوضح ما يكون حين تعمد ان يتجه الى الفلاحين ويتحدث اليهم ، فقد شد النقيب قامته ، ورفع

رأسه الذي ارخاه الادمان ، ولكن فمه لم ينفتح الا عن عبارات لم تتم ، ثم لم يلبث ان اتضح برمه أمام كثرة اسئلتهم وطلباتهم ، حتى ان جدعان اضطر آخر الامر الى التدخل ليصرفهم عنه فاصدر اوامره بمتابعة العمل ، ودعا نقيبه للتفرج على المدرسة من الداخل .

جلسنا متقابلين على طرفي مقعد في الحجرة التي فرغ ابو سليم من اعدادها . واحتفظ جدعان بوقفته العسكرية . ومع اكواب الشاي التي حملها احد الفلاحين ، ، منحني النقيب الفرصة لاشرح له سير العمل . وكان يقاطعني ليؤكد ، فقط ، دوره المفترض : « اذا احتجتم لشيء فأنا حاضر » ، وأرد انا : « اعرف » ، ثم اضيف : « جدعان حكى لي اشياء كثيرة عنك » . وكان النقيب سعيدا لانه يجد من يقر بفضله وانا اركز على هذا ممهدا لطلب جديد :

ـ بفضل مساعدتك سنهيء المكان ، هذا صحيح ، لكن ما يزال ينقصنا الكثير .

ـ تفضل ، انا في الخدمة !

ـ نحتاج للقرطاسية والكتب ووسائل الايضاح ، بدونها لا يمكن ان نبدأ ، وهذه يمكن احضارها من مديرية المعارف في درعا لانهم يبيعونها للمدارس باسعار ارخص من السوق ، ولا بد من سيارة ، واملي فيك كبير .

تململ النقيب :

ـ سيارة ؟ نحن هنا سرية خيالة ، ما عندنا آليات .

هنا تدخل جدعان كأنه يتم عبارة قائده :

ـ غير ان عندنا واحدة للتمويـــن .

واكمل النقيب :

ـ هذه لا يمكن الاستغناء عنها تذهب وتجيء كل يوم لاحضار التموين من قيادة الكتيبة . وارسالها لدرعا يحتاج لامر مهمة يوقعه قائد الكتيبة ويوافق عليه قائد اللواء ، ويسر على قائد الجبهة ، يعني المسألة ، كما ترى ، صعبة .

وأمن جدعان على كلامه .

واذ لاحظت الحرج على وجه النقيب الذي ساءه ان يتكشف عجزه ، اردت أن اهون عليه :

ـ لا تشغل بالك ، انا اتدبرها ، اذهب الى القنيطرة ومنها لدمشق ثم لدرعـــا ، وهناك ابحث الامر مع المديرية .

غير ان جدعان اسعفنا باقتراح ، قال وكأنه ينطق باسم نقيبه :

ـ البك عنده سيارات كثيرة .

وكأنما وجد النقيب الحل بنفسه فانتعش :

ـ اعتمد علي ، أكلم البك ليعطينا سيارة .

وتدخل جدعان مرة اخرى ليسلحه بالحجج اللازمة :

ـ عند البك ثلاث سيارات ٠

وسألني النقيب ، وقد برز الاهتمام في عينيه برغم انطفائهما :

ـ رأيت البك ؟

ولم ينتظر اجابتي :

ـ ٠٠٠ خليل بك رجل طيب ، لا يرد لي طلبا ٠ تعال اليوم بعد المغيب الى السرايا ، سأكون عنده فنتحدث ٠

فقلت ، متملصا ، ومدفوعا بنفوري :

ـ انا لا اعرفه ٠

لكن النقيب لم يفطن لحقيقة دوافعي :

ـ بسيطة ، اعرفك عليه ٠

واذ وجد شيئا يفعله ، استعاد النقيب سمت الرجل القادر على المساعدة وقال وهو يتهيأ للانصراف :

ـ هو رجل طيب ٠

وتبعته الى حيث ينتظر الحصان ، سار جدعان وراءنا وقبل ان يعتلي السرج حياني مودعا ، ثم التفت الى جدعان وربت على كتفه واوصاه :

ـ خل بالك على الاستاذ !

وقفز الى السرج بخفية خيال محترف ، ومضى ٠

كان جدعان متفائلا ، ولم اكن قادرا على مجاراته ٠ لقد طلبت

مساعدة البك ولا اشك في ان ابا حسان ابلغه ، ولو اراد المساعدة لارسل يطلبني . لكن جدعان لم يكن بغير حجج ، فابو حسان جاء بنفسه يعرض المساعدة ، وقد رماني بآرائه العملية ، مكثرا من استخدام العبارات الفصيحة . واخيرا انتهينا الى اتفاق : اذهب من اجل المدرسة . وضحكنا .

— ١٠ —

عبرت البوابة الكبيرة مجتازا حشد الكلاب والحراس ولم اطرق باب الفيلا الخاصة بالسكن لاني تهيبت ان القى معاملة غير كريمة • وكأنما كان الامر مدبرا ، اذ واجهت ابا حسان واقفا ازاء البوابة • رآني فلم يتحرك ، بل لم يبد ما يدل اهتمامه بي ، وقد ادهشني تصرفه انا الذي ظننت ان الامور لانت بيننا بعد اللقاء الاخير في المدرسة • وركبت راسي فعزمت على تجاهله بدوري • وبحثت عن احد ينبيء صاحب السرايا بقدومي فلم تقع عيناي على احد في مدى الباحة الواسع وحين اتجهت لابحث في الحجرات ، متجاوزا ابا حسان ، سمرني صوته الحانق : « انت ، اين تدخل هكذا ، اما علموك في العمارة ان تطرح السلام » ؟

والحقيقة أني اخذت بالحجة التي استخدمها لتقريعي ، الا اني تجاهلت ملاحظته وقلت دون ان احييه :

ـ عندي موعد مع خليل بك •

واخذ هو بادعائي ، فتردد لحظة رازني خلالها بنظرة متشككة ، ثم قال :

ـ عنده ضيوف ، ما قال لي شيئا عنك .

وبرغبة من تورط في كذبة صغيرة فاندفع لاثبات صدقه ، قلت :

ـ اعرف ، عنده عوني بك ، وهو ينتظرني .

ويبدو ان هذه اصابت هدفها ، ففاض الشك في نظرته ، واقترب مني :

ـ ما الذي تبغيه من مقابلة البك ؟

ـ مسألة ، كيف اقول ؟ تخص المدرسة .

ـ لم تطلب شيئا حين جئتك بنفسي اعرض المساعدة .

قالها بنبرة نبهتني الى سر جفوته ، واكد هو ما استخلصته ، ودنا مني وهو يقول بنبرة عتاب :

ـ لا تريد ان تصدقني ، انا من حي العمارة ، الحي كله يعرفني ، اسأل والدك ، فنحن بلديات ، وانا ابحث عن صالحك . البك خيره كثير ، لماذا لا تسكن عندنا ، لا ينقص منه وجودك ، كلهم ، بلا مؤاخذة ، يجيئون الينا .

كان توفزي يرتخي ، ولم اعد بعد راغبا في مناكفته .

ـ هذه مسألة شخصية ، فارجوك ، جئت لارى خليل بك فخذني اليه .

فقطب ، ثم انفتل متجها ناحية الفيلا وهو يدمدم بكلمات مسموعة .

ـ ما رأيت انشف من راسك ، ترفض النعمة كأن اباك السلطان •

وانتظرت قرب الباب الصغير تشيلني وتحطني احاسيس مضطرمه ، وحين ظهر ابو حسان قال باقتضاب : « على السطح ، ينتظرونك » ثم تركنـي •

اجتزت ردهة الطابق الاول ، فأسلمني طرفها ، لبداية السلم ، وكان خليل بك ينتظرني عند مدخل السطح ، لم اتبين ملامح وجهه وهو يرحب بي ، لان ضوء اللوكس يأتي من خلفه ، غير ان القامة المنتصبة اعطتني انطباعا عن رجل له هيئة متناسقة وبنية متينة ، وهذا ما اكدته شدة يده القوية وهو يصافحني •

ـ اهلا بالاستاذ المتحمس •

قالها ببشاشة ، وهو يمد ذراعه بحركة موزونة ، وقادني الى حيث كان يجلس مع النقيب في حجرة زجاجية مدفأة • ثم اشار لي كي آخذ مكاني في المجلس بجانب النقيب ، واقتعد هو كرسيا يجعله قبالتنا :

ـ عوني بك حدثني عنك ، الظاهر انك سحرته ، فأرجـو ان يكون محقـا •

كان هذا الاستقبال المتأدب مفاجأة اربكتني ، لقد استقر في ذهني ان الاقطاعي رجل جاهل ، ورث الارض بغير تعب عن اب أجهل ، بعد ان امضى شبابا لاهيا ، وانه جاف ومتعال ، ولا يهتم بآداب السلوك

حين يتعامل مع من هم دونه . وما كنت قد التقيت اقطاعيا قبل خليل بك ، فلما لقيت هذا المضيف الذي لا تعوزه اللباقة تزعزت الاستعدادات التي هيأت نفسي بها . وحين استهل خليل بك الحديث على هذا النحو ، جهدت لاخفي ارتباكي :

ـ النقيب قال عنك ، انت الآخر ، اشياء طيبة . فتهلل وجه النقيب الذي كان يمز من الويسكي ، ودارت عيناه المنطفئتان بنظره مطمئنة ، وضحك خليل بك منبسطا :

ـ وانت تأمل ان اكون مستحقا لهذا ، اليس كذلك ؟

وبالتبسيط ذاته سألني :

ـ نحن نشرب فهل تأخذ كأسا ؟

فأجبت ، وفي داخلي شيء دفعني لان اتفصحن :

ـ يسعدني هذا ، شرف لي ان اشارككما الشراب .

وبينما انصرف الخادم، الذي استدعاه خليل بك بصفقه من يده ،لاعداد كأسي،رحت اتأمل مضيفي.كنت ازاء رجل لا بد انه تجاوز الخامسة والاربعين وان ظلت ملامحه تحمل فتوة من الف العناية بصحته.وكان شعره الاسود المقصوص بعناية مرسلا الى الخلف بغير فرق ، وفي فوديه شعرات بيضاء قليلة اضفت عليه مهابة وجاذبية . ووجهه ابيض اللون لوحته شمس الغور دون ان تجور عليه ، والتقاطيع منتظمة ليس فيها عيب ، والعينان

واسعتان تطلان مستريحتين تحت حاجبين ممتلئين • وقد ارتدى خليل بك ملابس حريرية من آخر زي : بنطالا ابيض وقميصا بنيا فوقه بلوزه صوفية خفيفة بغير اكمام ، وانتعل حذاء فائق الاناقة •

ويبدو ان خليل بك تركني اتأمله فيما راح يتأملني بدوره • وحين تنبهت رايته يبتسم ابتسامة ناعمة وقد انبسط حاجباه :

ـ لم تجد الآغا الذي توقعت ؟

ـ بصراحة ، الامر كما قلت ، هذا الريف المتخلف ، وانت سيده ، مفارقة كاملة بالنسبة لي •

نطقت العبارة بالفصحى ، هل كنت اسعى لاثبات جدارتي ام لتأكيد موقعينا كمختلفين في الحوار •

ـ استاذك بدأ الهجوم ، كيف تقولون في العسكرية فن الحركة • فيهم هذا الشيء •• شبان ••

وجه الخطاب للنقيب دون ان تفارقه الابتسامة الناعمة •

فقلت مقاطعـــا :

ـ لم أقصد شيئا ، ارجوك ، جئت من أجل الموضوع الذي حدثك عنه حضرة النقيب عوني •

ـ عوني بك لم يحدثني عن اي موضوع ، طلب مني ان استقبلك وانا لا ارد له طلبا •

فتدخل النقيب بعد ان حششته بنظرتي ، وتحدث عــن حاجتنا • للسيارة ، فقال خليل بك :

ــ هذه بسيطة ، ابو حسان يحلها لكم ، مر به غدا ، يهمني ان اخدم المدرســة •

وعقب النقيب :

ــ الم اقل لــك ؟

ثم رفع كأسه لنشرب نخب البك •

وبدا لي ان الزيارة استنفدت غرضها ، وعزمت على افرغ مــن كأسي وانصرف •

ــ موضوع فتح المدرسة يلح علي • آمل الا يفوتك التنبيه على الوكيل من اجل السيارة ، انها مسألة ••

ــ لا تلحف • كل شيء سيكون على ما يرام •

قال هذه العبارة بالفرنسية ، واراد ان يترجمها ، فافهمته اني اعرف الفرنسية فاستفهم عن دراستي فحدثته عن الجامعة • وتبسط فذكر لي انه انتسب لمدرسة فرنسية منذ الصف الاول الابتدائي حتى انهى فيها الدراسة الفرنسية ، وقال انه لهذا ، يستسهل الحديث بها بالرغم من انه تعلم الانجليزية فيما بعد واتقنها • وحين استوضحته تبسم :

ــ الآغا الذي امامك ، قضى نصف عمره بالضبط في تحصيل العلم •

واذ ظن انه بهرني بهذا ، فانه اكمل وهو يحتفظ بابتسامته :

ـ ... اضف لمفاجآتك واحدة جديدة : هذا الآغا الذي تتصور انه يأكل لحوم الفلاحين درس الادب المقارن في الجامعة الامريكية ، ثم درس الاقتصاد .

فقلت وكان الحديث قد بدأ يشدني ، بينما تربكني غمزاته :

ـ اقدر ان الوالد اهتم بتعليمكم .

وانتبهت بعد ان نطقت بالعبارة المضطربة ، الى اني افرض على نفسي في حضرته تأدبا لا اتقنه . وخشيت ان يلحظ خليل بك ، بذكائه الظاهر ، حالتي ، غير ان ذهنه ، لحسن الحظ كان معنيا بابهاري بما هو طريف في حياته ، وقد ضحك لعبارتي ، لكن لسبب آخر افصح عنه تعقيبه :

ـ كان والدي آغا حقيقيا ، من النوع الذي تتخيله انت بالضبط ..

وتدخل النقيب عوني مجاملا :

ـ يقولون انه كان رجلا ملء هدومه .

ولم تستوقف الملاحظة خليل بك .

ـ كان من رأيه ان التعليم الجامعي مضيعة للوقت . هل تصدقان انه كان يجلدني بيديه اذا أخطأت ؟ ازداد ارتباكي اذ لم أجد ما أقوله ، في حين وشت نظرة النقيب باستغرابه من تبسط البك أمامي ، صار

لارنبة أنف الضابط لون الخوخة ، وان كان واضحا انه غير مستاء ، وفي لحظات الصمت التي استطابها خليل بك ليتأمل رد فعلي ، مضى النقيب الى المائدة الجانبية ليملأ كأسه ، ثم رجع وهو يقول بنبرة من اعتاد ان يتصرف كواحد من أهل البيت :

ـ جوعتنا ، متى يأتي العشاء ؟

وأعطى خليل بك الاشارة للخادم فجيء بالطعام ، وامتلأت المائدة التي تقوم في طرف الحجرة من الناحية التي تطل على السهل والبحيرة ، انتقلنا ، ثلاثتنا ، الى المائدة ولاحظ خليل بك ان كأسي فرغ ، فاستدعى الخادم . ولما انتظمت قعدتنا حول المائدة ، نبهنا خليل بك مستحثا :

ـ هذا السمك الطازج ، اصطدته بنفسي .

وعقب النقيب الذي كان تجرع رشفة كبيرة :

ـ امضى اربع ساعات في الصيد ، مع ان الصيادين كلهم في خدمته.

فرد خليل بك ، محملا لهجته مغزى يقصدني به :

ـ الاستاذ ادرى منك بأهمية ان يأكل المرء من عمل يديه ، ها أنا آكل مما تعبت في الحصول عليه .

ولعله خشي ان يكون المغزى قد فاتني فقال خالطا الجد بالهزل :

ـ ... وها انت ترى انني لا آكل لحوم الفلاحين .

وسألته لأؤكد اني التقطت الاشارة :

ـ أي فرع من الاقتصاد درست ؟

نأطلق ضحكة رنانة ، ورشف جرعة كبيرة من كأسه وهو يشير الينا كي نجاريه ، وهتف :

ـ هــذه ستكون اهم مفاجآتك ، كانت اطروحتي عن لينــين ، فلاديمير ايليتش •

واذ أدرك أن انبهاري قفز الى الذروة ، وانه بلبلني تماما استعاد سمت الجد وأخذ يشرح متبسطا :

ـ •• نعم عن لينين الذي قلب الدنيا على رؤوس الملاك الروس •

كان تأثير المفاجأة والويسكي يسلمني الى دوار غامض أخذ يلفني ، أحسست اني ازاء شيء غــير حقيقي ولكنه واقعي في الوقت نفسه ، ووجدتني أسير في دوامة وسط تيار وهمي لكنه عاصف ، أحاول أن أبذل الجهد ، ولا أبذل أي جهد، لكي أسبر غور هذا الغموض لاستوثق من مصداقيته قبل أي شيء آخر • ما الذي حمل هذا الاقطاعي على دراسة لينين ، هذا هو السؤال الذي تشبثت به لاحتفظ بتوازني في مركز الدوامة • ولا بد ان السؤال انطلق من فمي بصيغة ما ، فرد خليل بك بعد ان واجهني من تحت حاجبيه المفرودين بنظرة تشي بأنه يعد لي مفاجأة جديدة :

ـ دراستي لبوشكين قادتني الى لينين •

وتلت ذلك لحظة صمت ، ثم تابع :

— •• اطروحتي بشهادة الآداب كانت عن تأثير بوشكين في الأدب الانكليزي •

جرعت ما بقي في كأسي ، وقمت ، وفي نيتي ان أملأه بنفسي ، الا ان رب السرايا ، لم يمنحني هذا الحق ، بل استدعى الخادم ، فجاء قبل ان أصل لمائدة الشراب ، فأخذ الكأس من يدي • عدت لمقعدي ، واقتطعت شريحة كبيرة من السمكة ووضعتها في طبقي ، كل هذا وأنا أبحث في ذهني عن شيء أقوله •

وقبل أن اهتدي لما يخرجني من الارتباك ، جاءني صوت خليل بك كأنه يحط ، بطيئا بطيئا ، من مكان بعيد :

— بوشكين عاش في قصور النبلاء ، الاقطاعيين كما تسمونهم أنتم ، ومن قصورهم هذه استمد روسيته ، روح روسيا الاصيلة الجليلة ، وفي ظل رعايتهم كتب أحلى شعره وأجل أعماله ، ثم جاء صاحبكم ، المتعلم الذي سكنته حمى الهمج فما استقر بعدها ، هيج روسيا بعد ان جوعتها الحروب وأكلت أبناءها وأرزاقها • وبينما كان النبلاء يقودون الجيوش ويسوتون دفاعا عن الوطن ، كان لينين ينبت بذور العصيان ويوقد نار الهيجان في الفلاحين البلداء • كان حاقدا يؤرقه افتقاره لعراقة النبل أو كان انتهازيا لم يجد طريقا للسلطة من أكتاف الغوغاء ،

فاستغل الهمج وقلب كل شـيء في روسيا رأسا على عقب ، الدين ، والثقافة ، والاخلاق ، كل شيء •

كنت وهو يفيض على هذا النحو ، أستعيد شيئا من توازني ، أما النقيب فلم يعد ، بعد ، يتابعنا ، وقلت مقاطعا :

ــ أنت تذهب بعيدا في التحليل المناقض للحقيقة •

وأملت أن تستفزه عبارتي لنبدأ الجدل ، غير أن غرضي لم يتحقق • ذلك انه استمر دون انعطاف •

ــ أردت أن أقول : ان لينين برغم هذا لم ينسى روسيته كلية ، فظل يحمل شيئا منها تحت الجلد ، وهذا ما أدهشني حين تنبهت له • كنت أقرأ دراسة عن بوشكين فعرفت ان لينينكم كان يحبه وانه أوصى بأن يطبع تراثه ويعمم ، بل كان يفضله صراحة على الادباء البولشفيك ، وقلت في نفسي : اما ان هذا الرجل نصاب أو انه عبقري مجنون اختلطت عليـه الامور • وهكذا قررت ان أعرف المزيد ، ولم يكن أمامي الا الالتحاق بقسم الاقتصاد السياسي •

قاطعته مرة أخرى :

ــ قرأت أنا أيضا لينين ، وانا أفهمه على نحو آخر •

وكأنما أراد ان يفهمني انه حزر قصدي وليس راغبا في مجادلتي :

ــ لينين ، صاحبكم ، كان مثقفا ، أصاب في فهم مشاعر الهمج ،

ولهذا نجح في القفز الى السلطة . وكانت له شخصية مركبة فحافظ على التراث برغم حقده على القديم .

وكنت قد صرت متحرقا لرد الهجوم :

ـ أنت ، اذا ، ترى في هذا تناقضا ، اما انا ...

فواجهني بالحاجبين المرفوعين والنظرة التي تؤكد استعداده المسبق لرفض ما سأقول :

ـ ما الذي تراه أنت ؟

وفي « أنت » هذه ، بالنبرة التي نطقها بها ، تبدت الاستهانة المبطنة بالرغم من حرصه على أدب الحوار ، مما جعلني أعدل عن قول ما انتويت قوله ، وأرميه بعبارة متحدية :

ـ لي رأي مغاير لرأيك تماما . انت ترى في سفالات الاقطاعيين الروس نبالة ، ولا تستوقفك في أعمال بوشكين قدرته على كشف تفسخهم . انا ارى في بوشكين ....

كنت أصوغ عباراتي بالفصحى ، ولعل هذا بالذات هو ما استثاره ، فاستحالت استهانته عدوانية :

ـ « أنا » ، « أنا » ، « أنا » تقولها كأنك سقراط الحكيم قل لي : من أنت ؟ تقرأ بحثا او بحثين مترجمين برداءة ، وتحفظ أربع خمس شعارات ثم تتفلسف .

ـ أظنك تعرف اني أنتمي لمن تسميهم همجا ، ولذا فأنا أفهم لينين خيرا مما تفعل ، ليس كما يفهمه اعداؤه على كل حال •

ولعله لام نفسه على احتداده ، فلان وهو يصغي الي ، دون أن يفارقه تحفزه :

ـ أفهمه كما تشاء •

ـ لينين رأى ما تفعله قصوركم في روسيا : المتع والخيرات والثقافة لعدد من المالكين • وللفلاحين ، للملايين الامية والجوع والامراض والكد حتى الموت ، فخط الطريق لانقاذهم ، كان متأججا لانه يثق بقدرة الشعب على التحرر ، ولذا صان تراث بوشكين وغيره من المبدعين العظام حتى تتمتع به الملايين حين تهتدي عيونها لدلالة الحرف ، ما كان في الامر أي تناقض • وهذا ما تم بالفعل في الدولة الجديدة •

ـ شعارات ، قلت لك : شعارات ! تحفظونها وترددونها •

أجاب ونبرته تحمل حنقه بغير تحفظ • وغب جرعة كبيرة بينما انعقد حاجباه حتى اتصلا ببعضهما :

ـ ما الذي تعرفه انت عن الفلاحين • شبان المدن انتم ، تنسبون للفلاحين أفكاركم • نعلمكم فتحلمون بفلاح مدني يبتهج بأحلامكم وتتوهمون ان هذه هي أحلامه ، هل تظن ان في هذا السهل كله واحد سمع باسم لينين أو ستالين أو بوشكين ، أو حتى زعمائكم الذين

يعيشون في المدن ويلعبون لعبة السياسة وهم يحلسون بالزعامة • أعرف واحـدا من هؤلاء ، كنا في مدرسة واحدة ، كان في المدرسة مجليا ، وحصل على وظيفة ، لكنه استسهل لعبة الزعامة فصار يتحدث باسم الفقراء ، وأعرف غيره ، محاميا ملأ مكتبه بالزبائن باسم الدفاع عن الكادحين وركب موجة الاشتراكية ، فمن الذي يعرفهم هنـا • حتى سلطان الاطرش لا يسمع به أحد من فلاحي • بين كل ألف فلاح لن تجد واحدا يفك الخط ، وان وجد فهو يكتب الحجب والتعاويذ فيقبض ويتكاسل عن العمل • هممت بمقاطعته لكن صوته صار أعلى :

ـ تتوهمون ان الفلاحين سيصبحون سعداء لو تعلموا القراءة والكتابة ، أليس هذا ما تريد أن تقوله ؟ هل تظنون أن ذهابهم للمدارس سينزع الكسل المتوارث •

ـ قبل قليل وعدتني بأن تساعد على فتح المدرسة •

فصوب الي سهمين أوقدهما الشراب والحنق :

ـ لا تظن انك مفرط الذكاء • وانك تمسكني متلبسا • وعدتك لانك جئت الي ، ثم ان لك ان تجرب وسترى بنفسك عدد من سيأتي بابنه الى المدرسة ، فلا تتعجل ، انا هنا أسوقهم سوقا من أجل العمل مع انه مصدر رزقهم •

وشئت ان احرجه فنقلت الحديث الى مجرى آخر :

ـ لا استغرب تأييدك للشيشكلي وانت البرلماني القديم •

لكنه ضحك :

ـ أعـرف انكم تعارضـون شدة الحكم وحزمـه وتقولون : ديكتاتورية ، هل جربتم ان ترشحوا واحدا من جماعتكم في الريف •

واعترض النقيب بغير همة :

ـ تتحدثون في السياسة ، أنا عسكري •••

ثم صمت • ورماه خليل بك بنظرة مهملة ثم عاد الي :

ـ الفلاح يحب السلطة التي لها هيبة • كانوا يحبون أبي رغم انه يجلدهم بيديه في ساحة السرايا ، وهم ينتخبونني مع انكم تصفونني بأني مصاص دمـاء • تريدون أن يتولى الفلاحـون زمام أمرهم • ما تكتبونه يقرأه مثقفو المدن وحدهم ، اما هنا فيا دار ما دخلك شر أتعرف كم تحتاجون من الوقت حتى تعلموا مليون فلاح في سوريا ومليون أمي في المدن ، واذا تعلموا فما الذي سيتبدل ؟ سيظل الفلاح تابعا للمدني لان المدني سيتقدم قبله •

الى هنا كنت قد انفلت من الدوامة ، وأمامي يتجسد واقع كثيف الحضور ، وقلت بهدوء :

ـ لو أعفيتني من المجاملة ، أنا الذي أجلس على مائدتك •••

ولم يتركني لأكمل :

ـ ستبق ما في بطنك ، فقط دعني بغير مقاطعة • أتعرف ما الذي سيحدث لو تحققت أوهامكم . سأذهب أنا وسيأتي لهؤلاء الفلاحين قوميسر يأمر وينهي باسم الشعب وباسم الحزب ، يأخذ غلال الفلاحين حتى تصير لعمال المدن كروش مثل كروش الافندية ، وحتى يشبع الهمج الذين تجندونهم باسم محاربـة الاقطـاع والبرجوازية • ثم ماذا ؟ ستغمرون بالتعاسة أجيالاوأجيالا من أجل سعادةموعودةلجيل قادم•اماأنا فأدير أموري ببساطة هنا ، الفلاحون يعملون ويأكلون ويسهرون على الربابة ويدبكون على المجـوز والدلعونا ، لا تشغلهم مدارس ، ولا جرائد ، ولا راديو ، ولا سينما ، ولا مسارح • جهـال ؟ هم سعداء بجهلهم ، لماذا تظن ان الفالس يبهجهم أكثر من الدبكة ؟ حدثهم عن بوشكين أو حتى عن عمـر أبي ريشة فلن يعني لهم ذلك شـيئا • فماذا تقول ؟

ـ يمتعني ان اصغي اليك ، فانت ، كما ارى ، تقدم نموذجا متميزا من •• كيف اقول ؟

ـ الاقطاعيين ، قلها ، فانا اقطاعي ، قد اكون قاسيا لكني اعرف كيف اصبح واسع الصدر • وها انا اقرأ في عينيك اداتنك لي ومع ذلك نجلس ونتحاور ، اما في دولة العمال والفلاحين فلن تقدموا لي غير المشنقة ، ولو تعلق الامر بي ، وحدي ، انا مصاص الدماء ، لكـان مفهوما • ولكنكم تطلبون من الفلاح ، المستمتع ببلادته ، ان يقرأ

ويكتب ويشغل الجرار والحصادة ويشترك في المناقشات السياسية ويهتم بالايديولوجيا ، فاذا لم يستجب فله ، هو الاخر ، المشنقة ، اليس كثيرا ما تطلبونه من فلاح يستطيب قيلولة في الظل وتلذله باكثر مما تفعل ، كل انتصارات البروليتاريا العالمية .

ـ انت تحكي عن الفلاحين كما هم في ظل سطوتك ، كما تريدهم ان يظلوا . الا ترى انك لست عادلا حين ترفض ان ترى مجرى التطور .

ـ نعم ، هذا هو الفرق ، انا ارى ما هو موجود وانتم تتوهمون ، من قال لك اني لا اريد لفلاحي ان يتقدموا ، لكني لا ارغمهم ارغاما فماذنبي ، اذ كان الله خلقهم هكذا ؟ عندي الامر بسيط : الذي لا يريد العمل يترك الارض لغيره ، ويذهب ويتشمس ، لا اضع خططا ولا ارغم احدا على شيء ، في البرلمان كان همي ان امنع الدولة من التدخل،والآن انا صديق رئيس الجمهورية واهتم بهذا ، اترك الكون كما رسمه خالقه لانك لو تدخلت فسيضطرب . هذا ما تعلمته في الحياة .

وصمت كأنما ليفسح لي مجال الحديث ، أما أنا فكنت أفكر في هذه الشخصية التي وقعت عليها ، المثقف الذي يجد في جهل الجموع أمرا طبيعيا ، والاقطاع الذي التقط شعارات البرجوازية ، والسيد الذي يتقن آداب السلوك ويبيح لنفسه ان يجلد الفلاحين ، نصير الديكتاتورية المعجب ببوشكين ، واستظرف هذا كله ، لم يعد يشغلني تناقضي معه

بمقدار ما تشغلني طرافته بالذات وحين بدا أنه ينتظر ان أقول شيئا ، ألقيت بهذا السؤال :

ـ لن تقول لي ان هذا هو ما استخلصته من علم الاقتصاد ؟

أثار سؤلي شهيته للامعان في بسط آرائه :

ـ الاقتصاد ، قالوا لنا ان الاقتصاد علم ، كذبة كبيرة هذه ، انه مجرد فرضيات لاكها أناس لم يديروا في حياتهم مزرعة صغيرة ، فرضيات لا غير ولا شيء مبتوت فيه ، انا أقول : ان التجربة هي المحك ، ولكل بلد ، لكل منطقة ظروف تختلف عن غيرها .

أتم عبارته ونهض بغتة وهو يقول :

ـ ... انت لا توافق ، أعرف هذا ، فلنملأ كأسينا ، وبعد أن ملأ الكأسين بنفسه ، وقبل ان يجلس ، انتبه الى ان كأس النقيب فارغ فأخذه وملأه . ولما جلس لفت انتباهي الى حالة النقيب :

ـ يغيب في عالمه ، فلنشرب كأسه .

ثم وجه الخطاب للنقيب وهو يهزه .

ـ كأسك يا عوني بك .

وبذل النقيب جهدا واهنا ليستعيد حضوره في مجلسنا :

ـ أنت الرأس .

وكان خليل بك ، فيما بدا لي ، قد استعاد المزاج الذي لقيني به :

ــ استاذك هذا ، الذي أردت مني أن أساعده ، لا يوافق ، يريد ان يخلق في البطيحة جيلا متعلما ، حتى يزرع شعرا وموسيقى محل البندورة ، وهو يخشاني ، يظنني غولا سألتهم أفكاره بدل السمك المشوي ، ولذا خاف ان يسكن في السرايا ، يرفض النعيم القائم من أجل الجنة الموعودة ، ومع ذلك لم يتورع عن السكن مع رقيبك الفاجر •

وكان النقيب يعبر لحظة صحو ، بينما تبسمت أنا ، قال :

ــ الرقيب جدعان يساعده ، جدعان يحب التعليم ، لو تعلمت لكنت الآن في رتبة زعيم •

وحاولت أن أعيد النقاش الى مجراه جاهدا لأبدو متماسكا بالرغم من الكؤوس التي شربتها :

ــ أنا أفهمك ، تقول ما قلته من موقعك ، وهو منطقي بالنسبة لك • أنت تملك هذا السهل الفسيح ، وسواء عمل الفلاحون بهمة أو برخاوة ، شبعوا أو لم يشبعوا •• لكنه قاطعني :

ــ اسمع ، ما اسمك ؟ لنترك الجدل ، ألا ترى أن القمر يملأ السهل فلنستمتع بهذه الطبيعة الساحرة ، انس من أنا بالنسبة لك ، واملأ روحك بالنقاوة •

وتشبثت بالمحاولة :

ـ شرحت آراءك ولا تريد ان تصغي الي ، ليس هذا عدلا ، فلا تهرب الى سحر الطبيعة •

فرد ، غير مستفز •

ـ أهرب منك ؟ لا تكن مغرورا يا بني •

وجاءنا صوت النقيب الذي استعاد عالمه :

ـ انا الذي هرب ، أسلمته لهم ، كان طيبا معي لكني أسلمته لهم ، مع الفجر قتلوه ، أطلقوا الرصاص وقتلوه • دفنوه بغير جنازة مثل كلب بعد ان كان ملء السمع والبصر ، يا ويلك يا عوني كان يأتمنك فخنته • وما الذي نابك ؟ نجمة ملعونة • وهذه المنطقة التي يعافها البعوض •

وعقب خليل بك :

ـ بدأ مواله ، هكذا كل مرة •• ينفس عن وجع ضميره •

ثم قام برما ، وفتح نافذة في الجدار الزجاجي تطل على السهل من جهة البحيرة ، وأطفأ اللوكس ، ودعاني وهو يدير ظهره :

ـ تعال واستمتع •

كان المشهد آخاذا بالفعل ، القمر يطل اطلالة مشرقة من فرجة زرقاء وسط غيمات داكنة • والغيمات واقفة بثبات كأنها ترفض ان تبرح مكانها • أو كأنها تنتظر اشارة لتسقط فوق هذه البقعة بالذات •

والسهل ، الذي تتموج فيه الانوار والظلال ، رصين وغامض ، ومن مجرى النهر تشع التماعة مائه الفضي ، أما وراءه فتنتصب سلسلة التلال التي لا تقل رصانة وغموضا عن السهل • والبحيرة المستكينة لهدأة الليل تتوشح بالاسرار • كان كل شيء هادئا ، وكأنه مخلد للراحة بانتظار قدوم الصباح الذي سيأذن باستئناف الحركة •

وبالرغم من أن سحر الطبيعة استحوذ على ، فان سوسة التفكير لم تبرح مخيلتي ، ماذا أنا بالنسبة لخليل بك ؟ معلم آخر يعبر ثم لا يلبث أن يبعده الملل وسوء الاحوال ، لماذا لا يجاملني حتى بمجرد الاستماع لرأيي ، كان في اطلالته على أملاكه قد نسيني تماما ، وعز علي أن أذكره بوجودي فانصرفت لكأسي ، جرعت ما فيه دفعة واحدة ، وكنت بحاجة لان املأه من جديد ، ولكني تهيبت ان أفعل هذا بنفسي ، وتملكني ضيق اختلط بتهويمة السكر ، وأحسست بالكأس الزجاجي ثقيلا في يدي ، وعن لي خاطر فأفلت الكأس متعمدا • وسمعت صوت اصطدامه بالارض ، وسعدت بهذا •

ـ لست متحجرا كما توهمت •

بهذا عقب خليل بك ، سمعت العبارة كأنها تأتي من مكان بعيد ، ثم هتف وهو يلتفت الي :

ـ •• اسمع ، لماذا لا نشرب حتى نسكر ، انس اشتراكيتك اللعينة

فتنسى اقطاعيتي • أحب أن أسكر ، وهذا البرميل الذي زينوه بثلاث نجوم امتلأ بوجع ضميره فهمد •

والحقيقة ان اقتراحه استهواني ، انا الآخر بحاجة للمضي بعيدا ، غير ان السوسة التي فيّ نبهتني لما تنطوي عليه عبارته ، وحثتني على المناكفة ، وشيء أشد من رغبتي في السكر ، برغم تأججها صاغ ردي :

ــ تريد أنيسا ، أنا لست لهذا الدور ، عندك عبيد كثيرون ولست واحدا منهم حتى تختار لي دوري •

فما كان منه الا ان لوح بيده بحركة مغتاظة ثم قال بعد لحظة صمت :

ــ ما أتيسك •

وأكمل بالفرنسية :

ــ ••• تمنعك الايديولوجيا من السكر مع اقطاعي ، لجهنم كل الايديولوجيات •

وضحك بعدها ، ثم راح يدندن بنغم لا أعرفه ، فيما رحت أبحث عن رد مناسب ولا أهتدي اليه فينفيني احساسي بالعجز ويشتت ذهني • وبعد قليل ، قطع دندنته وتكلم بحزم :

ــ ستشرب ، وتسكر •

وكان هذا بالضبط هو ما أنا بحاجة اليه في تلك اللحظة • لقد

غلبني • وحين اتجه لمائدة الشراب سبقته اليها ، وملأت كأسين طافحين ، وتفقد خليل بك اناء الثلج فوجده ذائبا فلم ينزعج ، بل رفع كأسه وغب جرعة كبيرة اتبعها بأخرى للتو ، وأومأ لي كي أجاريه ، فأخذت جرعتي ووقفت ازاءه بهيئة من يقول : ها أنت ترى ! فهتف بالفرنسية :

ـ قل شيئا مفرحا •

تلك اللحظة ، كنت على الحدود بين الواقع والوهم ، وتهيأ لي على نحو يستحيل وصفه اني كنت أتوقع أن يقول شيئا بعينه قبل أن يتفوه به ، وان ما قاله هو هذا الشيء وما يغايره في الوقت نفسه ، كان اليقين يعوزني • وخطفت كأسي وتجرعته دفعة واحدة ، وقلت من غير أن يقترن القول في ذهني بعبارته الاخيرة :

ـ كيف تجد الفرح وسط بؤس الناس من حولك ؟

عبارة لم أفكر بها قبل أن يطلقها لساني ، لكن حين سمعتها طربت لها وغبطت نفسي وغمرتني دفقة من الاحساس بالتطهر ، وغبت عن الموقف الواقعي الذي كنت على حافته • وعلى نحو غامض شعرت أن لساني كان مربوطا فانفك رباطه ، وأطلقت له العنان •

لست أذكر ما الذي قلته ، وما الذي فاض من آرائي وأنا على هذه الحالة ، شيء واحد أتذكره بجلاء هو أن احساسي ، كان شبيها باحساس من يفرغ من جوفه وجبة ثقيلة أتعبته فعزم على أن يتحرر من ثقلها •

وحين تنبهت لحالي ، وجدت خليل بك يقف مهتاجا ، وهو يزعق ، وأبا حسان مقبلا من ناحية السلم يجرجر رجله العرجاء مثل مخلوق وهمي ينبثق من الظلام ، وكان خليل بك يصيح : « خذ هذا الكلب ، لا أريد أن أرى وجهه » ويكرر : « خذه ، خذه » ، ثم غادر الحجرة بعد أن قال لوكيله شيئا وهو يشير الى النقيب وكان النقيب مفتوح العينين ومجللا بالبلاهة .

ولا بد اني استعدت صحوي منذ تلك اللحظة ، فأنا أذكر تفاصيل ما جرى بعدها ، تقدم أبو حسان نحو النقيب بوجه لا تحمل تعابيره غير الصرامة . وكان هذا قد عاد لغيبوبته ، فهزه الوكيل محاولا ايقاظه ، غير ان اعتصام النقيب بعالمه كان أمنع من أن يخرجه شيء منه ، فجاء أبو حسان بماء الثلج الذائب ومسح الوجه المضرج ، وحين أظهر الرجل السكران ما يشير الى أن البرودة لسعته ، سأله أبو حسان : « عندك حيل » ؟ ولم ينتظر ردا ، بل شاله مسندا اياه على كتفه وجعله يسير وهو على هذا الوضع ، ثم وجه لي السؤال ذاته ، فقلت :

ـ لا تقلق أقدر أن أمشي وحدي .

ـ الحقني .

وبالغت في التدليل على صمودي ، يؤرقني الخوف من أن أبدو ضعيفا أمام هذا الرجل الذي لا يفصح وجهه عن حقيقة مشاعره ،

وجهدت لابقاء خطواتي متوازنة ، واقتربت من الوكيل وهو يجرجر حمله وفي نيتي أن أساعده •

ـ أتركه لي ، والحقني •

وفي اللحظة التي نطق فيها ابو حسان بعبارته ، تعثرت باول درجات السلم ، فوقعت لاجد نفسي مسددا على بطني عنـد منعطفه • كـان احساسي بالمهانة طاغيا ، وتوقعت ان يقرعني ابو حسان لكنه لم يفعل • بل انه خف لمساعدتي ، اجلس النقيب المرتخي بجانبي واخذ يتحسسني ، ثم قلبني واجلسني انا الآخر جلسة مريحة • كنت مستكينا استكانـة مشلول لحركات امه • وقبل ان يتركني اكد :

ـ ابق هنا حتى اعود اليك ، فاهم

فلم ارد • وضعت رأسي فوق ركبتي وسكنت وانا افكر بحالي • وعندما عاد ابو حسان ، هزني ، وحاول ان يرفعني كما فعل بالنقيب ، لكني نهضت من تلقاء نفسي بحركة ناشطة اردت بها ان أؤكد صحوي ، وشرعت انزل الدرجات واحدة واحدة رافضا مساعدته • اما هـو فسبقني ونزل مجانبا وهو ينظر الي مستعدا للتدخل اذا اقتضى الامر • وادركت كم يتعبه هذا الوضع اذ يضطره لاسناد ثقل جسمه على رجله العرجاء ، وحاولت ان اسبقه كي اجنبه المشقة ، واندفعت بحركة عجلى وهذا ماجعله يظن اني على وشك السقوط • ولذا تصدى لي ليتلقاني بذراعيه • ولم تحتمل رجله العرجاء الصدمة فكاد يسقط لولا انـه

تدارك الامر واستند بظهره ، فورا ، الى الحائط ، متيحا لي الفرصة ، على الرغم ومنه ، كي اصير امامه • وسمعته يزعق بنبرة راجفة :

ــ انتظر ، لاتؤذ نفسك يابني

ان طيبته التي لم اتوقعها ، دغدغت احساسي المرهف في تلك اللحظة فتجمدت حركتي • ولعله فسر جمودي على انه امتثال لطلبه • فتحرك نشطا ليسبقني من جديد وينزل الدرجات بطريقته السابقة • ولم اجد بدا من ان اتبعه مترويا الى ان انتهينا الى البهو • وهناك لم يعد بمقدوره ان يسبقني • كنت اهرب من قيد الطيبة الذي يأسرني ، اهرب من هذا الجو كله • وانشد الهواء الطلق •

على صفحة الباحة ، كان ضوء القمر يتماوج مع الظلال على نحو من شأنه ان يسلمني لشتى الاوهام وقد جاهدت لاحتفظ بحضور الواقع ، واسعفني الهواء الذي لامستني برودته المنعشة وعزز حاجتي الى الانطلاق بعيدا عن هذا المكان • ورحت اجري نحو البوابة غير آبه لشيء ، ومن ورائي لاحقني صوت الوكيل :

ــ يااهبل ، ماهذا الذي تفعله ، انتظر حتى نوصلك لكني واصلت الجري الى ان اوقفتني الجمرات المتقدة في عيون كلاب الحراسة وقد تحفزت وهي تنتظر اشارة الحارس • ولست ادري لماذا احسست مرة اخرى اني ازاء وهم من اوهام تلك الليلة • اما كيف انفلت من الوهم

ومن البوابة فهذا مالا اتذكره البتة • كل مااتذكره اني افقت فوجدتني امام الخلاء الفسيح بتعرجات النور والظلال على امتداده ، وانا اغب انفاسا عميقة فيها لمسة البرودة وشميم الارض والبحيرة والغيم • وكنت خالي الذهن من اية فكرة عن خطوتي التالية • كأنما انشق السكون عن مخبوءاته ، دهمني ضجيج النباح الذي اطلقته الكلاب • وتنبهت لخطوات قادمة باتجاه السرايا ، كانوا نفرا من الجنود تحيط بهم ثرثرتهم التي لا اتبين عباراتها • وبنبرة تخلو من المودة ، سألني أحدهم :

ـ اين حضرة النقيب ؟

ثم تبدلت النبرة حين تعرفوا علي :

ـ طلبوا منا ان نجيء لاخذه ، كنت معه ؟

ـ نقيبكم في الداخل ، اذهبوا اليه

وكان ابو حسان قد ادركني ، كليلا لاهثا • ومن غير ان يقول شيئا اشار للجنود كي يدخلوا ، وهدأ الكلاب المهتاجة ، ثم وضع يده على كتفي بحركة ودود •

ـ تقدر أن تبيت هنا ، عندي في الحجرة •• أنت تعبان •

لفظ العبارة الاخيرة بصيغة من يقول : وانا ايضا فلا تزد في تعبي • ولكني في هذه اللحظة بالذات تذكرت جدعان وشعرت بشوق طاغ له •

ـ انا بخير ، فاطمئن •

وانفرجت شفتاه كانما اراد ان يقول شيئا ، ثم احجم •

نظر ناحية الجنود الذين عبروا البوابة ، واخيرا انطلق ، بعرجه ، اليهم • وانفلت اتلمس طريقي •

— ١١ —

اول مااحسست به ، وانا اعبر اللحظات الغامضة بين النوم واليقظة، هو الدفء الذي يلفني . وكان حفيف مؤنس يتغلغل في ويمتزج بدفء الفراش فيشيع في نفسي هناءة هادئة ، ويسنحني المزيج لذائذ ، يصعب وصفها ، خيل الي للحظات اني ارقد في منزلنا في دمشق واستقبل اول الايام الماطرة ، ثم تنبهت شيئا فشيئا الى ان ماسمعه هو بالفعل صوت المطر ، وكان صحوي قد اكتمل ، وادركت اين انا وان جدعان اضاف غطاءه الى غطائي قبل ان ينصرف . وتذكرت اوبتي امس مشوقـا لرؤيته ومحادثته وخيبة املي حين اكتشفت انه لم يرجع بعد ، وكيف تسددت وفي نيتي ان اغالب سهادي . والواضح انه عاد بعد ان غرقت في النوم ولا بد انهفهم حالتي،فتركني وشأني في الليل وفي الصباح ايضاً .

هممت بالنهوض فشدتني لذة الدفء . وغطيت وجهي محاولا ان اغفو من جديد ، لكن صوت المطر كان ينازع استكانتي للراحة ، لم اكن قد رأيت المطر في هذه الناحية ولان هطوله يقترن في ذهني ببرد دمشق فقد استقر في ظني انها لا تمطر في هذا الغور الدافيء ، حتى لقد

بدا لي مطر ذلك اليوم مفاجأة • واخيرا ، انهضني التوق لمشاهدته ، وحملني الى الباب ، كأن السماء كانت مطلية بذوب الرصاص ، والقتام يشمل الافق ، وكأن الارض اتصلت بالسماء واختلطت الحدود بينهما

ووحدتهما روح مشتركة ، استحوذ علي المشهد حتى يمكنني القول اني صرت جزءا منه • كان الفضاء الذي يمتد امام الدار خاليا ، توارى الناس وفرغت الطبيعة لشأنها • وفكرت : لن يمر احد تحت هـــذا الفيض •

لكن ، فيما انا مسترسل مع افكاري ، لمحت امرأة تقبل من بعيد ، تشيل جرة على رأسها ، وتقتحم الوحل الذي يعيق حركتها ويموجها • ولما دنت ، عرفت انها عائشة فقرصني خاطر ذكرني بام رجا ، وانسابت صورتها في ذهني ، كما احبهـا ، بهيئة ملكة الطوارق ، انتظرت ان تحييني عائشة الا انها تسربلت بحيائها المستحكم ومرت امام الدار دون ان تلتفت وخشيت ان تفوت الفرصة ، فهتفت « هل انتم هناك » ؟ ولم اتبين سخف عبارتي الا بعد ان تفوهت بها ، واعتقدت أن عائشة لن تفهم صياغة كهذه ، لكن الصبية ، لدهشتي ، اجابت من غير ان تتوقف او تلتفت : « كلهم هناك ، كانوا يتكلمون عنك » ، وكان في ردهـا تشجيع كاف لي كي اخف لزيارتهم •

تراجع احساسي بجلال الطبيعة ، لافكر بمشقة السير وسط الوحل

الذي يسلأ الدرب ، وبينما رحت أبحث عن حذائي ، تعثرت ببسطار عسكري موضوع بطريقة تؤكد ان جدعان تركه خصيصا كي استخدمه حين اخرج . هذه اللفتة التي ابهجتني وحسنت مزاجي ، نبهتني لشيء اخر ، اذ ان جدعان ترك مع البسطار معطفا واقيا من المطر من النوع الذي يستخدمه العسكر . وتشجعت ، فاخترت من صندوق ملابسه سلكا وعقالا . وحين خرجت ، لم يعد في الامر ، بعد ، اية متعة ، فالسير في الوحل ببسطار واسع المقاس لايترك فسحة للاستمتاع بأي

شيء ، وصوت المطر حين تصطدم حباته بقماش المعطف السميك ، يختلف عن ذلك الحفيف المؤنس ، ثم لم يلبث ان ابتل السلك وسال بليله فوق وجهي ورقبتي وتسلل الى ظهري ، وكنت ، الى هذا ، اخوض في البرك الصغيرة وكتل الوحل ، فما ان واجهتني دكان ابي جمعة حتى ولجتها باحساس التائه الذي يقع على محطة استراحة .

كان ابو جمعة متكوما فوق صندوق فارغ ، وامامه اناء تتقد فيه حطبات اتى اللهب على معظمها ، وشع جمرها بسطوع وسط عتمة الدكان . ولم يتحرك فدخلت ، فادركت انه لم يتعرف علي بهذا الزي ، وقد عرفني ، فقط ، حين بادرته بالتحية ، وكانت مفاجأته كاملة ، كشفها ترحيبه المرتبك وتأمله المدهوش لي ، وبعد ان مرت المفاجأة ، هيأ ابو جمعة صندوقا جلست عليه ، ثم اخذ يلومني بمودة لاني اخرج في طقس كهذا تستكين فيه حتى السباع ، كان يظن اني جئت لحاجة من

الدكان ، بينما كان من شأني ، كما قال ، ان انخي اي ولد او امرأة من الجوار ليحضر لي مااحتاجه •

وامام حرارة حرصه على راحتي ، لم يبق لي مجال لافصح عـن السبب الذي اخرجني في ساعة كهذه تصب فيها السماء غضبها ، كما وصف المطر • قلت له ، ان الملل ابعدني عن البيت فجئت اليه • وهكذا ، فهم ابو جمعة اني حين احتجت لانيس جئت اليه من دون خلق الله كلهم ، ففاض شعوره بالامتنان واحتار في التعبير عنه • ولم يلبث ان علا الابريق منصبا وضع فوق الحجرات ، وصار علي ان اوطد النفس للبقاء معه حتى يعد الشاي • وبدا جليا ان ابا جمعة يوطد نفسه ، هو الاخر ، لقعدة طويلة ، فقد اتم العدة لتحضير المنقوع الدافيء ، ثم عاد لمجلسه فوق الصندوق ، وقرب وجهه الكامد من وجهي ، وتأملني بعينيه الصغيرتين اللتين تنعكس فيهما التماعة الجمرات ، معلنا ، بهذا ، استعداده لحديث ممتد يسلي به الزائر الذي مل وحدته •

قلت ، بأمل ان اصرفه عن تأملي :

ــ لماذا لاتبقى في البيت مادام الزبائن لايأتون ؟

وظن ابو جمعة أني الومه ، فرد وفي صوته نبرة عتاب :

ــ من قال لك هذا الحكي • في وقت كهذا يأتي الناس لحاجة لابد منها ، وعمك ابو جمعة في خدمة الطيبين ، مع البرد كأس الشاي يساوي ثقله ذهبا ، ماذا يفعل الواحد اذا لم يجد عنده سكرا ؟

وابتسم اذ بدا له انه افحمني ، فجاريته :

ــ هذه فاتتني ، معك حق .

وشاء أن يدلل على رأيه بمثال ، غير مدرك مغزى قوله بالنسبة لي :

ــ بنتي عائشة مرت قبل قليل ، ماعندهم سكر ، قالت انك قد تزورهم ، هل تحب ان تدخل عليهم فلا يجدون مايسقونك اياه ؟

اربكني قوله بأكثر مما توقعت أنا نفسي ، كنت افكر : هذه الصبية ليست غبية ولعلها تحزر شيئا .

ــ ... لاتزعل اخذت سكرا يكفيك لو شربت برميلا .

فقلت :

ــ في الحقيقة ...

لكنه قاطعني

ــ الحقيقة وغير الحقيقة

لفظ القاف بلهجتي الدمشقية مقلدا اياي بمرح

ــ عمك ابو جمعة لا يسهو عن حاجات الناس ، شفت ؟ فأجبته ، جاهدا ان اخرج من ارتباكي .

ــ فيك البركة .

اعتدل في جلسته وقد ظفر باقناعي ، وابتسم ابتسامة كشفت بياض اسنانه واظهرت سمنة الخدين اللذين تكور لحمهما ، ثم سألني متخابثا :

ـ قل لي : ماذا عملت البارحة في السرايا ؟

دهمني سؤاله ، ليس لدهشتي من ان يكون قد عرف الانباء بهذه السرعة ، ولكن لاني لم افكر بالامر منذ صحوت .

ـ كنت اسكر مع خليل بك ، وحدث ما حدث .

اطرق ابو جمعة هنيهة ثم رفع رأسه وعلى وجهه تعبير متعاطف :

ـ الله يخزي الشيطان . البك فيه هذه الخصلة . لابد انه اكرمك. كنت تخشاه حتى جعلتني اظن ان بينك وبينه شيئا ، فلما عرفت انك سهرت عنده قلت : فرجها الله .

ما كان ابو جمعة ، اذا ، يعرف اني اهنت ، ولامر ما أغاظني هذا ، وتابع هو بينما اخذ غيظي يتأجج .

ـ موظف مثلك ، له مقامه ،لن ينفعك في هذه الديرة غيره . ومكانك بلا مؤاخذة ، ليس بيوت الفلاحين ، كبر الرأس لاينفع مع امثاله ، مال ، وجاه .. حكومة بحالها يابني .

واراد ان يهمس لي بشيء مع اننا كنا وحدنا ، فادنى وجهه مني لكني استبقته :

ـ الرجل الطيب هذا طردني من بيته .

ـ بالله عليك ؟

كانت هذه العبارة هي التي عبر بها عن مفاجأته بالاعتراف الذي انفجر به غيظي ، اما حركاته فافصحت عما هو اكثر من المفاجأة ، اخذ يردد العبارة وهو يقف ، ثم يجلس فاردا رجليه ، ثم يقف ويعود ليجلس ورجلاه مضمومتان ••• هكذا بغير استقرار ، وكان ذهني يعمل: مامن احد انبأ الفلاحين بما حدث ، ومن الذي سينبئهم ، خليل بك لايحتك بالفلاحين ، والنقيب كان ثملا لم يع شيئا ، واذا فقد صمت الوكيل ، فلماذا يصمت ؟ تذكرت حركة ابي حسان الحادبة وهو يتحسسني عندما سقطت ، هل يتعاطف معي لاننا بلديات كما يقول ، ام ان غضبة سيده علي نزوة الف الوكيل تكرارها • والان ، ها انا اتطوع باذاعة النبأ اذ اسلمه للدكنجي في لحظة حنق ، ثم ، أي ضير في ان يشيع النبأ •

ـ بالله عليك ، قل انك تمزح •

صمت ، ويبدوا ان ابا جمعة تهيب ازاء صمتي فتشاغل بغسل الكؤوس ، بينما رحت ارقب خيط البخار المنطلق من فوهة الابريق •

ـ لاتوجع رأسك

ولاني لم اجد مأأرد به مددت يدي اداعب غطاء الابريق متجنبا النظر الى جليسي •

ـ ••• سيغلي بعد قليل

قال هذا ، ثم صمت ثانية ، والواضح ان سهومي اقنعه بصـــدق الحكاية • وامتد الصمت بيننا الى ان وجدتني اقول له :

ــ لاتخرب الدنيا لان خليل بك زعلان •

وبمعاودتي الحديث ، انفتحت جعبة فضوله :

ــ انت الذي زعله ، ام زعل من شيء لم تقصده ؟

كان ، ربما من حيث لايدري ، يبحث عن شيء يبرئني من تهمــة تحدي السيد المقتدر •

ــ لعنت اباه ، واجداده كلهم •

وندمت لهذه العبارة ، لكن الرغبة في تأكيد جدارتي تلبستني :

ــ يستحق اللعنة

واطلق ابو جمعة تنهيدة حارة ، فسألته :

ــ يؤذيك كلامي ؟

فلم يجب ، تفقد الابريق الذي يندفع من انبوبة تيار بخار صافر ، ويؤذن بقرب غليانه ، ورفع الغطاء ووضع حفنة من الشاي ، ثم سألني:

ــ تغديت ؟

نبهني سؤاله الى اني لااعرف كم الساعة ، وتفقدت ساعتي فوجدتها متوقفة ، فاستعلمت عن الوقت •

ـ لابد انها العصر ، من يعرف في هذا القتام ، تصب السماء سخطها على الخلق فلا تعرف الليل من النهار

كان يبتعد عن الموضوع الذي يبلبله ويصب سخطه على شيء اخر • فلما قلت اني اعرف ان المطر خير على الفلاحين ، اعترض :

ـ من قال لك ؟ عندنا ، من خير الله ، لاينقص الماء ، نهر ووديان وغدران لاتنضب ، صيف شتاء ، تروي الزرع والضرع وتزيد ،فيذهب الماء الى اليهود هناك • نزرع مواسم مبكرة فالغور دافيء ورزقه يذهب للسوق قبل الموسم فوق ، وحين يكثر المطر يغرق الوحل الشتول الصغيرة •

ـ ما كنت اعرف هذا •

ـ ما الذي تعرفه عن بلدنا ؟ انت ، بلا صغرة ، قادم من المدينة ، متهندم ومتعلم ولك معاش مضمون ، تضع السلك ، فتظن انك صرت تعرف مصالح الفلاحين وتريد ان تشيل الزير من البير ، وفي بالك انك ستبدل نظام الكون ، اما نحن المبليين بما نحن فيه ، فسلمنا امرنا لرب الكون يديره كما يشاء •

اخذتني رنة الاسى في صوته ، وكان في تقريعه لي عتاب اليائس وليس المستنكر • ورحت اتأمله ، كانت تعابير غامضة تتموج على صفحة وجهه الداكن ، بينما اخذت اصابعه تعبث بالكاس الفارغ وعيناه تنظران الى الارض • وقلت ، ولم اعد ، بعد ، راغبا في مسايرته :

ـ كل منا له رأيه

وادركت انه ، على الاغلب ، لن يفهم مغزى عبارتي ، فاتبعتها باخرى :

ـ ... لن ادع خليل بك يذلني

وكأنما كان في انتظار اية اشارة ليبدأ حديثا يتردد في الافضاء به . تململ وهو يعالج ابريق الشاي الذي فار نشر رائحته المنعشة ، ثم انفتح :

ـ علي الطلاق ، لو لم احبك لما نصحتك . قلت لك كلاما مفهوما ، ليس مثل حكيك الذي يعبر المخ ولا يبقى فيه ، لاتعاند البك . انت ، لاتزعل مني ، لست قده . انت وانا والكل ، حكومة ، اقول لك ، افهم ، حكومة ، من يعاند الحكومة ؟ اسمع ما يقوله ابو جمعة وحطه في راسك . انت ، بلا مؤاخذة لست ولدا طائشا حتى تقع فيها

فقلت مقاطعا :

ـ طوعكم خليل بك ، اما انا ...

ـ كلام تظن انك الوحيد الذي له هذه الراس اذا كان رئيس الجمهورية يسأل خاطر البك ، فماذا تقدر انت ان تعمل معه .

وهتفت متحذلقا مرة اخرى على غير ارادة مني :

ـ تخافون خليل بك ، هذا هو الموضوع

هذه العبارة اثرت فيه باشد مما توقعت • طافت بوجهه التعبيرات الغامضة من جديد ، واكتسى بابتسامة اوقع منها البكاء ، وانزرعت عيناه ثانية في الارض • كان امامي انسان يكتنز اكداسا من الهموم وراء المظهر البليد واللحم المتكوم ، وهو ما اكتشفته وانا اصغي الى حكايته الطويلة :

ـــ انت مغرور • لا تزعل مني ؟ فأنا في مقام والدك • كنت مثلك وانا شاب • اسأل عني ، عدني الناس افرس خيال في البلد ، بل في الديرة كلها • وغرني الكلام فصرت اتيه به ، انتظر الاعياد والافراح عندما يلتقي خيالة الحمايل في الطراد لاختال بفتوتي • كانت تحتي فرس لونها صاف مثل لون البحيرة عز الصيف ، اسأل عنها الفلاحين من جيلي ، اسمها عزيزة ، فرس محراقة لا يقف في وجهها سهل أو وعر ولا يثبت على ظهرها خيال غيري ، اركبها فتطير مطواعة مثل امرأة وتهدأ حين اريد • ولك أن تسأل ، لم يسبقني خيال ولو مرة واحدة ، امـا في اللعب فهيهات ، كنت اخطف الليرة عن الارض وانا اطارد بعزيزة ، لم يفعلها احد غيري ، لا من جيلي ولا من بعدي • كان حسادي يزيدون بعد كل سباق ، لكن الله نجاني لان امي التي خافت اعطت للشيخ راغب الحمود خمسة ديوك فعمل لي حجابا لا يخيب حامله ، كتبه الشيخ بلغة الجان ونقعه سبعة ايام بلياليها في النبع الذي يخرج من مغارتهم على كتف « المطلة » قبل ان يأخذها اليهود • ولم اقع مرة واحدة • وكان

خليل بك شابا من جيلي لكنه اعرض واطول ، وعنده حصان اذكــره لليوم ، اصيل ، يجري فيخرج الشرر من تحت حوافره . كان خليــل بك ايامها لا يسكن هنا ، يجيء الى البطيحة يوما او يومين ليزور اباه ، وكانوا يقولون انه تدرب على ركوب الخيل في المدينة وانه يعــرف فنونا لا يعرفها الفلاحون . وفي يوم ، كان خليل بك هنا ، وعندنا عرس ، ولما علموا ان البك الصغير سيدخل الطراد ، قالوا : جاء يومك ياحسن الجمعة ، هذا الولد سيغلبك ، حكيهم طير صوابي ، وحلفت يومهــا بيني وبين نفسي ان ارحل عن الديرة اذا غلبني ابن المدينة هذا . وقلت لهم : انا ابن البر وهو ابن النعيم والميدان بيننا ، وصل حكيي له وعرفت انه استهونني فطار صوابي اكثر ، ركبت عزيزة قبل ان يبدأ الطراد ، ودرت بها مشوارا ، اخذتها للغدير وغسلتها وكلمتها ، كانت تفهــم علي . قلت ياعزيزة انا لها ، وانت لا تسودين وجهي ، ففهمت . تجمع الناس للطراد مع الضحى كلهم اشتركوا فيه ، الذي يسوى والذي لا يسوى ، جاؤا بالاصايل وبالكدش ، كانوا متحمسين ويريدون ان يحموها بيننا ، وعلت النخوات وصحيت الرؤوس ، شاشت معي فوقفت على ظهر عزيزة وصحت : انا لها وهتفت بنخوة حمولتنا : ونحن اخوان عايشه ، وتحمس ابناء الحمولة وهتفوا : يا عونك . اما البك فليس له في الديرة حمولة وهو لا ينتخي مثلنا ولم ينتخ له احد . كان يتمايل على حصانه ويلوح بكرباجه ، وعلى عينيه مسخوطة مثل التي على عينيك ، بلا مؤاخذة ، لكن اكبر ، دفعني الغرور فاقتربت منه وباريته وانــا

انتخي وقلت له : ارفع المسخوطة وحط عينك في عيني ، اليوم ، اما انا واما انت ، كشر لحظة ثم ابتسم ، واشار الي بمقبض كرباجه وهو يقول: انت ؟ ثم رماني بكلمة لم افهمها ولم استرح لها فهتفت : خلنا نبدأ ونر ودعا هو الخيالة فاصطفوا وانطلقنا ، ماذا اقول لك ؟

قلت انا ، مأخوذا بالحكاية وبحرارة نبرته وهو يرويها :

ــ سبقته بالطبع •

فابتلع ريقه :

ــ لحظة بدأنا لسعني جنبي ، كنت نسيت ان احمل الحجاب ، ومع ذلك ، اسأل كل واحد هنا ، سبقته وبقيت قدامه الى ان تعثرت عزيزة ، حجر صغير ، اصغر من حبة المشمش ، علق في حدوة يدها فتعثــرت المسكينة ، وما رضيت ان تقف ، فظلت تجري والحجر يعيقها ، الى ان وقعت جاء رأسها تحتها وثقلها على الرقبة فطقت الرقبة ، احلف لك اني سمعت صوت الطقة فكأن رقبتي هي التي انكسرت • ماتت عزيــزة وعينها في عيني ، رأيت فيها الدموع وهي تموت ، رأيت دموعها ، احلف لك ، الحبة اكبر من الحمصة ، بعيني رأيت هذه الدموع وبكيت مثل ولد صغير ، خبطت رأسي بيدي وعفرته في التراب ، وفار الدم في رأسي فصار احمى من قرعة مسلوقة ، ورميت نفسي على الارض ، لكن مــا الفائــدة ؟ تجمــع الخيالة حولي ، تركــوا الطراد والتموا ، ابنــاء حمولتنا وابناء الحمايل الاخرى حتى الذين لا يحبوننا ، كلهم واسوني

ولم أر في عيونهم شماتة • قلت لهم وانا ابكي : كملوا الطراد فقالوا : بعد عزيزة لا طراد • الصدق ، تواسيت بعطفهم علي • اما خليل بك فظل يجري حتى انتبه الى انه وحيد في السهل فرجع ليستفهم . قالوا له : حسن الجمعة هو الذي ربح ، ولو لم تقع عزيزة ما سبقه احـــد فعبس في وجوههم ولم يقل شيئا ، كان وجهه ينز سما ، ونظر الي نظرة شر ، ثم لكز حصانه فغط به من وسط الجميع ، وعاد الى السرايا •

كان فيض الذكرى الاليمة يغمرني :

ــ لا بد انه حقد عليك ؟

تنهد ابو جمعة ، وقال وهو مايزال اسير حزنه :

ــ علي وحدي ؟ كانت تهون •

ثم انزل رجليه اللتين يطويهما تحته وملأ الكاسين بالشراب الـــذي صار اسود تماما وقال :

ــ •• اشرب ، الآن صار شايا يجلو الرأس •

وبعدها نهض واتى بحطبات جديدة ، وانشغل بتأجيج النار • كان ، وهو ينحني ، كتلة من الهم صنعتها عشرات السنين • وبرغم احترامي لصسته ازاء ذكرى تؤلمه هتفت :

ــ احك لي ماذا جرى بعدها ؟

فظل ينفخ حتى اتقدت الشعلة باللهب ، وعلت ، موزعة شررهـا المتطاير • ثم عاد لمقعده فوق الصندوق ونظر الي :

ـ حكيت الذي حكيته حتى تعرف البقية • فاتني ان اقول لك ان عزيزة كانت ملك والدي ، وكان له فيها شريك من اقربائنا الابعدين • كانت لعزيزة مهرة هي اول خلفها ، عمرها سنة والمهرة عند الشريك لانها حصته • ولما ماتت عزيزة جاء لدارنا وحلف ان تكون المهرة لي حلالا زلالا على ان ينال عوضه من خلفتها • كانت المهرة ، سبحان الخالق ، مثل امها ، اللون والشكل والهمة ، وسميتها عزيزة وانا الذي ما كنت اسأل عنها قبل موت امها ، احببتها مثل اخت ، روضتها وحلفت ان لا ادخل بها في سبق • كنت اطارد بها وحدي ، ويرانا الناس فيقولون : وجد حسن الجمعة العوض • كانوا يلحون علي كي اعود الى الميدان وانا لا اقبل • وجاء يوم رآني فيه خليل بك وانا على ظهر عزيزة فحط عينه عليها وارادها لنفسه • ارسل لابي من يساومه على شرائها ، وتهرب الوالد لانه يعرف معزتها عندي ، وقال انها لشريكنا ، فذهبوا الى الشريك الذي اخبرهم انه اعطاها لي ، ظنوا ان في الامر ملعوبا فهددوني فما قبلت ، وقلت لهم : عند البك خيل كثيرة وليس لي غير هذه المهرة ، وجاءني ابو حسان ، كان يومها شابا ويا ارض اشتدي ما عليك قدي ، وقال : ان لم تعطها بخاطرك سنأخذها غصبا عنك ، فترجيته ، فما رق قلبه . فثرت في وجهه ولعنت اباه . ولم يكذبوا خبرا ، جاؤا واخذوني

الى البك الكبير ، كان ، كيف اقول لك ، رجلا له هيبة ، لا يحب الظلم لكن قلبه قاس ، ادخلوني عليه ، اذكر تلك الساعة ، نظر الي وتأملني وانا اتردد بين النظر اليه ووضع رأسي في الارض ثم سأل : كم يطلب هذا ثمنا لمهرته ؟ وكان والد ابي حسان هذا ، وهو وكيل البك الكبير ، هو الذي رد وانا صامت : يرفض ان يبيعها ، وتقدم البك الكبيربمهابته نحوي وقال : اسمع يا ولد ، خليل يريد المهرة ، لا أعرف لماذا يريدها ، وانا لا اعرفها ، اعرض عليك ان تطلب الثمن الذي تبغيه وسوف ندفعه لك ، فلما سكت ، غضب وقال محتدا اسمع نحن لا نأخذها سرقة ، نريد شراءها بالحلال فلا تكن طماعا ، واذا كنت بحاجة لدابة غيرها خذ اية واحدة من اسطبلي وسأدفع لك فوقها مثلما تريد . اقول لك الحق ، لم اجرؤ على ان اقول : لا كنت خائفا من حنقه ، لكني ركعت امامــه ابكي واصرخ:خذوا روحي ولا تأخذوها، الله يخليك يا بك انت لا تحب الظلم ، لكن ، بدل ان يرق قلبه انتفض ونهرني : ياخرع تبكي مثــل النسوان اشتري منك المهرة بحر مالي فتقول اني ظالم لفلاح طماع . ثم هتف في رجاله : اخرجوه قبل ان اكسر اضلاعه وعلموه كيف يكون رجلا . فاخرجوني ، وظننت ان الامر انتهى ، غير انهم جاؤا بوالدي وشريكه واجبروهما على قبض ثمن المهرة ، ولكني لم امكنهم منها ، ركبتها وطرت بها خارج البطيحة لا اعرف الى اين ، حتى حطتني الطريق عند شيخ حمولة يعرفه والدي واطنبت عليه امام الناس فقبلني . ولما اختلى بي وعرف الحكاية نصحني بان ارد المهرة والا عدوني سارقا .

وهو لا يقدر ان يؤوى لصا وليس له حول على البك • وركبني العناد فلم اقبل • ابقاني الرجل اياما في داره وهو يظن اني سأغير رأيي بعد ان يروق دمي ووصل الخبر للبك ، فجاء ابن حسان يفاوض طنيبي • وعز على الرجل ان يسلمني ، وحين عرفت بزيارة الوكيل كمنت له على طريق العودة وبوغت بي فوقع وانكسرت رجله •• مالك بالطويل ، جاء البوليس الفرنساوي وحطوني في السجن في « فيق » واخذوا المهرة لخليل بك • دخل والدي على البك الكبير وادخل عليه وجوه الحمايل وترجوه ، فقبل ان يخرجني من السجن شرط الا اقيم في البطيحة والا اجيء اليها وهو حي ولأنه ، كما قلت ، كان عادلا ، ارسل لي عشرين ليرة زيادة على الثمن الذي دفعه للمهرة ، وارسل والدي والشريك ما قبضوه وقالوا لي : دبر حالك ، حرت ، ماذا اعمل ، وهداني الله فصرت اشتري البيض من الفلاحين وابيعه على الطريق • ايامها كانت الطريق الى فلسطين عامرة ، وتحسنت احوالي فاشتريت دابة وصرت احملها البضائع واتجول بين البلاد ، ابيت حيث امسي لا دار لي • امضيت على هذه الحال اثنتي عشر سنة ، عندي مال لكني مثل الكلب المطرود ، ازور اهلي سرقة في الليل وانصرف قبل الضوء • لكني ، كيف اقول لك ، تعلمت من عيشتي هذه ان ادبر نفسي • ولما مات البك الكبير قلت : ياحسن جاءت رح واستعطف خليل بك • اتيت مساء العزاء جلبت خاروفا ودخلت معزيا مثل الاخرين ، وحين رأيت البك قبلت

يديه ، وقلت : يابك ، كان ابوك عادلا فكن انت اعدل ، والله سبحانه وتعالى يقبل التوبة ، فاقبل انت توبتي ، وترددت على العزاء في اليوم الثاني ، والثالث ، ولم يطردني ، وبعد ايام العزاء بعث ورائي فرحت وقلت : انا في خدمتك ، الذي تريده يصير • وفتح الله قلبه فرضي عني ، وفتحت هذه الدكان ، وتزوجت المرأة الاولى التي ماتت قبل ان اتزوج اخت رجا •

قص ابو جمعة الحكاية لأتعظ بخاتمتها ، لكن الذكرى التي تأججت اسلسته لمشاعر شتى ، ولذا خرج صوته باهتا وهو يدلي بنصيحته :

ـ انت ترى ، لا تعرض نفسك للمهانة والبلاء •

لم ارد ، كنت متأثرا بالحكاية • وتشاغل هو محاولا ان يملأ الكاسين من جديد • وحين وجد ان الشراب نضب قام ليملأ الابريق بالماء • الا اني افهمته اني لن أشرب بعد ، ورجوته الا يتعب نفسه لاني ذاهب •

- ١٢ -

حديث أبي جمعة ، استسلامه الذي انهى تمرده ، جعلني اغوض في كآبة لصقت بي كأني وقعت في سائل دبق ، ولم تعد عندي ، بعد ، الرغبة في الذهاب لاحد • شدني للعودة الى البيت الامل بأن اجـد جدعان فيه • كان جدعان ، في تلك اللحظة ، يمثل لي روح العنفوان والتحدي ولعلي ، لهذا ، كنت بحاجة اليه ، مشوقا للقائه • خوضت في الدرب الموحل الى ان وصلت ، وما من شيء يدل على ان جدعان عاد في غيبتي ، واشتدت كثافة الدبق اللاصق بي • تمددت موزع الافكار، غير أن قرصات الجوع اقتحمت تعبي فقمت ابحث عن شيء آكله فلم اهتد لشيء جاهز • واقتنعت نفسي بأن خير ما افعله هو ان استرخـي وانتظر عودة جدعان •

بغتة ، انبثق رجا من وسط الهموم ، واشد ما فاجأني هو مجيئه الى البيت بعد طرده منه • جاء ليأخذني ، فاعتذرت باني انتظر جدعان فقــال :

ــ ظننت انك عرفت • ذهب حضرة الرقيب من الصباح الى قيادة

الكتيبة ، ولن يرجع لان السيارة لن تسر مع هذا الوحل • ولما قالت عائشة انك قادم ، حضرنا العشاء ، فلا تكسفنا •

قلت ، متكاسلا :

ـ انـا تعبان •

فاستعان بحجة جديدة :

ـ اقول لك الصدق ، حلفت امي علي الا اعود بدونك ثم •••

وتردد ، فشجعته نظرتي المتسائلة •

ـ ••• النقيب عطية هنا ، سيتعشى عندنا ، وهو يحب ان يتعرف عليـك •

تحدث عن الرجل كأني اعرفه ، ولما استوضحته ، ارتبك ، ثـم اكتفى بالقول انه رجل مهـم • فتذكرت حديث جدعان عـن ضابط المخابرات الذي شغل رجا ، انه النقيب عطية هذا •

ـ هل طلب منك ان تجيء بي اليه ؟

ـ الحقيقة ، كيف اقول لك ، كنا في سيرتك فأحب ان يراك •

لم اجد سببا للرفض • خوضت مرة اخرى في وحل الدرب ، كان رجا هذه المرة يسير أمامي ويرشدني حتى لا تغطس قدماي في الحفـر الموحلة • وعندما ولجنا الحجرة التي نجلس فيها عادة ، لم يكن ثمـة

احد ، غير ان وضع الفرش كان ينم عن اهمية الضيف المنتظر ، مدت فرشتان فوق بعضهما في صدر المكان وتوزعت فرش مفردة بقية اركانه. وعلى الفراش المزدوج ازهى الوسائد . وكانت حطبات اكتمل اتقادها تتوهج وسط المنقل ، وحولها تصطف اباريق مترعة بقهوة اعدت سلفا وفاح عبقها . وانفرد فوق الحصير بساط لم اره من قبل ، وهيء الطشت والابريق المعدان لغسل الايدي قرب الباب : استعدادات تامة .

هنيهات طالعنا بعدها وجه ام رجا المرحب وقد اضفى عليه ضـــوء اللوكس المنظف حديثا ، بهاء ملكة الطوارق من جديد . كانت ترتدي ثوبا معتنى به ، وتلف شعرها بغطاء رأسها على نحو جعله خلفها ،كاشفة عن مهابة الجبين ومفصحة عن جمال الوجه كله . كانت حفاوتها بـــي سخية وانا مازال اقف وافكر بأن علي ان اخلع البسطار قبل الجلوس ، واستثقل هذه المهمة التي لم آلفها ، ثم اقتحمتني بهجماتها :

ـــ الذي يسهر عند البك لا يجيء الى العبيد ، ولان نبرتها حملت من المودة اكثر مما حملت من التقريع ، فقد انعشني كلامها ، ووجدتني اردوانا لا احب كلامي :

ـــ اذا كان هو البك فأنت الملكة .

وكأنما لتؤكد لي مقدار مافي قولي من مجافاة للواقع ، انحنت تريد مساعدتي على خلع البسطار فأخجلتني حركتها ، وهممت بكلمـــات

اعتذار ، وحاولت ان ارفعها باحدى يدي بينما تعجلت لمعالجة البسطار باليد الاخرى قبل ان تصل هي اليه ، وكان لابد ان انحني بدوري ، واذ فعلت ذلك مرتبكا ، فقد تصادمنا ، فوقعت على الارض متمددة امامي ، وخيل الى انها استكانت لوضعها واسترخت عن عمد لبضع لحظات مما اثار في حسا مباغتا بالرغبة ، داريته بان تشاغلت بفك اربطة البسطار وانا اركز نظري عليه ، ولما فرغت كانت تنتصب امامي وعلى وجهها ابتسامة فاتنة ، وهي تتأملني بنظرة مباشرة ، ولعل هذا كله جرى في لحظات قليلة غير اني خلتها زمنا . ولا شك في اني كنت بادي الارتباك ، اما هي فما اعجز الارتباك عن ان يلم بها بل ان نبرتها المقتحمة عنفت مع انها احتفظت بفيض ودها :

ـ جليس البكوات يخجل في دور الفلاحين يا اخي كبحك انا زي اختك ، لماذا لا افك بسطارك ؟

« زي اختك » الى أين كانت تمضي بي هذه المرأة المقتدرة وهي تتلاعب بمشاعري ؟

ـ انت لست مثل اختي .

وكدت انطق باكثر من هذا ، غير ان بسمة فاتنة جديدة لمت لساني ، وهي من وجهتها لم ترحمني .

ـ حيرتنا . اقول : زي امك ، تقول : صغيرة ، زي اختك ، لا ترضى . ايش تريد ؟ مابقي الا ان اقول : زي امرأتك .

فلم يبق لارتيابي حدود .ماعدت اعرف بماذا اجيب اوكيف اتصرف؟ بينما بقيت هي سيدة الموقف :

ـ ... احسن شيء ، وكلني امرك ، وعلي ان ما زوجتك احلى بنات الديـرة .

وبتحويلها الحديث هذا المنحى لاح الفرج ، فقلت وانا على الفراش المزدوج الذي اخترته دون غيره بلا تعمد :

ـ لا تنشغلي بامري ، لن اتزوج اي بنت ما .

جلست قبالتي فوق البساط وهي تقول باشراقة روحها وبنغمةالهزل التي سرت في حديثنا :

ـ كبحي انا ، كان اللازم انه آخذك عند الشيخ راغب الحسود ، يلزمك حجاب منه فهو لا يخيب صدقني .

خيّل الي انها تمعن في هذا المزاح حتى تستفزني من غير ان يخامرها شك حقيقي بما تشير اليه . كنت احس اني غارق معها في مناجاة . وعندما تكلم رجا باغتني صوته لاني كنت نسـيت وجـوده تماما ، كان يسأل :

ــ العشاء جاهز ؟

فردت هي :

ــ جهزت كل شيء ، شف عائشة واذا احتجتم لشيء نادوني ، ولما صرنا وحدنا ، ارتسمت الجدية على قسماتها :

ــ جدعان ، صاحبك ، الذي اخترته من دون خلق الله لتسكن معه ، ليس شريفا •

باغتتني المرارة الشاكية في نبرتها • كان واضحا ان لديها شكوى من جدعان تريدان تبثها لي انا بالذات ، وهي شكوى مرة كما تدل عليها المقدمة •

ــ ••• خير لك ان تتركه ، سمعته شينه •

قلت محاولا ان اعرف اي شيء •

ــ « ماذا عمل لك » •

ــ لي انا ؟ كبحه الساقط لم يلد الذي يؤذي رقيه • كلب فطائسي ، مثله له الفطائس ، اما انا فبعيدة على رقبته ، فهمته هذا مية مرة وهو لا يفهم • يظن النساء كلهن دجاجات تخاف من الرقيب ، يرفع ثوب الواحدة منهن فيركبها عفريت الرعب وتتجمد • عندي ما له فت خبز • انا ام رجا ، ان كنت لا تعرفني ، اسأل الديرة كلها تقل لك • ما بللت ريق واحد منهم • يدورون حولي ، والسنتهم مدلاة مثل الذئاب

العطشانة وكل واحد انفه قدامه طول شبر ، لكن على من ؟ من يوم ما جاء ديرتنا ، صار يرمي كلام ويهدد ، اشوف واسمع ، وكل مرة القمه حجرا يسد بوزه . واقول : طولي بالك يا امرأة ، لا ترمي البلا بين الرجال . من يعرف ، اخاف ان يبتلى بها رجا ، وهكذا أصمت ، البارحة فاضت ، طب علي بعد نص الليل ورجا في الكمين . كان شاربا المخزي وريحته فايحة ، وانا كل همي الا تصير فضيحة وبلية . مسكت يد المهباج ، انام دائما وهو جنبي ، وقلت له : لو قربت اطيح مخك قدامك ، سمع هذا الحكي وهاج ، حط يده على فرده فقلت له ، بعيدا عمن سمع ، احسن لك حط الفرد في صرمك ، مش عيب تسحبه على امرأة ، فرمى الفرد وافترب لماذا اطيل عليك ، اعطيته على ام رأسه لكن ، تقول : ثور وقبل ما اعطيه الثانية هجم علي وبرك على صدري مثل الصخرة ومد يديه .. غرضه يكتم انفاسي حتى لا اصرخ ، لكن الله اعانني عليه ، أمسكت يده باسناني وشددت حتى صرخ هو ، وقمت ولوحت له بالمهباج وطردته مثل الكلب .

كنت اصغي كمن يستمع لقصة وهمية تستغرقه لكنه يرفض ان يصدقها ، ويحس مع ذلك ان مئة سكين غير مرئية تنغرس في كبده وتقطعه . وغرقت في احاسيس متناقضة ، ولم اجد ما اقوله . اما هي فكانت هادئة تتحدث كمنتصرة ، بعد ان اجتازت محنة .

ـ نسي فرده عندنا ، وضعته لك في البسطار ، خذه له ، واسمع مني : اتركه لك في الديرة سمعة زي المسك ، والكل يحلف بطهارتك . ويقول ان هذا الكلب غشك فانت لست من طينته . حصل الـذي حصل ، ولا احد يعرف غيرك ، لا تقل لاحد ، الله سلم ونفذ منها رجا . لو ابتلى لامضى عمره في الحبوس وحملت انا لوعته .

قلت كالابله :

ـ بسيطة .

أما هي فأخذت تلح :

ـ نحن خائفون على سمعتك مع هذا الفطايسي ، ما الذي يلسك عليه؟

وكررت ، وانا مشغول البال بهم اخر غير سمعتي :

ـ بسيطة .

كنت افكر بجدعان ، يتوزعني غيظي من اعتدائه على المرأة المستقيمة وعجزي عن ادانته ، هل احببته وانتهى الامر ، هل استحوذت على صفاته الطيبة فصرت مستعدا لان اغفر له نزواته ؟ ان له منطقه وظروفه ، هذا ما لا استطيع ان اتجاهله ، فكيف اجعل ام رجا تفهمني من غير ان تحتد هي التي تضع مقاييس حادة للتمييز بين الشرف والنذالة .

عودة رجا انقذتني ، انسل الى مجلسنا بينما كنت ما ازال ساهما ،

وبعده اقبل ابو جمعة ومعه اخرون ، ثم لم تلبث الحجرة ان اكتظت بالزوار ، فغصت بهم وبضجيجهم واخيرا وصل النقيب الذي ينتظره الجميع • وقفوا لتحيته جامدين ومتهيبين ، وظللت وحدي جالسا • عزمت على ان لا اقف حتى يفرغ ضابط المخابرات من خلع بسطاره •

تأملت النقيب عطية ، كانت ملامحه تدل على انه في نحو الثلاثين من عمره • وله هيئة لا يميزها شيء خاص فهو ليس طويلا ولا قصيرا ، لا سمينا ولا نحيلا ، ومثلها قسمات وجهه العادية وبشرته السمراء ، شيء واحد يميزه ، تلتقطه العين على الفور ، هو ضخامة جمجمته الملحوظة ، وفيه شيء اخر مميز ، تدركه لو تأملته وهو حول في عينيه لا يبين الا اذا ارتبك • ويبدو أن الحول هو الذي اورثه عادة الاطراق بجفنيه مرات متلاحقة كلما استشعر ان احدا يراقبه • وله ، الى هذا ، صوت رقيق ولهجة تنم عن الرغبة في الملاينة ، ولعل ابرز ما يستوقف مجالسه هذا التناقض بين طبيعة مهنته التي تمنحه السلطة المهابة والصوت الذي يشي عن شخصية تميل للمهادنة •

منذ دخوله ، بدا لي انه واثق من اني ساكون بانتظاره وانه رسم خطته للتعامل معي في أول لقاء يجمعنا ، كنت الوحيد الذي سلم عليه النقيب بالمصافحة في حين اكتفى بتحية الاخرين دون مصافحتهم وفيما عدا هذا لم يظهر اي اهتمام خاص بي • جلس بجانبي على الفراش

المزدوج ، والقى ذراعه على الوسائد التي تفصلنا ، وارخى جسده في جلسة مألوفة في المضافات ، ثم خاطب رجا مفتتحا السمر :

ـ حبايبك كثار يا رجا .

اغضى رجا ، اما الرد فجاء من الام :

ـ الله يزيدهم وانت على راسهم ،

كانت فخورة باستضافة بيتها لضيف له هذه الاهمية :

ـ حباينا وحبايبك ، لما سمعوا بتشريفك ، شرفونا ، يا مرحبا بك وبهم .

امتد الحديث ، عاديا ، يديره ام رجا والنقيب ، ويتلقاه الفلاحون المتهيبون في حضرته بغير مشاركة . رجا قدم القهوة ، بدأ بالنقيب ثم ثنى بي .. وحين تناول الضابط فنجانه دون ان يشير الي ، ولو من باب المجاملة ، تصرف بثقة من له حق لا ينازع في ان يكون الاول . اقول الحق : غاظني تقديمه علي فمن هو ، في نهاية المطاف ، هذا الضابط في المخابرات ؟ ما قيمته اذا نزعنا عنه نجماته الثلاث؟ وابتلعتها على مضض فكانت غصة تجسدت في حلقي وضغطت عليه ، اتخذت قراري ، لا بد ان ارغمه على الانتباه لي :

ـ كيف الاحوال عندكم ، فوق ؟

التفت النقيب عطية فواجهت عينيه ، وهنا ، فقط ، لحظت حوله ،

وادرك هو هذا فاضطربت جفونه وابعد نظره عني ، ولم يجب على سؤالي بل القى سؤالا :

ــ منذ متى انت هنا ؟

ــ منذ ارسلتني الحكومة ..

ولان هذا كان اول حوار يجري بيننا فان الاخرين اخذوا يرقبوننا بانتباه ، تصورت انهم يزنوننا كلينا في هذه اللحظات ، وعلى ان انتزع حقي من الاحترام :

ــ .. في دمشق لم اعجبهم فبعثوا بي اليكم .

ــ هل انت صديق جدعان ، كما يقولون ؟

طرح السؤال وهو مايزال يتجنب النظر مباشرة الي . اما نظري انا فاتجه تلقائيا نحو ام رجا . كان في عينيها تعبير لا ينم عن اي اضطراب، ومع ذلك احسست بانها ، من بين جميع الحاضرين ، هي التي تعنيها اجابتي . وكنت ما ازال ازن كلماتي :

ــ لعلك تعرف ان المدرسة كانت مهملة ، جدعان ساعدني حتى نفتحها ، والنقيب عوني ساعدنا .

ــ يقولون ان لك شعبية بين الفلاحين ، هذا يعوضك عما خسرته في دمشق .

ليس غبيا ضابط المخابرات هذا ، واختياره لم يقع صدفة .

ـ افرح لو احبوني مع ان لقاءاتي بهم قليلة • لم ادخل من بيوتهم غير هذا البيت •

قلت هذا لافهمه اني لست مسن يقعون بسهولة • ولكني ادركت لحظتها فقط انها الحقيقة ، اقيم في هذه القرية منذ عدة ايام ، واعتمد على تعاون اهلها من أجل عملي ولا اهتم بالتعرف عليهم • اما النقيب فعاود النظر الي ولم يطرف هذه المرة :

ـ كأنك تفضل صحبة العسكريين ، قائد السرية ورقيب الحرس الشعبي •

نبرة حيادية • ايها المحترف انك تحاول اختراق جدار الحذر الذي اتسلح به • هل كان سيفوتني ثبات نظرته وهو يدلي بملاحظته ؟

ـ النقيب عوني ساعدنا كثيرا ، وهو الذي عرفني على خايل بك • لم تضطرب العينان اللتان تواجهانني :

ـ ما رضيت ان تسكن في السرايا • ماذا عند جدعان خيرمما هنالك؟ تبسمت :

ـ كأني في جلسة تحقيق ، الا ترى ان هذا ليس وقتها !

كان قولي ، كما اردت له ، قفازا القيه ، الا انه لم يلتقطه على الفور وان لم يتجاهله • كل ما ظهر من رد فعله ان جفونه ارتعشت قليلا فأبعد نظره عني ، وهو يقول بنبرته المحايدة :

ــ اذا كنت لا تكره الضيوف سأزورك صباح غد •

بهذه الكلمات انهى حواره معي ، الوحيد خلال السهرة كلها • وفي الصباح جاءني كما وعد • قدم وحده ، وكنت لم أكد افيق من نوم ليلة مضطرب • ومنذ جلس على الكرسي ليواجهني وانا اقتعد الفراش ، ابتدرني بغير مقدمات :

ــ اريد لحديثي معك ان يكون مفيدا •

ثم اكمل ، مشددا على مخارج الحروف :

ــ ••• لك ولي •

قلت :

ــ انت في بيتي ، ولك الحق في قول ما تشاء •

كان لثبات نظرته فصاحة عباراته :

ــ هذا ليس بيتك ، ليس لك ، بعد ، بيت ، وهذا غير مهم على كل حال • ما اردت قوله لك اني اعرف عنك كل شيء ، وسواء صدقتني ام لا فانا واثق مما اقول •

كان سهاد الليل المتبقي يتبدد من رأسي ، فيما يدخل النقيب الى غرضه بغير التواء ، وكنت أواجهه بصراحة :

ــ اضبارتي وصلتك . لا أشك في هذا فدولتنا عندها ملفات •

ـ وأخبارك هنا ، كلها بالتفصيل ،

اراد ان يرهبني ، وظننت اني قادر على احراجه :

ـ عندك رجـا .

لكنه لم يحرج :

ـ لا تتشاطر عندي رجا وغيره ـ مهما كنت ذكيا فلن تعرفهم ، وهذا ايضا غير مهم : المهم ان تفهم انك في منطقة عسكرية . نحن على الخط الاول على تماس مباشر مع العدو . وما اريد ان تضعه في رأسك ان ما يصلح في دمشق لا يصلح هنا . هنا العدو من جهة ، والفلاحون انصاف البدو هؤلاء من الجهة الثانية ، أميون ، لا يوثق بهم ، لا يفهمون في السياسة ولا يعرفون الوطنية ، فاذا تكلمت ضد الحكومة فكأنك تحرضهم ليصيروا مع العدو ، ولا اكتمك : عندنا حالات كثيرة ضبطناها حالات تعامل مع اسرائيل ، المال يغوي كما تعلم والناس فقراء ، فيدمشق يختلف الامر ، وكذلك ...

قلت مقاطعا ..

ـ صراحتك تثيرني : هذا ، كما قلت انت ، مفيد لي ولك . انت ترى ان هناك فرقا بين دمشق والحدود ، فما رأيك في ان الجماعة في دمشق يقولون لنا الكلام ذاته : نشاطكم ضد الحكومة يضعف موقف البلد ضد اسرائيل . هل عملت في دمشق ؟

كان يضبط نفسه :

ــ اتركني اكمل كلامي

ــ ارغب في ايضاح ، حتى يكون الحديث مفيدا • هل تؤمن حقا بان هناك فرقا ، اوانك تضغط علي باسم وجودنا على الحدود •

ومع ان مظهره بدا هادئا ، فان اطرافات الجفون المتلاحقة ، وهو يتلقى هزئي ، كانت ابلغ دلالة :

ــ المناظرة ليست من اختصاصي •• انا هنا مسؤول عن الامن ، اعرف ان للعدو اساليب خبيثة في الاتصال بالناس ، ونحن لا نستطيع ان نثق بأحد سلفا ، وانا احذرك فهذا واجبي ، اجعل اتصالاتك محدودة بقدر الامكان ، وهذا اسلم لك ، وعليك ان تعرف اننا نراقب كل شيء •

ــ وان اعرف انني في الاساس مشبوه •

ــ ليس هكذا ، ليس هكذا ، لك تأثير على الفلاحين فلا نريد ان تحرضهم ضد الحكومة ، هذا هو الامر •

ــ واذا كانت لي وجهة نظر اخرى ؟ اذا قلت لك ان وضع الفلاحين ، كما هو الان ، هو في حد ذاته خدمة للعدو ؟

ــ وجهة نظرك هذه عليك ان تنساها هنا • عندنا لا نسمح بأية قلاقل ، انت موظف في الدولة ومن واجبك ان تكون صوتها بين الفلاحين ، وما دمت تستنكف عن هذا فيجب ان تصمت على الاقل •

كان يشدد على مخارج الحروف مؤكدا صيغة الامر في عباراته • واردت ان اقول شيئا فلم يترك لي فرصة :

ـ ••• قبل ان تقاطعني سأقول لك : انا اتحدث بدافع وطني وليس بحكم منصبي • مادمنا بمواجهة العدو فكل مواطن خفير ، خصوصا اذا كان متعلما وواعيا مثلك •

ـ اية خفارة هذه

بهذا السؤال قرنت السخرية بالتحدي ، لكنه لم يضطرب :

ـ لا اظن انك بحاجة لمتاعب جديدة • ابعدوك عن المدينة مرة ، ولن يتورعوا عن تسريحك في المرة التالية • اسرتك بحاجة اليك ،وكذلك وطنك ، فلماذا تجازف ؟ لست طفلا حتى تلعب بمستقبلك وتشقي اسرتك • انا مثلك يهمني اهلي ، علمونا حتى نسندهم وليس من العدل ان نشقيهم بعد ان تحملوا الكثير من اجل تعليمنا •

ظل يحكي وانا ارقبه : خادم الحكومة هذا يعرف عمله ، وهو في منطقة عسكرية ونائية يتمتع بسلطة كبيرة ، وينتقي كلماته وينسق افكاره لانه يرى ان جليسه ليس فلاحا بسيطا يخشاه او يؤخذ بمنطقة ولعله كان صادقا في انه يخدم وطنه ولعله مخدوع في الدوافع التي يؤمن بها • ولعله يضع في حسابه اتساع حجم المعارضة في البلاد واحتمالات التقلبات السياسية ويفكر بمستقبله هو الاخر • كان يجهد

نفسه كي يتكلم بلغة العصر ، ومادام العدو ادنى من مرمى الحجر فانه يجهد كي يقرن دوافعه المهنية بمصلحة الوطن الذي تهدده اسرائيل ، لم يترك النقيب عطية اي التباس جاءني ليقول : ان التحرك ممنوع واذا لم استكن فعلي ان ادفع الثمن من قوت اسرتي واقله الطرد من الوظيفة:

ـ ليس من حقك ان تهمل ما قلته لك . لماذا انت شارد ؟

ـ افكر بما تقول .

هكذا اجبت . ولا بد انه اساء فهم اجابتي وظن انني على الاقل ، اميل الى المساومة ان لم اقبلها بعد وشاء ان ينهي حوارنا عند هـذه النقطة مكتفيا بما حققه .

ـ اذا فهمته جيدا فلن نصطدم .

لحظتها خطر لي ان اطلب مساعدته من اجل السفر الى درعا ، لم لا ؟ وسألته عما اذا كان قادرا على توفير سيارة . كان يعرف اني طلبت مساعدة خليل بك ، فقلت :

ـ وعدني ، ولست اظن انه سيتذكر وعده .

ـ لماذا تشك فيه ؟

قالها لائما .

ـ ... فضله علينا جميعا ، ويده طائلة وكلمته مسموعة في مديرية

المعارف وفي الوزارة • صفّ نيتك ، عد اليه واطلب السيارة ، فمن الخير لك وللمدرسة ان تكون علاقتك به طيبة •

عاودتني روح المناكفة :

ــ من الخير لي ، وللمدرسة ان انساه وينسانا •

هنا اضطربت جفونه وظهر حَوَلُ عينيه :

ــ هذا الاستخفاف بالناس سيقضي عليك • انت ، بعد ، شاب وامامك المستقبل • وعلي ان اقول لك : بغير معونة البك لن تكون مدرسة ، ليس من اجل السيارة وحدها ، حتى عوني بك لن ينفع • انا مثلك اريد ان تفتح المدرسة ويتعلم الاولاد ، انا نفسي فلاح واهلي يشتغلون في الارض المهم هو الهدف أليس كذلك ، لماذا انت ساكت ؟ حاول ان تتنازل ، بل اترك هذا ، اذا كنت محرجا من مراجعته اذهب انا واكلمه • وان شئت نذهب معا فلن يرد طلبي •

كان في اقتراحه ما اغواني ، كنت مشوقا لمعرفة ما سيفعله بي خليل بك عندما يلقاني بعد ان طردني وهو ثمل • ووافقت على الذهاب اليه بصحبة ضابط المخابرات •

في باحة السرايا تلقانا رجل لا اعرفه ، واقتادنا الى صالون الاستقبال في طابق الفيلا الارضي • بهو واسع توزعت اطرافه مقاعد حديثة ، على طريقة الفرش في المضافات الريفية . وعلى الحائط المواجه

لمدخل البهو ، علقت صورة كبيرة الحجم لرجل كهل يرتدي الزي الذي كان سائدا في بداية القرن ويقف بوضع خاص انتقاه له المصور ، كان رجل الصورة بكامل قيافته ، رسميا ومنسجما مع زيه ، ومن وجهه تبرز عينان تنظران بقسوة نحو الداخلين الى البهو وتشيان بالسلطة التي تمتع بها ، وينتصب شاربان صقريان من النوع الذي كان يتاهى به اغوات عصره ، اما رأسه فكان مكشوفا يزنره اثر الطربوش • ولم يكن من الصعب ان احزر انها صورة والد خليل بك الذي حدثني عنه ابو جمعة وعلى الجدران علق خليط من الاسلحة العتيقة ، سيوف وطبنجات وأدوات صيد يدوية ونارية وصور للاسلاف ، وعلى الارض مدت سجاجيد عتيقة ممسوحة • وفي البهو مكتبة مقفلة الابواب ، تمتلىء الرفوف وراء زجاجها بصفوف من الكتب المجلدة التي يوحي انتظامها بأنه ما من يد امتدت اليها منذ وقت طويل •

انتزعني من استغراقي الخادم الذي دخل حاملا القهوة ، كان النقيب عطية يجلس جلسة من الف هذا المكان ، وبينما كنت ارشف القهوة واقف وظهري لصورة الوالد ، ظهر ابو حسان فجأة ، دلف الى البهو بخطوات انشط مما يتيحه عرجه في العادة ، وحيا النقيب بشاشة وتبسط ، ثم نادى الخادم طالبا دورة قهوة اخرى ، وبعدها التفت الي من موقفه بجانب النقيب وارسل تحية ثم انصرف ثانية لمحادثته ، وانبأه ان البك يتناول الفطور ، وسيعلمه بقدوم الضيف • كان

سلوك ابي حسان كافيا لاحزر ما الذي ينتظرني في مقابلة سيده • ومع هذا لم تساورني الرغبة في التراجع ، بل ان شيئا في داخلي اخذ يتأجج ويستحثني على التحدي ، ولكي اشغل نفسي ، رحت اتأمل محتويات المكتبة فلم اجد فيها ما يثير اهتمامي•وقفت ساهما وقد عاودني الاحساس باني في مكان واقعي وغير واقعي في الوقت نفسه ، هذا البهو باشيائه غير المتناسقة • والوكيل الذي يشعر بالدونية ازاء الضابط ويتطاول ، بوصفه وكيل البك ، حتى يكون ندا له ، وضابط المخابرات الذي ينتدب نفسه للمساعدة في فتح مدرسة •••

ـ عد الينا يا استاذ

هكذا هتف النقيب عطية مذكرا اياي بوجوده • وحين التفت اليه لم يكن ابو حسان ، بعد ، موجودا •

ـ •• البك ليس راضيا عنك ، اصبر ، وتذكر ان الغاية تبرر الواسطة •

فقلت ، مستفزا من خليل بك ، وليس من النقيب :

ـ لا تغلط الوسائط لا تنفصل عن الغايات ، وهي عندي من طبيعة واحدة ، هذا البك لن يفتح المدرسة ، لم يسمح لمعلم قبلي بأن يقوم بواجبه ، اطعم بعضهم فاغلق أفواههم وانتزع حماستهم ، واخاف غيرهم فهربوا • وعلي عنده أن انال فتات نعيمه فاخرس او ان اهرب • هذا هو الامر يا حضرة النقيب •

يبدو ان النقيب فهم ان مشاعري في تلك اللحظة ، لم تكن موجهة ضده ، ومع ذلك فان قسماته اكتست بدهشته من جرأتي • نظر الي بعينين مفتوحتين فظهر حوله بشكل قبيح • وقال بقسوة بدت ، مع رقة صوته ، غريبة :

ــ تتكلم كأنك تتلو بيانا ! نحن في دار الرجل نشرب قهوته ونطلب مساعدته ، وانت تشتمه هكذا ؟ انكم محيرون، لا وزن للتقاليد ولا للقيم عندكم ، لماذا لا ترفعون كلام الكتب من رؤوسكم وترون الواقع ؟ البك شخصية كبيرة ، وهو صديق فخامة الزعيم ، فاستهد بالله وتواضع وخلنا نفتح المدرسة •

كانت مشاعري المتوترة قد تراخت بعد ان قلت ما قلته ، اما هو فلم يتوقف •

ــ ••• تقول هذا الكلام امامي وفي داره فما الذي تقوله في دور الفلاحين ؟ امرك عجيب تنسى اني المسؤول عن امن هذه المنطقة • اردت ان ارفع مقامك واصلحها بيك وبين البك وانت تزيدها • لماذا لا اصدق ما يقال عنك ، خصوصا عن تمسحك بالعسكر ، هذه مسألة لا نمزح فيها ، اقامتك مع هذا الرقيب لا تعجبني ، وهو مثلك يستخف بالناس ، ويسيء لسمعة الجيش ، وفي السرايا لا يحبونه ، وانت لم تختر غيره لمصاحبته •• من انت حتى تتحدى ؟ سلوكك يحيرني ، وغرورك ، على اي شيء ؟ رحم الله امرىء •

كان مستشارا ، فلما توقف كان قد هدأ قليلا • وسألته :

ـ هل تؤمن ، حقا ، بأن خليل بك يعنيه فتح المدرسة ؟

ـ هل أؤمن ، اما سؤال ؟ أؤمن طبعا ، فهو رجل متعلم يعرف قيمة العلم ، ما رأيت في حياتي بيتا فيه مكتبة كهذه • المعلمون الذين جاءوا قبلك لم يعلموا لانهم كسالى ، طابت لهم القعدة في السرايا ، وشغلهم نعيم البك وهدايا الفلاحين • كان البك يشكو من كسلهم ، عندي ملفاتهم ، ما من واحد تحمس للعمل مثلك • اما الذين طردوا فلأنهم كانوا متحمسين للشغب وحده ، ارادوا ان يقلبوا الدنيا فلم نسمح لهم •

انتظر ان اعقب على كلامه ، لكني صمت ، ومد نحوي نظره طويلة :

ـ ••• كانوا مثلك تماما ، رؤوسهم ناشفة ويظنون ان البطيحة مثل المدن يمكن تهييج الناس فيها للقيام بالمظاهرات ، وانا عسكري لا يعجبني خرق النظام • لكل انسان واجبه ، المعلم معلم والفلاح فلاح والسياسي سياسي ، اتركوا السياسة لاهلها ، تعرف ان خليل بك من كبار السياسيين ولو قبل لصار وزيرا ، وانت ترفع صوتك ضـــده في داره •• هذه قلة ••• ما هكذا يكون الادب ، فكر على الاقل في المدرسة •

قطع دخول ابي حسان حوارنا ، جاء الوكيل يقول للنقيب ان خليل بك ينتظره في المكتب ، فنهض النقيب خفيفا واشار الي كي اصحبه دون ان يفطن الى انه هو وحده المدعو للمقابلة • وقبل ان انبهه من جانبي

كان ابو حسان قد تدخل متعمدا الا ينظر ناحيتي فقال بصوت اسمعه : البك يقول : « على الاستاذ سمير ان يرينا عرض اكتافه من غير مطرود » . ولدهشتي ، انا نفسي ، لم يخامرني اي احساس بالمهانة من هذا التصرف الفظ . لم يكن البك ثملا ولا كنت انا مهتاجا امامه . اتخذ قراره ، هذا هو الامر ، ولم ينفلت منه الحنق انفلاتا كما حدث في المرة الماضية . ادركت هذا ، وشعرت لحظتها اني كنت سارتبك لو انه رحب بي . اما النقيب عطيه فقد ارتبك . نظر الي فاضطربت جفونه بشدة ، فوجه نظره ناحية الباب حيث كان ابو حسان في الانتظار . وقدرت موقف النقيب فلم اقل شيئا . احتفظت بصمتي وهدوئي الى ان حسم امره وذهب للمقابلة . ثم غادرت البهو والسرايا واسلمت نفسي للهواء الطلق .

- ١٣ -

كان المطر قد اخذ يتراخى ثم انقطع منذ الليل ، وفي الصباح اشرقت الشمس ففرقت القتام الشامل الى غيمات متناثرة اخذت ترحل الواحدة بعد الاخرى • وعندما افلت من السرايا استقبلني صحو تام وفضاء صاف يمتد فيه النظر على راحته • كانت أشعة الشمس الدافئة تسقط على ارض البطيحة المنبسطة امامي وتلاحق البلل العالق بالتربة والشجر والدور • وقد حرض الضوء الغامر التماعات الالوان في الاجمات وبساتين الفاكهة وحقول الخضار • وكانت انعكاسات الضوء من النهر والمسيلات والغدران تعلن فرحة الطبيعة بعد ان تلقت حمامها المنعش وتفتحت شرايينها لدفقات الماء المتجدد ، ري في كل شيء الماء ، والضوء ، والالوان وسخاء الطبيعة •

اجتذبني مشهد الاجمتين اللتين تجللان مصب النهر • وتبعت الدرب الذي يقود الى النهر • ثم انحدرت مع مجراه ، مسلما نفسي لفيض الطبيعة الذي يغمر روحي ، للنور ، لشميم الارض المروية ، للخضرة ، لايقاع الفرح ترسله المسيلات والغدران ، كنت انطلق بغير توقف الى

ان وقع نظري على السدرة الكبيرة فاتجهت اليها معتزما ان ارقب النهر وانا اسند جذعي الى جذعها • وأملت ، وانا امضي الى هدفي ، ان ارى فتى الشبابه ، بل لقد اغمضت عيني لحظات وتوهمت ان انغامه تدعوني وترافقني • ولكن حين بلغت السدرة بعد ان اجهدني التخويض في التربة الموحلة ، تبخر الامل وتبدد الوهم • لم استطع ان اجلس تحت السدرة بسبب الوحل ، ولم اقف لان حبات الماء الكبيرة الهابطة من اوراقها اخذت تسوطني ، وهكذا واصلت السير ، مباريا المجرى ، فوق درب الحافة •

كان الفلاحون منثورين في الحقول على مدى النظر ، نساء تميزهن الاردية السوداء ، ورجال يلفون رؤوسهم بالسلكات السمراء والحمراء ، يتفقدون زرعهم ، بينما تنتصب النبتات الطالعة كانها تنتظر الايدي التي تحنو عليها ، وعلى يميني ، عند ضفة النهر الاخرى حيث المنطقة المهجورة ، تتموج الاعشاب البرية ، شريط الارض الضيق ، تحت ايقاع نسمة هادئة ، كأنها تصدر تنهدات خافتة بعد ان طالت شكواها من الاهمال •

كنت اسير ، موزعا بين الجانبين ، حين انبثق امامي شاب فارع الطول رشيق القامة ذو قسمات صلدة ملوحة بشمس الغور ، وهو يحمل بكلتا يديه عدة صيد السمك ، مشغولا ، فيما بدا ، بالبحث عن المكان الملائم الذي يدير منه الحوار الازلي بين السنارة وكائنات الماء • بادرت

الشاب بالتحية فرد بتحية مقتضبة ، ولم يبد عليه انه راغب في مبادلتي الحديث • وظل منصرفا عني ، حتى بعد ان توقفت مبديا استعدادي للمؤانســة •

وكان قد وجد المكان الذي يبحث عنه وقرفص فوق الاعشاب وشرع يحضر عدته للحوار الذي سيبدأ للتو دون أن يعبأ بي •

كانت عدته سنارة وخيطا وسلة فيها بعض الحوائج ، وسطل مـاء تتحرك فيه سردينات صغيرة لم البث ان عرفت انه يستخدمها طعوما • كانت السنارة كبيرة بالمقارنة مـع السنانير الصغيرة التي سبقت لي رؤيتها في ايدي الذين يتسلون بصيد السمك على حواف نهر بردى في غوطة دمشق ، والخيط طويل يستطيع ان يحمل السنارة الى الضفة المقابلـة •

وكأنما كان بين الصياد والنهر اتفاق مبرم على انه يهبه ما يفيض من خيراته ، لا تكاد السنارة تغوص في الماء حتى يهتز الخيط فتجذبه اليدان المدربتان ولا تلبث السمكة المضطربة ان تخرج بعينيهـا البراقتين ، وقشرها المدور الكبير يلتمع تحت اشعة الشمس يتناول الصياد السمكة بحفاوة ، ويفك اسرها من السنارة ثم يلقيها الى جانبه على العشب • وتهتاج السمكة في البداية ، ثم تتشنج ، ثم تستكين منتفضة بين وقت وآخر انتفاضة كليلة لا تسعفها في التحرك من مكانها ، واخيرا ، تهمد ،

فيما هو ينصرف لاعداد طعم جديد من اجل سمكة اخرى تعيد الطقوس ذاتها ، ويوالي الشاب طقوسه الموزونة ، لا يفاجئه شيء ، فكانه ينفذ الاتفاق ، واثقا من انه سينال حقوقه كاملة .

مرة واحدة توقف ، اخرج علبة تبغه وشرع يلف سيكارة ، فتقدمت منه واعطيته لفافة من علبتي ، اشعلتها له وقرفصت بجانبه . مج نفسا واطلق الدخان في الهواء وامتدح التبغ بكلمات قليلة ، ثم ، من غير ان اطلب ، وحتى من غير ان تكون لدي رغبة ، مد الخيط وهو يقول بلهجة من يكمل حديثا مع صديق : « هذه المرة لك » لم ادر بم اجيب ، تناولت الخيط ، ولوحت به مقلدا حركاته ، وقذفت بالسنارة باقصى قـوتي فسقت في وسط النهر في لجة التيار . كان هو يمج الانفاس بهدوء ويرقبني وانا امسك الخيط بيدي كلتيهما ، وعيناي مشدودتان على نهايته . تركني افعل ما حلا لي الى ان فرغ من تدخين السيكارة وقذف عقبها في الماء ثم نهض :

— ستخيب . لا يعلق السمك حين يكون في اللجة القوية . يعلق السمك اذا كان النهر هادئا ، او اذا تصيدناه من الحفاف .

لم يقصد بالطبع ان يتفوه بحكمة ، لكن ، برغم ارتباكي . التقطت الحكمة التي ينطوي عليها قوله ، نظرت اليه مليا ، كان هادئا ورصينا دون ان تحمل قسماته اي تعبير خاص .

ـ ... اسحب الخيط والقه من جديد •

امتثلت لامره ، مأخوذا بلهجة الواثقة قبل اي شيء آخر ، وسحبت الخيط متمهلا ، لا لشيء الا لخشيتي من ان ارتكب حماقة اخرى تجعله ينتقدني • اما هو فبدا وكأن الامر لا يعنيه حتى اذا ظهرت السنارة خالية من الطعم ضحك ضحكة رنانة :

ـ ... اكل السمك الكبير الطعم وفر جرب حظك قريبا من الحفة وافتح عينك حتى ترى الخيط حين يهتز ، لم يكن حظ المحاولة الثانية افضل من الاولى ، رأيت الخيط حين اهتز وجذبته مثلما ارشدني الشاب ، متعجلا الظفر بسمكة غير ان ما برز امامي كان سردينة الطعم مقصوصة الذيل ، والسنارة التي انتصبت في وجهي مثل علامة استفهام • وتملكني ، مع الارتباك ، احساس بالخيبة لم اعرف كيف اداريه ، فغطيته بابتسامة لا بد انها كانت سخيفة • وكررت المحاولة مرة ومرات ، ولا فائدة ، في كل مرة كان الطعم يضيع ، ولا يأتي السمك •

ـ لست مدربا •

قلت هذا معترفا ، ومعتذرا ، وانا اعيد له خيطه وسنارته واقرفص بجانبه • ورد هو :

ـ يدك ليست حنونا ، لا يهب النهر سمكة الا لمن يحبه ، انت لا تعرفه ، هذا النهر باركه الله منذ الازل ، اذا تعلمت كيف تحبه يأتيك رزقك •

اردت ان اغير مجرى الحديث عن الاهتمام بمحاولاتي الخائبة ، فسألته عن اسمه :

— محسوبك ، موسى الصالح .

وعرضت عليه لفافة اخرى ، فأخذها ، ثم اصر على الف واحدة من علبته . وحين اعتذرت باني لا اعرف كيف الف سيكارة ، لف لي واحدة وهو يرشدني كي اتعلم . واعتقدت ، بعد هذا ، ان نفسه انفتحت للحديث معي ، فقلت ، وفي ظني اني امس نقطة تستحثه على المشاركة :

— ما الذي تفعله بهذا السمك ؟

لكنه رد باقتضاب :

— رزق الله لعباد الله .

كنت مستعدا بلهفة لافتح حديثا طليقا معه ، غير انه كان مستعصيا على الانفتاح . وما كان بمقدروي ان استمر في الحوار دون ان اكون متطفلا . فصمت . وانصرف هو لعمله مستغرقا فيه كأن اتفاقه مع النهر مرهونا بوقت لا يجوز ان يتعداه . وبعد تردد لم يطل ، تابعت سيري متجها نحو المصب ، الى المكان الذي شدني منذ رأيته للمرة اولى .

كان الدرب كلما اوغلت فيه يضيق ، فسرت متئدا ومحاذرا الا اتعثر ، ومستغرقا في تأمل التيار الذي يندفع عن يميني ، وكنت افكر

كيف ان هذا الماء يسبقني الى البحيرة ، وبالاجمال كنت ساهما عما حولي عدا النهر •

قبل ان ابلغ المصب ، انتزعني صوت ام رجا من سهومي بغتة ، كانت في حقل قريب تناديني باسمي وتشير لي أن اذهب اليها • وبسطاري الذي تراكم عليه وحل الدرب ، خوضت في التربة الزراعية المبتلة فاثقلت خطوى كتل الطين التي علقت به • صار التقدم عسيرا ، وام رجا مزروعة امامي ، على وجهها ابتسامة تفيض بالبشاشة • كانت منتصبة القامة وسط النبتات التي شقت الارض مزهوة بفتوتها الخضراء ، وقد رفعت المرأة طرفي ثوبها السابغ وعلقتهما في حزامها ليظهر طرفا السروال المشجر الطويل ، وقدماها غائصتان في طين الحقل • اي احساس هذا الذي داهمني وانا اتأملها ، حورية من نوع خاص ، نصفها فلاحة ونصفها ملكة ، جسد الفلاحة المنبثق من الطين ووجه ملكة الطوارق البهي معلق عليه ، الخصب والمهابة :

ـ الى اين ، هكذا ؟

القت سؤالها مرحبة •

ـ الى لا مكان •

كانت اجابة لا معنى لها بالنسبة لام رجا ، وهذا ما ادركته بعد ان نطقت بالعبارة ، وضحكت ، مستجيبا لبشاشتها الغامرة ، وقد اخذت

تزايلني الكآبة . وقالت هي بعد ان رفعت يدهـا لتحجب الشمس عن عينيهـا .

ـ هذي هي الحاكورة التي نزرعها في هذه الناحيـة ، دونك البندورة ، على وجهك ، ستكون الحبة بحجم البطيخة ، قل ، ان شـاء اللـه .

لم اقل شيئا على الفور . عاودني الاحساس باني في موقف واقعي وغير واقعي في آن واحد ، انا ازاء هذه المرأة اتعامل مع وهم اقمتـه بنفسي ولم اجعله كاملا ، فلا هي الفلاحة التي تكد وتكدح وتحمل رهقها الموروث منذ تلد حتى تموت ، ولا هي الملكة التي تهب من تشاء وتحجب الهناءة عن من تشاء ، وفيها ، مع هذا ، شيء من الاثنتين .

ـ ... يهنيها التي لحست عقلك .

ـ كنت أنوي ان امضي الى المصب .

بهذا اجبت على ملاحظتها . واذ ادركت انها لم تفهـم عبارتي ، اضفت :

ـ ... هناك عند الشجرات الكبيرة .

فاوضحت هي :

ـ هناك مخفر الحاصل ، لا يذهب اليه الا العسكر ، وبجانبه عسكر الدولي ، الناس لا يروحون هناك ، اليهود ، قريبون ، فلماذا تـذهب .

لم تكن لدي حجة مفهومة اشرحها لها ، ومع ذلك ، قلت :

ـ هكذا رغبة .

ووجدت ما تحتج عليه :

ـ يا اخي احك كلاما مفهوما اي شيء يعني رغبة ؟ اقول لك : الحاصل مطرح غير مأمون ، فما الذي تبغيه هناك ؟

ثم استدركت :

ـ .. لعلك تظن ان جدعانك هناك .

هل ستستدرجني الى الموضوع الذي يربكني ؟ لم اشأ أن اتراجع :

ـ ربما كان هناك .

ـ رجا قال انه لم يرجع من فوق ، لكن اطمئن ، لا بد ان يرجع ، فهو لا يخمخم الا في هذه الديرة . فوق ليس له فت خبز .

وجدتني ، انا الذي لم يلق يومها الا الخيبات ، محمولا للدفاع عن صديقي :

ـ اخطأ جدعان معك مرة فلا تحمليها له .

ـ تظن انه غلط معي وحدي ، يا اخي كبحك لو وقف علي ما علقت على رجلي اسأل بيوت الديرة يهابونه مثل الجرب ، خنزير ، بعيدا عنك ، يوسخ كل مطرح . قلت ، محاولا أن الطف عنفها :

ـ تذكرين سيئاته وحدها ، ولا تتحدثين عن حسناته ، وبهذا القيت نفسي في دوامة عنفها :

ـ الذي يعمله هذا الكلب ينجس بلدا بحالها ، اسأل عنه يقولون لك ان كنت لا تصدق ام رجا •

وقفت محتارا ، كيف اصرفها عن الخوض في سيرته ، كانت مستثارة تريد ان تحكي ، ولعلها اعتقدت باني لو عرفت تفاصيل اكثر لغيرت رأيي في جدعان • وهكذا اقتادتني ناحية النهر باحثة بعينيها عن مكان نجلس فيه ، حتى وقعت على حجرين متقابلين فاقتعدناهما ثم افاضت ••• حكايات كثيرة روتها ام رجا ، عن غزوات جدعان وحين اعتقدت ان ما روته كاف لشحني ضد جدعان وجهت لي نظرة ثابتة وهي تسألني :

ـ هذا هو جدعانك ، فماذا تقول فيه ؟

ـ حكايته محيرة •

ما كان أسخف اجابة كهذه بالنسبة لامرأة مثلها ومع ذلك فان اجابتي رسمت ، بدقة ، رد فعلي في تلك اللحظة ، كيف أصدق ما يحكى عن جدعان ، كيف يستقيم هذا السلوك مع شهامته ، مع اندفاعه في المساعدة، مع حماسته لتأدية الواجب ؟ كنت أصغي اليها محاولا أن أغربل من هذه الحكايات ما هو واقعي وما هو اشاعة • ولا بد انها فطنت الى فشلها في اقناعي •

ــ أنت الذي حالك تحير لو كنت مكانك لحفظت سمعتي وما قلت في المخابرات ؟ ما قيمته اذا نزعنا عنه نجماته الثلاث وابتلعتها على مضض له حتى مرحبا •

ثم نهضت ، واتبعت عبارتها بحركة تعبر عن خيبة أملها • وانصرفت راجعة الى الحقل بغير تعجل وبعد ان قطعت خطوات قليلة التفتت :

ــ رح الى الحاصل •

كانت كأنها تقول : « اذهب ومت ما دمت لا تصدقني » •

اما أنا ، فان الرغبة في اتمام المشوار بارحتني ، وعدت على الدرب الذي جئت منه •

كان موسى الصالح قد لم عدته ، وشك سمكاته مثل قلادة كبيرة • ولما رآني توقف الى أن بلغت مكانه فحياني • ودعاني بحرارة الى بيته كي آكل من صيده ، الا انني اعتذرت • ويبدو ان نبرة صوتي وانا اعتذر حملت شيئا مما في نفسي فاستنتج اني لا أقابل حماسته بما يستحقها • لم يقل شيئا يفصح عن خيبة أمله ، لكنه مضى قبلي ، السلّة في يده وقلادة السمك على ظهره ، سار مسرعا ولم يلتفت • وسرت في الاتجاه ذاته ، متمهلا وساهما تستحوذ علي الافكار التي اختلطت في رأسي •

حين بدأ جدعان يعاني شجونه الليليـة ، لم أتظاهر بالنوم ، بل باغته بسؤال :

ـ ما الذي يضنيك ؟ أنا صديقك .

استوقفه صحوي ، أما السؤال فلم يلتقط مضمونه فكررته وأضفت:

ـ لماذا لا تنام ؟

زفر زفرة حارقة واعتدل في الفراش ، وبقي صامتا ، كان تحت وطأة احساس لا أتبينه واندفعت ملحفا ، ومشجعا الى ان انفكت عقدة لسانه.

في مقتبل العمر ، سكن حب ابنة العم قلب جدعان ، كان الحب بالنسبة للفتى البدوي يعني الزواج وممارسة الجنس ومباهاة الاقران . وزوجوها له بحكم حقوق القرابة مع انها مانعت . لم يقم جدعان لممانعتها وزنا ، ولم تثنه مجافاتها له ، ومشاكساتها لأهلها . وفي ليلة العرس ، أقيم الاحتفال الذي شاركت فيه العشيرة كلها . واستعد الفتى المتلهف لليلته الاولى . كانوا قد أفردوا للعروسين صيوانا خاصا بعيدا عن المضارب حتى يختليا فيه . زفت العروس الى البيت ، ثم حمل اليه جدعان ، وامام البيت تركه الاقران . وحين دخل ، كانت المفاجأة التي بدلت مجرى حياته . وجد جدعان ابنة العم تقف بجانب الشاب الذي اختاره قلبها . وهي تتحداه بجرأة من نذرت دمها مقابل لحظة حرية : « أعرف اني مقتولة الليلة ، أنت لا ذنب لك ، اقتلني وواجه الفضيحة ، أو دونك الدرب فارحل واتركني لمصيري » وتحت وطأة مشاعر متناقضة لم يدر جدعان كيف يتصرف ، بل انه ، حتى الآن ، لا يدرك كيف انتهى الى الدرب الذي أبعده عن العشيرة وقطع صلته بها

الى الابد • وألقى جدعان بنفسه في لجة الحياة تطارده خيانة امرأة • تشرد في حمص وعمل في مهنـــة بسيطة لينال خبزه • ثم انتهى الى الجيش • فأخذت حياته تتسق شيئا فشيئا ومزاياه العديدة تعينه على التقدم • أحب الرؤساء صمته ودأبه وأمانته فأولوه ثقتهم • وبمضي السنين لم يبق من قصته القديمة الا حقده على المرأة فلم يقرب امرأة على كثرة ما تقربت منه نساء فتنتهن رجولته ، بقي عاجزا عن الاستجابة لامرأة تشتهيه ، من ترفضه وحدها التي تستثيره • وحين جاء الى البطيحة ظل هذا شأنه • وفي ليلة كان قد فرغ فيها من التفتيش على الكمائن وأخذ طريق العودة الى الدار ، وجد نفسه أمام فاطمة الموسى ، هذه المرأة اللعوب ، ويبدو أنها كانت تترصده وعندما مر من أمام بيتهـــا وضعت نفسها في طريقه وجهدت لاغوائه ، وكاد يستجيب للغواية فانقاد الى داخل البيت ، لكنه عجز عن ارواء شهوتها ، وحين تشبثت به ، انتهرها بقسوة وفر من البيت ، وهي من يومها تلاحقه بلسانها • روت انه داهمها وحاول اغتصابها بعد ان هددها بسلطته ، ثم أخذت تنسج حوله حكايات جديدة ، وحين عاتبها بالفعل هددته بأن تفضحه وتحدث الناس عن عجزه فانطوى على خوفه من الفضيحة وصمت • وفي تلك الليلة التي داهم فيها أم رجا كانت فاطمة الموسى قد تعرضت له ثانية ، ونجحت في اثارة شهوته لكنه مع ذلك ، عافها ، وجاء الى دار أم رجا وفي نيته أن يصطحبني وكان يحمـــل شهوته المستثارة فلم يتمالك نفسه فحصل ما حصل •

ـ هذا انا ، في النهار جدعان ، وفي الليل •••

وزفر من جديد •

كنت أبعد ما أكون عن الرغبة في وعظه • وحمله صمتي على الظن بأني أدينه • وسألني ، كمن يعترف بأنه يستحق العقاب :

ـ كرهتني ، قل ؟

ـ لن أكرهك ، أنا أفهمك •• وسأظل أحبك طول عمري •

ـ ما عندك حل لي ؟ أنت تعلم وتعرف •

ـ نم الآن ، ما من شغلة ليس لها حل •

لا شك في أن ودي تجاهه قد أراحه • ولم يلبث ان انتظم تنفسه وغرق في اغفاءة عميقة •

وفي الصباح ناولته المسدس الذي نسيه عند أم رجا ، ولم نتحدث في الموضوع ولم يعد أي منا لهذا الموضوع مرة أخرى ، ولأمر ما ، قر في ذهني اني الوحيد الذي أفضى اليه جدعان بسره ولم أشعر انه ندم • وأخذ شيء ما فيه يتبدل منذ تلك الليلة • كان يتحرج حين يغيب في الليل لسبب غير مفهوم ، وصار بمضي الوقت اكثر جدية في سلوكه معي وأعمق ودا في الوقت نفسه • أما حديثه عن أم رجا فقد قل ، وحين كنا نجيء على ذكرها لسبب أو لآخر ، صار يتحدث عنها باحترام • وذات يوم أبلغتني هي نفسها ان جدعان عاود مفاتحتها برغبته فيها بطريقة خلت

من العنف ، وحين صدته كعادتهـــا قال : « سأنتظر حتى تقبليني من نفسك » وكانت أم رجا مدهوشة •

*　*　*

رجع جدعان من احدى طلعاته الى قيادة الكتيبة بنبأ مفرح، ستكون بتصرفنا السيارة التي تحملنا الى درعا ، فقد تدبر بتوصية من النقيب عوني ، سيارة من الكتيبة ، واشترط قائد الكتيبة ان يكون جدعان فيها حتى تذهب السيارة بامرة الرقيب •

ــ جدعان أخوك ، « كن على ثقة » كما تقولون بالنحوي •

كان رائق المزاج • وبالنسبة لي أوقد النبأ حماستي بعد ان تعقد أمر افتتاح المدرسة • فبعد سهرتي مع خليل بك ، شاع أمر ملاسنتنا بين الفلاحين ، وحين جلت على البيوت لحث الاهالي على تسجيل أبنائهم لم أجد استجابة كافية • ولم يضم سجلنا سوى ستين صبيا من كل قرى المنطقة • أما البنات فما من أسرة قبلت أن ترسل بناتها للمدرسة • حتى الطفلة خزعة التي أثارت شجني لم أفلح في اقناع أبيها ، وحين بكت بحضوري ضربها الاب ، وطردها ، وكاد يطردني •

وبانتظار السيارة ، انصرفنا ، جدعان وأنا لاعداد صفقة جديدة من علب السكاير من أجل ثمن الكتب ذلك اننا لو طلبنا ثمن الكتب لما فزنا

بنصف العدد الذي سجلناه وأعد جدعان لائحة بالاسماء وقبض المبالغ سلفا ، وأحصينا ما توفر لنا ، فوجدنا ثروة تكفي لحاجات التلاميذ الستين بأسعار وزارة المعارف •

وفي غضون ذلك نبتت لدينا فكرة : ماذا لو لم نتمكن من جلب حاجاتنا في هذه الرحلة لسبب أو لآخر ؟ وما الذي يضمن أن نفوز بالسيارة مرة ثانية ؟ واذا ، أليس من الافضل ان أذهب الى درعا لأهيىء طلباتنا ، ثم نذهب بالسيارة بعد ذلك لنجلبها ؟

ووضع جدعان الخطة • جاء بحصانين من خيل السرية • وعند منتصف الليل انطلقنا نجتاز التلال التي تفصل البطيحة عن بلدة فيق • وهنالك أخذت الباص الذي يذهب رأسا الى درعا ويعود في اليوم ذاته •

لم يتذكرني محمود عبد الجواد على الفور ، لكنه بش حين ذكرته بنفسي ، وانتهينا الى اتفاق : سيجهز حاجاتنا خلال أيام ، وسيمنحنا ، كهبة ، عددا من الكتب ، حتى أتصرف بها فيما لو جاءنا تلاميذ جدد • وكان في هذا عون كبير يسديه الرجل الطيب الذي تعهد بتوفير كل شيء في الموعد على الرغم من الاضطرابات التي تعم البلاد •

بهذه الاخبار عدت الى فيق حيث ينتظرني جدعان • وقبل المغيب كنا نهدب بحصانينا على طريق العودة الطويل • وحين كنا ننحدر نحو

السهل ، فاجأني جدعان بسؤال لعله كان يدور في نفسه طيلة الوقت :

ـ أنت مثل أخي ، قل لي ، لا تخف شيئا ، هل تبغي أم رجا ؟

وقبل أن أجيب كرر مؤكدا :

ـ ... أنا أخوك ، حياتي قدامك .

فقلت مداورا وممازحا .

ـ لو كنت أبغيها ، هل تنالها أنت بالنيابة عني ما دمت مثل أخيك ؟

ـ أنا لا أهزر .

هكذا جعلني أدرك أن الامر يستحوذ على اهتمامه بكامله ، فقلت :

ـ احك ما بنفسك .

ـ هل تبغيها ؟ احك لي ، لا تغش جدعان أخاك !

فأية اجابة كان يمكن أن أعطيها .

ـ ليس لي عندها حاجة .

ـ ريحتني . الآن اعترف بأني ..

ـ لا حاجة للاعتراف . ألم تداهمها في الليل ؟

ـ ظل .. كيف تقول بالنحوي ؟ ظل ضميري يقرعني لا تضحك

ظننت انك تدور حولها . الآن أقدر أن أتكلم . اسمع ، لا تضحك من

جدعان ، أخوك يريد أن يتزوج أم رجا .

هل فوجئت ؟ وأنى لي أن أعرف ؟ كنت مشغولا بمشاعر أخرى • وكان صوته يبث نجوى :

ـ هذه امرأة ليست مثل غيرها ، أخت رجال • وبعد هذا العمر لا يجوز أن يبقى جدعان بغير زواج ، أنت فاهم ، الشماتة صعبة •

أراد جدعان أن أتدخل لأقنعها • يعرف انها سترفض • لكن صدها لن يدوم لو تدخلت أنا •

ـ لا يسون عليها أحد كما تسون أنت •

ـ أساعدك بكل ما أستطيع •

كان عهدا ، التقطه جدعان وفرح به ، ولكز حصانه فانطلق جاريا في السهل ، بخياله المبتهج ، نسي وقد انفتح أمامه أفق الاحلام ، اني لا أستطيع مجاراته في الطراد •

* * *

كان جدعان وهو أسير رغبته المستجدة لا يقيم وزنا كبيرا لنفور أم رجا منه • ركن لايمانه بأني القادر على اقناعها فرمى العبء علي واستسلم لنشوة الاحلام • ولم يكن يلحف بالكلام • لكن الحاجه كان ينبجس من العينين اللتين تتقد فيهما اللهفة ، وبهذا أضاف الى همومي هما جديدا • أم رجا جعلتني بيت سرها ، تبثني شكواها من جدعان

بالذات . فكيف اتصرف لاخترق رفضها ، كيف أقنع المرأة المعتزة بنفسها بأن جدعان ، الفطايسي كما تسميه ، ند لها . لم أجرؤ على مفاتحة أم رجا برغبة جدعان . ظننت ان من الاسهل اقناع أبي جمعة فاذا اقتنع نصير اثنين . طرقت الموضوع ، محاذرا أول الامر . تحدثت عن ترمل أم رجا الطويل وحقها في الزواج بعد أن كبر رجا وتزوجت البنت . واستغرب أبو جمعة تعرضي لموضوع كهذا حتى قبل أن يعرف ما أخبئه . ألف أبو جمعة تفرد أم رجا ولم يعد يتصورها في وضع آخر . ومضيت في التمهيد الى أن صار يصغي بغير استغراب . ولكني حين جئت على سيرة جدعان،وقبل أن أفصح عن رغبته، أطلق أبو جمعة سيلا من الشتائم وكرر نصيحته لي بأن أتخلى عن صحبته . وتذرعت بالصبر ، تحدثت عن مزايا صديقي . عن نخوته ، وشجاعته ، ومساعداته للأهالي ونشاطه من أجل المدرسة . وعرضت بأسلوب فاطمة الموسى في تشويه سمعة الناس ، وذكرت أبا جمعة بأنه كان واحدا من ضحاياها ، فهدأ . وفي جلسة ثانية عدت للموضوع ، ثم كشفت عن رغبة جدعان ، أليس في اختياره لأم رجا بالذات دليل قاطع على حسن نيته واستقامة شخصيته ؟ ومع ذلك ثار أبو جمعة من جديد وقد تنبه دفعة واحدة الى مرمى أحاديثي ومناوراتي ، وشملني أنا الآخر بثورته ، على الرغم من حبه لي ، وبكثير من العناء ، نجحت في تهدئته ، ولكني لم أفلح في اقناعه بمساعدتي على اقناع أم رجا ، كل ما حصلت عليه وعد أعطاه ، من أجل

خاطري فقط ، بأن ينقل الى أم رجا طلب جدعـان دون أن يؤيده أو يعترض عليه •

ما وقع بعد هذا كان بمثابة تفجير قنبلة • وهذا ما أدركته عندما جاءني أبو جسعة وهو ينتفض كان على وجهه كمد يكفي لاشاعة اليأس في قبيلة • دخل الحجرة بينما كنت مع جدعان نتهيأ للذهاب الى أحد اجتماعات الحرس الشعبي ، وطلب أن يختلي بي • فلما صرنا وحدنا ، قال باقتضاب معبر : « بهدلتني مع التي لسانها طول ذراع ، وهي تريدك الآن » : واذ اعتذرت باضطراري لحضور الاجتماع قال محـذرا : « تريدك الآن . وأنصحك بألا تتأخر » •

كان خليط من المشاعر يتماوج على وجه أم رجا ، الغضب ، وخيبة الأمل ، والاحساس بالخذلان ، والاستعداد للعراك ، حييتها ، محاولا أن أخترق جدار الجفوة ، فردت التحية كأنها تطلق رصاصة ، ثم انفلت حنقهـا :

ــ أذل نفسي وأرسل في طلبك فتتأخر •

ــ كان عندي ••

ــ أنت ؟ أنت هانت عليك رقية حتى ترميها هذه الرمية •

وهمست بأن أقول شيئا ، لكنها أطلقت زفرة أخرى :

ــ ••• ظننت نفسي عزيزة عليك ، هذا الكلب خرب عقلك •

ثم استسلمت لنوبة بكاء • وكان هذا آخر ما توقعته •

ــ اهدئي ، اسمعيني •

تصوبت الي نظرة مخيفة :

ــ سنين وسنين أصون نفسي ، والآن ، أنت الذي يريد لي الفضيحة •

كنت مستعدا لأفعل أي شيء من أجل أن تتوقف :

ــ ما كان هذا قصدي ، جدعان •••

ــ كبحه وكبحك معه يا حيف على الرجل الذي آمنت له فأراد أن يرميني على مزبلة •

ــ طلب مني أن أتوسط . هذه هي الحكاية •

لم تهدأ ، بل احتدم غضبها ، ولم تجد العبارات الكافية للافصاح عنه ، فأخذت تخبط وجهها بكفيها وهي تعول • اقتربت محاولا أن أمسك بيديها فدفعتني بقوة كادت تلقيني على الارض ، ثم أخذت تنوح بكلمة واحدة تكررها •

ــ أنت •• أنت •• أنت •

وأحنقتني مغالاتها :

ــ مالي أنا ! جدعان شهم ، وهو يحبك . أنت تعرفين هذا ، نساء

كثيرات يتسنينه لكنه يريدك أنت من بين الجميع . لماذا لا تصدقين انه شريف .

التمعت عيناها بدهشة مباغتة .

ــ أنت تصدق ؟

ــ نعم أصدق ، أعيش معه وأعرف كل شيء ، أما أنت فلا تصدقين الا حكايا فاطمة الموسى التي تنشرها في السهل .

جازفت بالادلاء بهذه الشهادة ، وكررت هي السؤال . فالتقطت لحظة الهدوء :

ــ وأكثر ، يعجبه فيك هــذا الاعتزاز بنفسك . وتوهمت ، اذ صمتت ، اني عبرت عنق الزجاجة ، وامتد صمتها طويلا ، وانا المتهم الذي ينتظر النطق بقرار المحكمة :

ــ قل لصاحبك أن يبحث عن غيري . في الديرة كثيرات يرفعن أوراكهن في انتظاره . أما أم رجا فهي أبعد عليه من الثريا .

وما كان لأي قول أن ينفع بعد أن صدر الحكم . كنت ، مسربلا بالخيبة ، أتصيد اللحظة المناسبة للانسحاب .

ــ يا ولدي . أنت مسكين .

وامتدت يدها تداعب رأسي بحركة حانية . ثم رفعته لأواجهها كانت

أمامي • مرة أخرى ملكة الطوارق بنظرتها الآسرة ، وكنت المتعبد الذي يعز عليه أن يعترف بخطيئته •

ــ غر أنت ، لا تعرف الدنيا ، ظننت أن رقية هينة ، وأن شرائط الرقيب ستطوق رقبتها ، وأنا أقول لك : رقيــة تبول على مئة رقيب مثله ولا تتوسخ •

فقلت ، وأنا مستكين :

ــ ما أردت الا الخير •

في تلك اللحظة كنت طوع بنانها ، كنت أشتهيها بكل قوة الشبق التي أختزنها ، وفي داخلي تتأجج نار تلهب روحي ، ولا أملك أن أفصح عن شيء • وعاودني الاحساس بأني في موقف غير واقعي وواقعي في الوقت نفسه • أم رجا وملكة الطوارق • لمسة الحنان والجثث التي يلف النحاس أديمها سرحت مع تموجات الرؤى ، وحين أفقت على هزة يدها المترفقة ، كانت تقف أمامي وأنا جالس ، فنهضت كالمسحور ، وخيل الي للحظة أن يدي امتدتا لاحتضانها • وانها تملصت • ولم يخرجني من خيالي الا صوتها حين انطلق بقوته وحضوره الواقعي • كانت تنادي عائشة وتحثها على احضار الشاي •

في البيت ، أفضيت لجدعان بالنبأ موجزا : « أم رجا رفضت » ، فاستقبل رفضها بغير ضجيج ، وبدا كمن فقد الأمل : « هاجمتها كوحش

فكيف تقبلني ؟ » ثم انصرف لاعداد العشاء مستغرقا في كل حركة .

وبعد العشاء تصرف بهدوء ، اتنعل جزمته ذات الساق الطويل وتلفع بالحطة وحمل معطفه الصوفي : « سأمضي الليلة في الكمائن » وألقى بنفسه في ظلام الليل .

* * *

— ١٤ —

على مشارف درعـا توقفت الجيب التي تقلنـا وسط رتل من السيارات ، كنا ازاء حاجز عسكري أقيم منذ مدخل المدينة • وحـين عرفنا هذا ، أمر جدعان السائق بأن يتجاوز الرتل الذي كان يتحرك ببطء شديد •

كان جنود الحاجز قد أنزلوا ركاب باص وفتشوهم واحدا واحدا • ثم جاء دور الحقائب والسلال والصرر وقد انتثرت محتوياتها على الطريق في فوضى شاملة • وكان الجنـود يسألون عن الوثائق الشخصية ، والفلاحون فوجئوا ، يضجون بالايضاحات والرجاءات ، فلا يتلقون الا التقريع والزجر •

اشتعلت المدينة قبل وصولنا بالمظاهرات • بضعة أسابيع في الريف الراكد كادت تنسيني هموم الوطن الشاملة ، وها أنا ألقاها وجها لوجه ، فيا أيام الحركات المجيدة ما كان أحلى أن تعودي •

فقد جمهور درعا صبره فخرج يتصدى لسلطة الديكتاتور ومع ان

هذه السلطة كانت تعيش أواخر أيامها فقد وجد بين جلاوزتها من ينفث حقده ويأمر باطلاق النار ، وتعمدت شوارع درعا بالدم لأول مرة في عهد الاستقلال ، قدمت المدينة الجنوبية حصتها من ضريبة الحرية .

اجتازت سيارتنا العسكرية الحاجز ، وولجت المدينة التي أخضعت لنظام منع التجول . أخذت عيوننا تمسح الشوارع . فلا تقع الا على الجنود بخوذاتهم الواقيــة ، وأسلحتهم المتنبهة وخطواتهم المحاذرة ، ونظرات عيونهم التي يدورها القلق . وفي الشارع الرئيسي ، تبدت آثار الصدام الذي وقع قبل قليل ، حجارة الارصفة المكسرة ، وشظاياها المبعثرة . وتنف الحطات التي مزقت لتستخدم كمقاليع ، ونثار الزجاج ، وبقع دم ما تزال فيها بقايا وهج ، وأبواب الدور الموصدة ، والحوانيت الخالية التي لم يتمكن أصحابها من انزال مغاليقها ، والفراغ الذي يسكن الانحاء ، ورهبة الصمت . وكان هذا كله اعلانا بأن درعا مدينة محتلة وبأن احتلالها لم يتم بسهولة .

وكنت في وضع غريب ، فأنا الذي تتحرك فيّ سوسة الرغبــة في المشاركة ، أتجول في سيارة عسكرية ، وأعرف أن عيونا كثيرة ترمينا من وراء محابسها بنظرات أحدّ من حجارة المقالع ، كان السائق خائفــا أما جدعان فبدا مشدوها ، تدور عيناه في المشاهد المتعاقبة وهو صامت ، وتتأملان ، وعندما تكلم صديقي ، لم يخف تعاطفه مع الجمهور : « لو

أن كل هذه الخوذ جاءت الى الحدود لصرنا بألف خير » • ووحدتني أنفث : « أمار هذه الخوذ معنيون بحماية أقفيتهم في الداخـل ، واذ تيقنوا من عداء الجمهور لهم فانهم يزدادون شراسة » •

لم تتوقع أن نجد أحدا في السرايا في يوم كهذا ، اذ لم يكن لنا مكان آخر نقصده ، وقفنا أمامها لنسأل • ولما تأكد لنا غياب الجميع ، أراد جدعان أن نفعل شيئا حتى لا نعود خائبين ، فرجا قائد الحرس كي تتصل بأحد المسؤولين في بيته ، وبعد أخذ ورد ، وصلونا بالمفتش محمود عبد الجواد ، وكادت دهشته ، اذ فوجيء بوجودي في السرايا في هذا الوقت، تخترقني عبر سماعة الهاتف • ولعله بسبب ذهوله وافق على استقبالي في بيته للتو •

منذ وقوف الجيب أمام بيت المفتش ، هرع الجيران يحملون قلقهم ظنوا اننا « منهم » واننا جئنا لنأخذه ، ورغم تأكيداته عادوا متشككين • لم يكن في متناول الرجل الطيب ان يلبي الطلب الذي جئت من أجله • وكان على جدعـان والسائق أن يعودا في اليوم نفسه مع السيارة فهما مقيدان بالمهمة العسكرية • وبهذا برزت أمامنا مشكلة • ثم تفتق جدلنا عن اقتراح : تعود السيارة والعسكريان وأبقى أنا ونرى كيف ستنجلي الاحداث في اليوم التالي ، وأتصرف • واذا كانت الاحـوال مسعفة فسيدبر المفتش سيارة من المحافظة لنقلي مع الحوائج • استهواني الاقتراح فأقنعت جدعان بقبوله • وكان بادي الاسف وهو يودعنا •

* * *

ــ خرجت درعا عن بكرة أبيها ــ بهذه العبارة استهل محمود عبد الجواد روايته للاحداث التي أججت جمراته الكامدة •

ــ ••• قبل الاستقلال رايت الناس يتصدون لعسكر فرنسا • اما لعسكر الوطن فهذه هي المرة الاولى • ما اشد جرأتهم ! حوصرنا في السرايا ، جمهور كبير طوقها • اندفعوا بهدير يهدد الاسوار يبغون احتلال المبنى • وامام ممانعة العسكر ، انطلقت الحجارة ، لا تدرى من اين جاءت ، فتكسر زجاج النوافذ ورشقنا نثاره ، فتجمعنا في الممرات • ثم لمنا الممر الواسع الذي امام حجرة المحافظ ، ضاعت الهيبة واختلط الحابل بالنابل ، وكنت اقف وسط الحشد حاسر الرأس لاني نسيت طربوشي في حجرتي وما جرؤت على العودة اليها • حتى المحافظ انطفأت هيبته وهو واقف بيننا ، عاجزا هو الآخر ، وكان ، مثلنا ، يوجه اللوم للحكومة ، وفجأة دوى صوت الرصاص فارتجفت كتلتنا وركبنا الخوف ، فانحدرنا نحو القبو • وهناك توالت الانباء على المحافظ : الجنود اطلقوا النار في الهواء ليفرقوا المهاجمين بعد ان اعوزتهم الوسائل الاخرى ، المهاجمون احرقوا السيارات ، المهاجمون يشدون على البوابة الحديدية ، قذف الجنود القنابل المسيلة للدموع فارتخت الشدة ، اطلقوا زخات اخرى من الرصاص فتراجع الحشد لاحقوه بالقنابل والطلقات فتفرق ، لكن الناس تجمعوا من جديد ، وظهرت المقاليع ، سقط حجر على خوذة جندي فدوخه ووقع فاقد الوعي ، وقع جنود

آخرون • وازداد عدد المقاليع ، فقد ضابط اعصابه فتسلق حديد البوابة وراح يشتم الجمهور ، فرماه واحد منهم بحجر شج فكه ، فقد الرصاص المنطلق في الهواء تأثيره ، واستشرس الجمهور وهو يعاود تقدمه خطوة خطوة ، طلب قائد العسكر الاذن باطلاق النار على الجمهور لكن قيادته لم تجب • وصرخ المحافظ : اطلقوا النار على المتظاهرين على مسؤوليتي وانطلقت القذائف فاختزنا كمدنا ، وهمدنا • سال الدم يا ولدي • لم نكن مسؤولين ، ومع ذلك أحنى الاسى رؤوسنا • كانت انفاسنا تتردد ثقيلة كاننا نتنفس بخار القار • دامت المعركة ساعة ، اي نعم ، ساعة كاملة ، كنت احس ان الرصاص ينغرز في لحمي ، وان اصوات الزجاج المتكسر هي حشرجات الاحتجاج الذي اكتمه في نفسي ، تغلب السلاح واخليت الشوارع • ونقلتنا سيارات عسكرية محروسة الى بيوتنا ، فما افظع ما رأيت •

قلت مقاطعا :

ـ مررت من هناك •

واستطرد هـو :

ـ شاع في المدينة ان عشرات قتلوا ومئات جرحوا ، وان الالوف قد اوقفوا ، اما في السرايا فابلغوا المحافظ عن سبعة قتلى وستين جريحا • والمعتقلون لا يعلم عددهم الا الله ، فالاعتقالات بدأت ليلة أمس ولا

بد ان العدد تجاوز المئات والحبل على الجرار • انتشر العسكر ورجال الامن في المدينة ، والآن تنتصب المشكلة • فجثث الضحايا السبع جمعت في السرايا ، يخافون ان يدفنوها حتى لا يهاجمهم الناس وهم ينقلونها ، ولا يسلمونها لذويها • والغضب يسري في عروق المدينة باسرع مما تسري النار في الهشيم • ويتشاور الناس لتنظيم هجوم جديد من اجل تحرير الجثث وتشييعها بصورة لائقة ، بينما تشترط الحكومة لتسليمها ان يدفن الموتى بغير جنازات • مشكلة ، وقانا الله عواقبها •

وقلت مدركا ان روايته بلغت نهايتها •

ـ بهذا لحقت درعا المدن الاخرى •

وظل محمود عبد الجواد يتكلم :

ـ أنا ابن درعا ، في حياتي لم ارها كما رأيتها اليوم ، غاضبة تغلي بالتحدي • اتعرف ؟

هنا صار حديثه همسا ، مع اننا كنا وحدنا :

ـ ••• الاحزاب كلها متفقة على تحدي الحكومة • هذا الحموي وحد الناس ضده حتى في حماه نفسها • اغلب المدن قائمة قاعدة وقد انقطعت صلتها بالعاصمة • انت تعرف ما بين درعا والسويداء من تنابذ قديم ، مع ذلك فهجوم الشيشكلي على اهل الجبل اثار الناس هنا ، من يومها وهم يتشاورون حتى انفجرت اليوم •

امتد حديثنا الى ان دهمنا زائر تجلت اهميته من حفاوة المفتش به ، كان احد قادة الاحزاب في المدينة ممن يسكنون في الجوار ، قدمه مضيفي الي بهذه الصفة دون ان يسمي الحزب الذي ينتمي اليه لقد تقرر الخروج في مظاهرة جديدة ، وجاء الرجل ليستحث المفتش كي يشترك فيها • كان له منطق بسيط « اذا اتحد الجميع في وجه الديكتاتور فلن يقدر عليهم ، ولا بد من هبة واحدة في وجه الطاغية الذي اذل الوطن وفتك باشجع ابنائه وتركه فريسة للافاقين واللصوص والمرتشين من ازلامه » • وكان منطقه يحاصر المفتش المتهيب ، كانت ظلال التحرج تتماوج على صفحة وجهه • فيما راحت نفحة طيبة تؤجج جذوة الكفاح التي خمدت وتراكم فوقها رماد اليأس وخيبات الامل • ولم يبد الزائر اية مجاملة : « الموظفون قبل بقية الشعب ، عليهم واجب • هذا وقت يتميز فيه الشريف وغير الشريف ، ولكل منهما جزاؤه » • واحتسبني الرجل في زمرة الموظفين فوجه الخطاب لي انا الآخر مفترضا اني من المتقاعسين ولابد ان تعابير وجهي عكست دهشتي حتى تنبه مضيفي الى انه لم يقدمني للزائر ، فتدارك تقصيره ، مضيفا علي اوصافا ضخمتها المناسبة • وبسبب ذلك استنتج الزائر اني من حزبه • ودون انيستوثق من استنتاجه ، خاطبني بلهجة آمرة •

ــ ستكون في المظاهرة • نعرف ان رد العسكر سيجيء قاسيا والموقف لايحتمل اي تراخ • واجبنا ان نصمد •

وبعد انصراف الزائر قلت للمفتش منتقيا كلماتي :

ـ الموت مع الجماعة ارحم من مخالفتها .

فعلق بعد صمت لم يطل :

ـ انت على حق .

ثم صمت لحظات اخرى لينطلق بنبرة جديدة :

ـ ..... اتدري ؟ منذ جرى الهجوم هذا الصباح ، يتولاني احساس لاادري كنهه . والان ادرك ان شبابي يتجدد . ماالذي تعنيه الحياة مع الذل والاستكانة ؟ نعم ، اي حياة هذه اذا كان واحد مثل احمد بك قادرا على ان يركبنا لان ضباط الزعيم ، استغفر الله ، يركبون زوجته .. واذا كان زعيمه يذل عباد الله ويستهين بزعماء الوطن الحقيقيين . وماالذي ابقاه لنا هؤلاء الحكام غير الفاقة ونكد العيش ؟ ووجدتني ابتسم ، فابتسم مجاريا ثم استفسر :

ـ ماالذي عن لك ؟

ـ تذكرت حديثنا السابق

ـ أي حديث ؟

فذكرته :

ـ خليل بك ، الذي نصحتني بمداراته ، صديق للشيشكلي ، لكنه لم يؤخذ بما رميت اليه :

ـ هذه لن تفرح بها . خليل بك قد حاله ، انه اشطر مني ومنك ،

اذا غرق المركب لايبقى فيه تعيش في البطيحة ولاتعرف اخبار سيدها •

ثم دنا مني وهمس :

ــ ••• الرجل يبحث عن خلان جدد •

فقلت شاكيا :

ــ في البطيحة ابتعدت عن السياسة ، لاراديو ولاصحف ولااخبار •

ووجدها فرصة ليحسم حواره مع نفسه ، فشكى ، بغير مرارة:

ــ لعن الله السياسة هاهي تجرفنا مرة اخرى • من كان يظن ان محمود عبد الجواد سيخرج بعد هذا العمر ، في مظاهرة •

* * *

سالت جداول المتظاهرين من الازقة والشوارع الصغيرة ، ورفدت نهر الجموع الذي يهدر في الشارع الرئيسي ، مجرى زاخر تموجت على صفحته الوان الحطات السمراء والبيضاء والطرابيش الحمراء والجزر التي تشكلها مجموعات النساء الصاخبات • اما عساكر النظام فقد انسحبوا من النقاط المفترقة وتجمعوا امام السرايا ليدافعوا عن معقل السلطة • ومنذ امتزجت نقطتان بالمجرى ، احتفظ محمود عبد الجواد بيدي في يده ، وانسقنا مع الجموع • كنت مشوقا للتغلغل وسط اللجة • وظل هو مترددا يؤثر التروي • وكان يصغي الى

الهتافات ولايرددها فحاولت ان استثير همته وانا ارددها بلهجتي الناشزة ، لكنه بقي صامتا . ثم سألته ، فقال معتذرا « كبرت على مثل هذه الاشياء » . كان بروده يصدم حماستي فافلت يده ، ورحت اهتف بصوت اعلى والوح بيدي مع الملوحين على ايقاع الهتاف . ولما التفت اليه ، رايته يضحك من نشازي ، فاغتظت واندفعت الى امام .

كنت فرحا ، مثل طفل يشترك في احتفال اذن له بحضوره بعد حرمان ، مفعما بوهج حماسة تأججت بعد طول ركود ، وركبت رغبتي حتى بلغت الصفوف الاولى ، هنا لم يعد الحال ، بعد ، كما كان ، كانت اندفاعة المجرى تتباطأ وهي تقترب من السرايا ، اما الهتافات فتخرج اشد وقعا وابعد غورا ، ومع كل خطوة الىامام كان ايقاع الهتاف ينتظم اكثر فاكثر ، وكذلك تلويحات الايدي . اتحدت الحناجر والزنود في حركة واحدة ازاء الاسلحة المشرعة ، وكلمة واحدة : حرية حرية حرية دوي هائل ومتواتر واخاذ ، كانت الجموع تقذفه في وجه الطغيان والقهر ، وتتطهر به الصدور من مشاعر التهيب والاستكانة ، تماما كما تنظهر سبطانة المدفع حين تنطلق منها القذيفة .

كان الخطر ماثلا وكان حضوره يزداد مع كل خطوة جديدة .وحين لم تعد تفصلنا عن كتلة الجنود سوى عشرات الامتار ، ازاح ناس مهتاجون اردية صدورهم ، واندفعوا مع الايقاع ، ممسكين اطرافها بايديهم : حرية حرية حرية .

اية روح سيطرت على الصفوف ؟ اندفع الحشد المتقـدم وراء المبادرين ، وامتد مزيد من الايدي ليكشف لحم الصدور • ولم تعد غير امتار قليلة تفصل بين العيون وفوهات البنادق ، عندها ، صاح ضابط بصوت طاغ نار ورد الهدير : حرية ! واختلط الصـــوت بالصوت • وبعد لحظة الذروة هذه ، تتالت الاحداث بسرعة مذهلة ، انهمر الرصاص بين اقدام المهاجمين فاشتعل هياجهم • وسقطت اجساد على الارض فتداولتها السواعد باتجاه المؤخرة وبقيت الاندفاعة على شدتها • وماهي الا لحظات حتى ادار الجنود اقفيتهم ، واندفعوا عبر البوابة ، واقفلوها ، ووقفوا مع زملائهم المحتشدين في باحة السرايا ، وتدافعت الجموع لاقتحام البوابة ، بينما ظل الرصاص ينطلق وافلحت الايدي الممتدة عبر القضبان في الامساك بجندي ، واختطفت يد رجل متيقظ بندقيته وبينما كان الرجل المبهور بغنيمته يحاول تشغيـــل البندقية دهمته قذيفة من وراء السور فاردته وتناول رجل اخــر البندقية وانبطح محتميا بجسد الصريع ، واطلق باتجاه العسكر الذين اذهلتهم المفاجأة فازداد اضطرابهم فاخذوا يتجمعون متراجعين وهــم يطلقون قذائفهم كيفما اتفق • وفي غضون ذلك ، انهالت على الباحة قذائف المقاليع فلم يعد لاضطراب الجنود حد • وتجرأ احد المهاجمين فتسلق قضبان البوابة ، غير ان رصاصة اوقعته ، فتلسق القضبان سواه ، وتكاثر عدد الصرعى • وبغتة ، هدر من داخل الباحة صوت راجف : « نحن مالنا ؟ حلوا عنا ، لانريد ان نقتلكم » • وردت

اصوات : « القوا سلاحكم اذا » وكان عدد من متسلقي البوابة يثب في تلك اللحظة الى الداخل • ولم تلبث البندقية التي غنمت ان اصبحت في يد احدهم فسدد نحو ضابط كان يشهر مسدسه وينظر الى البندقية بقلق •

وكأن قوة خفية ذات قدرة طاغية امسكت الموقف فجمدته • تواجهت العيون دون ان تتحرك ، وخلال دقيقة او دقيقتين ، لااكثر ، جرت المفاوضة الصامتة ، ولما نطق الضابط •• : « هذه طبخة لا مصلحة لنا فيها ، خذوا السرايا واتركونا لحالنا » كان الاتفاق قد ابرم في الواقع • في ذلك اليوم ، استسلمت دار الحكومة •

* * *

بحثت عن محمود عبد الجواد طويلا حتى لقيته في موكب التشييع، فامسكت يده وسرت بجانبه • كان يسير متئدا وهو يحمل اساه ويردد مع المشيعين ايقاعهم الحزين : « لا اله الا الله ، والشهيد حبيب الله » وفي المقبرة احصينا الحفر الجديدة ، فكانت عشرين ، وذكر الخطباء ان جثثا اخرى نقلت الى القرى لتدفن عند ذويها ، كان الانتصار فادح الثمن ، ظفرت المدينة به ، ثم هجعت لتفرغ توترها •

وقبل ان نصحو على صباح جديد ، قنصت السلطة انتصار اليوم

السابق • قدمت وحدة عسكرية جديدة من خارج المدينة بعد منتصف الليل ، وتوجهت بآلياتها واسلحتها الى السرايا ، وتغلبت على جماعة الحراسة الشعبية التي وضعتها لجنة الاحزاب هناك ، ومع الفجر كانت السلطة قد استعادت مواقعها ، وعادت الدوريات تجوب الشوارع ، واعيد نظام منع التجول ، وامتصت السجون مزيدا من الضحايا •

وصار علي ان اجتاز مع محسود عبد الجواد ايام القلق والترقب ، وقع الرجل اسير الخوف من العقاب وقر في ذهنه ان اشتراكه في المظاهرة لن يمر على خير • كان يلوب في الحجرة التي تضمنا ، يخرج ثم يعود ، : « اتظن ان احدا في هذه البلدة الصغيرة لايعرفني ؟ اتظن ان مخبريهم قليلون » ؟ وكنت اهدئه : « في آخر الامر ، لن يحبسوا عشرات الالوف » • لكنه لايطمئن : « انا لست اي احد ، عينهم علي واحسد بك لايحب لي الخير » كانت كل نأمة تأتي من خارج المنزل تحمل له انذارا ، وماكثر ماتواترت النذر ، خبطات الاحذية العسكرية رجال الدوريات ، وازيز السيارات التي تفلح المدينة وتنقل المطلوبين الى المعتقلات ، وحركات المتسللين من سكان الجوار الذين ضاقوا بمحابسهم فاخذوا يتزاورون سرا على الرغم من اوامر منع التجول • اما انا فاسترحت الى اعتقادي بانهم لن يبحثوا عني ، وعزيت نفسي باني لن اخطر على بالهم مادمت غير معروف في المدينة • ومع ان صحبة المفتش كانت ، فيما عدا ضيقي بخوفه ، انيسة ، فقد ضقت بها اخر الامر ، ورحت اتحين فرصة الانفلات •

لاحت الفرصة المنتظرة بعد ثلاثة ايام ، اذنت السلطة بالتجول ساعة الظهيرة فانطلقت من محبسي ، كان الناس في شغل شاغل ، اختصروا انشطة ثلاثة ايام في ساعة واحدة فجرى كل منهم لاكثر من شأن يقضيه على عجل ، ورحت اشق طريقي وسط الحشد الذي اكتظت به شوارع السوق ، وانا اتعجل بدوري الوصول الى الكاراج .

وكان لابد ان امر امام دكان العم عبده ، فلمحت ابا زعل واقفا هناك ، ولمحني هو قبل ان اتمكن من الاختفاء فجرى صوبي

— بهذه المسخوطة على عينيك لن اخطئك ، نسيتني ؟

— كيف انساك وبيننا العيش والملح يارجل

وتفرغ ابو زعل لمؤانستي الى ان وقعت على سيارة ، كان السائق دمشقيا اوصل بسيارته الصغيرة طلبا الى درعا ثم حبسته الاحداث ، وهو يتعجل العودة الى اهله . كان خائفا لتعطله . وظل طول الطريق يشكو وهو يشتم الحكومة والمعارضة معا . وكان وحده ، تقريبا ، الذي يتكلم ،بينما تسربل الركاب بتهيبهم ، وصمتوا .

وفي ساحة المرجة ، في دمشق ، تحررت من السيارة ، والقيت نفسي في عربة الترام المتجهة الى حي العمارة . وولجت الحي الذي آلفه باحساس المفرج عنه حديثا من السجن . كنت اعاين الاماكن كأني اتعرف من جديد ، واتقرى تعابير الوجوه فأجدني في واد والناس في واد اخر . انها دمشق الهادئة ، تبدو مستكينة بعد ان عبرت هي

الاخرى ايام مجازرها واكتست بصبرها المزمن وشعارها الخالـــد « ما من حال يدوم ، فدوام الحال من المحال » •

كان بائع كشك الفقراء يصف زباديه على البلاطة الرخامية ويتهيأ لاستقبال الزبائن بعد ان يفرغوا من قيلولتهم • وكان اللحام مستسلما لاغفاءة داخل دكانه وقد اقفل بابه ليتقي البرد ، وعند مدخل الجامع ، فرد العجوز ، المكتسي بجبتين عتيقتين ، مصحفه على حمالته ، واثقل انفه بنظارته المزدوجة منتظرا صيده من الزبائن الذن يبحثون عن حجب وتعاويذ تفتح باب الحظ وتجلب الخلف وتطرد عين الحسود • وبياع الهريسة كان يقف وراء الصينية التي يلتمع فيها القرص الكبير ، وهو يحمد الله على الستر • وكان الاسكافي ، الذي يقيم بسطته الدائمة امام مقام السيدة زينب ، منكبا على اصلاح حذاء لزبون يقف امامه ، والزبون المرتعش من البرد يداري خجله من ابهامه البارز خارج الجراب المتآكل • وفي زاوية المنفرج ، الذي يشكل ساحة صغيرة قبل الولوج الى زقاق « السبع طوالع » اسلم رجل رأسه لمقص الحلاق ، والحلاق سعيد لانه ظفر بزبون في وقت كهذا ، ومع توالي المشاهد ، التي راحت تطفيء توقدي ، احسست بالحاجة لمن اتحدث اليه في صميم الامور • وكان لدي الكثير مما اقوله لعصام ، وهكذا اتجهت الى منزل صديقي بدل ان امضي الى اهلي •

— ١٥ —

لم نكن قد افترقنا طويلا ، ومع ذلك لشد مافتقدته • كان عصام حزبيا « وهب نفسه للقضية » كما يوصف امثاله • بدأ حياته اجيرا ، ثم عاملا في مهنة الدباغة • وخلال عمله تعلم القراءة والكتابة حتى اتقنهما ، واخذ يلتهم الكتب كلما تيسر له وقت فراغ وتميز بقدرته على اقامة العلاقات وعقد الصداقات الحميمية ، جمعتنا رفقة الحي . وجلسات المناظرة ، والافكار المشتركة ، كان يأخذ علي ذاتيتي المفرطة ، كما يسميها ، وحرصي على النقاوة الشخصية ، يعد ذلك عيبا ولا يفتأ يعنفني ، « انت معنا » كان يقول ، « لكنك لن تغدو واحدا منا مالم تتعلم كيف تتشرب روح الجماعة وتؤمن بالعمل المنظم وتضع كرامة الطبقة فوق احاسيسك الشخصية » •

وحين اتيته ذلك اليوم ، فرد ذراعيه بحركة حميمة ، واحتضنني : « اشتقت لك » قالها وهو يحيطني بمودته • ثم تأملني بعينيه الفاحصتين: « نحلت قليلا » ، وتبسم ثم راح يستفهم عن احوالي •

استمع الي ، استمع طويلا ، واستقصى عن كل تفصيل ، وكان وجهه المتفهم يحثني على الافضاء بكل شيء ، وحين فرغت ، قال عصام : « تغيرت ياسمير كدت افقد الامل فيك ، والان ادرك ان شهرا في الغربة ، في حرارة التجربة ، كان انفع لك من نصائحي طيلة سنوات » ، لشد ماكان متواضعا وتبسم ثانية . ثم اكتسى وجهه صرامة الجد التي تنبىء ، عادة ، بانه سيقول شيئا لايسرني .

ـ لن تسمع مني المجاملات وحدها .

انتضى عصام مطرقة النقد :

ـ ... تأبيت ان تقيم في سرايا الاقطاعي ، هذا سلوك صحيح ، لكنك حين رحت اليه من اجل المدرسة ، نسيت المدرسة ، وسكرت على شرفة قصره . اخذك الزهو فأردت ان تستعرض ثقافتك امام خريج الجامعة الاميركية ، ولما ثملت شتمته ، فأي خير جنيته من هذا كله دافعت عن لينين والنظام السوفياتي ؟ هل كنت تحاول ان تقنع اقطاعيا بايديولوجيا الطبقة العاملة ؟ ماالذي نابك من الاسترخاء على مائدة البك سوى الاساءة لسمعتك عند الفلاحين ، بدل ان تدخل لقلوبهم بترفعك عن الاستفادة من مزايا الاقامة في السرايا ؟

قلت :

ـ انهم لايفكرون على طريقتك ، مامن احد احتسبها علي ، البك بالنسبة لهم هو الكل في الكل .

ـ انت مخطىء •

قالها باقتناع تام •

ـ ••• جئتهم بجديد لم يألفوه من الموظفين حين رفضت نعيم السرايا • وكان عليك ان تثبت هذا في اذهانهم حتى يفتحوا لك قلوبهم• من عرفت من الفلاحين ؟ المخبر ، والدكنجي ومن على شاكلتهم ، اين مددت علاقاتك ، لم تدخل خصا او بيت شعر الا في زيارات عابرة • والسكن ؟ اخترت الاقامة مع رقيب سيء السمعة • وبدل ان يستغرقك الهم العام ، توهمت انك مصلح اخلاقي يساعد الرقيب على التخلص من عقدته ، فما الذي جنيته سوى اثارة شكوك النقيب عطية بغير داع •

كانت هذه اوجع الضربات • وانبريت للدفاع عن صديقي الى ان تراجع عصام :

ـ قد يكون مظلوما ، ولعل فائدته لك هي بالمقدار الذي تصوره ، لكن عليك ان تحاذر ، بسببه احاطتك المخابرات بشبكة من المراقبين •

ـ طيب سأكون حذرا •

نطقت بالعبارة ، وادركت ، لحظتها ، مغزاها ، وفطن اليه عصام ، فتأملني صامتا • وشجعني صمته فخطوت خطوة اخرى •

ـ هل حان الوقت ؟

ــ في رأيي نعم . اذا كانت هذه رغبتك ، وآمل ان أعرض المسألة مع الحزب قبل سفرك .

وايقنت اني فزت . عصام نفسه اخذ ، بعد هذه المقاطعة ، يحدثني كمسؤول :

ــ الصيادون،هذه الفئة ما رأيك في ان تلقي بذورك بينهم؟والفلاحون الفقراء علاقتك بهم يجب ان تكون وثيقة اما برجوازيو الريف الصغار الذين استهوتك طرائف حكاياهم ، فيمكن الاستفادة منهم في انيكونوا نوافذك الى الآخرين ليس الا، ألا توافق على ذلك؟ نحن على بداية طريق طويل ، اهون مافيه اسقاط الديكتاتورية . المعارك الاصعب ستأتي بعد هذا ، معنى ذلك ان حركتنا يجب ان تعتمد على الزنود الصلدة . نحن لانتعجل جني الثمار ، لكن الرخاوة غير جائزة .

ــ والمدرسة ؟

سألت ، فجاء الرد بصيغة توجيه :

ــ هذه هي مهمتك الرئيسية في الوقت الراهن ، فمن أجلها انت هناك اليس كذلك ، اذا لم تفلح في فتح المدرسة فسينظر اليك اهــل المنطقة نظرتهم لمن سبقوك ، ولن تكون قد فعلت شيئا حتى لو نجحت في جعل رقيبك قديسا وزوجته المرأة التي فتنك اندفاع شخصيتها ! حين دخلت بيت عصام كنت مزهوا بما قمت به . بعد حديثنا الطويل ادركت اني لم اجيء برأس كليب .

ـ يجب ان نساعدك

قال عصام ليستعيدني من شرودي ، واضاف :

ـ لسنا بغير حول في درعا عندما تعود الى البطيخة ، سنعمل على أن تصلك الحوائج . لكن ، حتى بدونها ، المفروض أن تبدأ . جيء بالتلاميذ الى المدرسة وعلمهم على السبورة ، احك لهم ما يفيدهم . عندك المبنى وهذا ليس شيئا قليلا ، فألوف القرى تفتقر للمباني المدرسية ثم ما هذا الاقطاعي اليس من الافضل ان تتجنبه قدر الامكان وتستفيد من طيبة النقيب عوني وحبه للتعليم ؟ اما ضابط المخابرات فضع في حسابك انه لن بحل عنك بعد ان اثرت وساوسه بصراحتك الملعونة . ورقيبك الذي فتنك حبه للعمل العام اذا شعرت بأن رهانك عليه خاسر فلا اطلب اليك التردد في التخلي عن نوازعك الاصلاحية .

وتشعب الحديث بعد هذا ، كنت في غربتي النائية ، قد طال ظمأى للذي أخذ عصام يرويه ، كان ملما بأحوال البلد . وكان مستجيبا فبسط امامي الموقف العام بالتفصيل . اراد ، كما قال ، ان اكون على معرفة بالصورة ، لان احداثا كبيرة على وشك ان تقع ، ولكل منا دوره . كان قادة الاحزاب والرأي العام قد التقوا قبل ايام . وقد وضعوا برنامج حركتهم للاجهاز على الديكتاتورية . واتفقوا على اجراء انتخابات عامة بعد سقوطها . لا احد يريد بقاء الطاغية . والجيش يتفكك من حوله

وينقسم . في طول البلاد وعرضها يحتدم الجدل وتتوالى الانتفاضات في المدن . طلاب الجامعة السورية في انتفاضة شبه دائمة تشحذ الضمير الوطني وتبقي الفتيل مشتعلا . الضباط المتذمرون يبحثون عن اقنية للاتصال بالسياسيين . والعمال يعطون للتحرك عصبه الفتي ، والمهنيون، والادباء ، والفنانون ، تحرك شامل ، وكل شيء يفور . التماعة ما قبل الفجر تبشر باقتراب الفجر الصادق .

ـ لابد من قطع راس الافعى .

ـ هكذا اوجز عصام المسألة .

ـ ... نشحذ همسنا بحدودها القصوى ، ونبتلع المرارات . النضال الديمقراطي ينبغي ان يتقوى بكل الروافد ، حتى المليئة منها بالشوائب ، كل زند ، كل صوت ، كل كلمة ، لها قيمتها حتى تكتسح الدمامل التي عطلت ساق التطور الديمقراطي .. اقول لك هذا حتى لا تعاودك اوهام الطهارة . الطهرية تعزلنا .. نعرف ان علينا ان لا نفقد اليقظة . لا اوهام بشأن ما ستفعله الاحزاب البرجوازية حين تستعيد سرج السلطة ، سينقلبون علينا دون شك ، يقدمون لنا ورود المجاملة الآن حتى نشيل عبء الصدام مع الديكتاتورية . ينافقون العمال والفلاحين واحزابهم ، لكنهم سيرموننا غدا بالرصاص اذا تراخينا ، سيستأثرون بالعنب . لكننا بحاجة اليهم ، والا فحكم البساطير ، نحن نشكل طبقة ناشئة وصغيرة وزمام المبادرة بيد البرجوازية ، مع البرجوازية

لاسقاط الديكتاتورية من اجل الديمقراطية ، ثم مع التقدميين الآخرين لمتابعة السقوط •

حين غادرت المنزل الذي يكتنز اسرار الفجر ، كان ليل الشتاء يفرد ستائره القاتمة فوق حواري حي العمارة • ويبث كتل العتمة في أركان الازقة وتحت القناطر •

طرقت الباب الذي يكاتف ابواب الزقاق الضيق ، فجاء الصوت العميق مع تساؤل الوالد « من » ؟ ولما اعلنت عن نفسي ، كنت أدرك أني اهدي الجسد المنهوك رعشة فرح • ايها الصابر ، خذني بين ذراعيك ، واضغط بقدر ما أبقى لك جهد الفرن من قوة ، آتيك خالي الوفاض الا من شوقي واحترامي ، وتفهم دون أن تسأل فلا تشكو ، واقرأ على صفحة وجهك تجملك بالصبر حتى لا تنفلت الشكوى من محابسها •

ضمتنا مودة الجو العائلي ، احاطت بي ثرثرات الاخوة ومناكفاتهم، ولما همد الوسن حركتهم ، بقيت عيونهم معلقة بالذي عرفوا انه لـن يلبث ان يرحل من جديد • حتى اغلقها ، وبقيت لنا ، انا والوالد ، هدأة مابعد منتصف الليل ، اخذنا واعطينا وطرق موضوعه الاثير : « ليس هذا وقت هذا » كان ، في العادة ، يفصح عن عدم اقتناعـه بتقطيبة جبين ، أما هذه المرة ، فالتقطيبة اقترنت بالأسى ، فقد كان يدرك ان الظروف غير مواتية •



- ١٦ -

حين اشرفت على مشهد البطيحة ، ايقنت أن شيئا كثيرا في قد تبدل، لم تعد المنطقة ذلك المكان الغريب الذي قذف بي نحوه قرار حكومي جائر . كنت اعود لمكان نبتت بيني وبينه ألفة ، ولي فيه ناس اشتاق لهم وشؤون يستهويني الانخراط فيها . ما ينبسط امامي كان المشهد ذاته الذي رأيته قبل اسابيع ، لم يتغير . لكن ما اشد ما تغير احساسي نحوه . كنت مقبلا عليه كالعائد الى بيته ، اما ما تركته في دمشق ، فصار بيت الأسـرة .

سلوكي تبدل هو الآخر ، عندما جئت اول مرة كان ينسد في وجهي طريق فأظنه سيستمر طويلا والآن صرت ابتكر الوسائل للنفاذ عبر العقبات. والمشاكل التي أورثتني الغم أخذت تنحل بأيسر مما قدرت . انتظم عمل المدرسة من غيران يرتهن بما تجود بـه درعا ، قسمت التلاميذ علـى الحجرتين وتعلمت كيف اشغلهم بما يستفيدون منه . انف رجـا من القيام بتنظيف المدرسة وجلب الماء واوكل الامر لعائشة ، فلم اضـق ، بل رأيت في هذا مزية تعفيني من مواجهة الختل في العينين الجاحظتين

وحكاية حب جدعان شاعت في المحيط وتداولها الناس بين مدهوش ومعجب ومستنكر ، ولم تبق سرا يثقل صدري • وجدعان نفسه وبالرغم من انه لم يتلق الاشارة التي تفرحه ؛ لم يستسلم لليأس ، ظل يعلن رغبته باستقامة والحاح ، واخذ يحث الوسطاء على التدخل ، دون كلل ، وام رجا ، التي تمسكت بالرفض لم تعد لهفة جدعان تستفزها ، بل صارت تصغي بهدوء للحكايات التي يتطوع اولاد الحلال بنقلها عن مزايا جدعان • وخليل بك ، الذي يبدو ان المشاغل السياسية في العاصمة استحوذت عليه لم يظهر في المنطقة لمدة طويلة • اما أزلامه فانهم انتهوا الى احتساب وجودي امرأ واقعا ، مثل الشر الذي لابد منه ، ودأبوا على تجاهلي والتصرف ازائي ببرود، اذا وضعتني الظروف في وجوههم•

اما من ناحيتي، فقد انقطعت عن السهر في بيت رجا ، وخصصت وقتا أطول للالتقاء بالناس الآخرين ، كنت في أغلب الايام ، اقضي العصارى في دكان ابي جمعة حيث صار لي مجلس دائم يؤمه العديد من أهل القرية وكثيرا ما كنت ارافق جدعان عند الغروب في لقاءاته مع عناصر الجيش الشعبي • ثم طلبت من جدعان ان يسجلني في الحرس ، وفي اماسينا في البيت صرنا نتبادل الخبرة ، يدربني على السلاح ، واعينه في فهم المقرر للشهادة المتوسطة • ولم البث ان اخذت دوري للمبيت مرة كل اسبوع ، في الكمائن •

ليلتي الاولى على شط النهر كانت حدثا لن انساه • ارتديت ما هيأه

لي جدعان من الثياب الدافئة وحملت البندقية ، وتوجهت معه الى لقاء الغروب حيث يقوم بتوزيع الكمائن • ومن محاسن الصدف ان دور الصياد موسى الصالح حل في تلك الليلة • واستجاب جدعان لطلبي فضمنا كمين واحد ، وكان ثالثنا جنديا يفترض النظام ان يكون هو الآمر • ولما حان وقت توجهنا الى الكمين ، خجل الجندي من ان اسير وراءه من كان يتصور نفسه قائدا للاستاذ الذي يجالس الضباط ويسكن مع حضرة الرقيب ، لكنني هونت الامر عليه وابقيته في المقدمة وانا اتبعه• كان الكمين حفرة شقت على حافة النهر وكوم ترابها ليصلح مساند للسلاح ، وفي العادة يتناوب الكامنون الثلاثة النوم ، يغفى اثنان ويسهر الثالث • وشاء الجندي المتحرج ان يعفيني من نوبتي فأبيت •

ثم اقترح ان اسهر الثلث الاول من الليل ، ولم يقبل اعتراضي • والذي حدث ان الجندي والصياد سهرا معي ، وحين صار من حقي ان أنام لم تواتني الرغبة • وهكذا واصلت السهر مع موسى الصالح بينما اغفى الجندي ، ولم نحتج لايقاظه بعد هذا •

لم يكن تبادل الحديث مسموحا به في الكمائن ، فالاسرائيليون يقيمون كمائنهم على حافة النهر المقابلة ، وفي هدوء الليل يمكن للغط ان يثير الانتباه • مع ذلك يبقى تبادل الحديث الهامس ممكنا برغم التعليمات وكم كنت سعيدا بالهمس الذي تبادلته مع الصياد •

في تلك الليلة بالذات تأسست علاقتي بموسى الصالح ، ولم تنقطع بعدها • حين فهمت ان توقه اشتد للسيكارة تعهدت بان استره عـن العيون المتلصصة في الجهة الاخرى بمعطفي حتى ينتهي ، ثم بادلني الخدمة ذاتها ، وكان امتنانه عظيما • واعظم منه كان عقله الذي انفتح على ومضات الوعي ، ثم لم ينغلق ابدا • ذكرته بالحكمة التي تفوه بها عفو الخاطر عندما التقتيه اول مرة ، وأفضت في الحديث عن الحماية التي يوفرها لنا انخراطنا في اللجة بدل البقاء على الحواف • كان الليل امامنا ، وكانت رحلتنا طويلة في عوالم الهموم المشتركـة للكادحين الشرفاء • وعند اطلالة الفجر ايقظنا الجندي ، ثم رافقت موسى على طريق العودة الى بيته •

كانت الكلفة قد امحت ونحن نستدفيء بكأس شاي وحين استأذنت في الانصراف لم يتركني الصديق الجديد قبل ان يحصل على وعد مني بأن أزوره مساء الغد لأظفر بوجبة السمك الذي سيعدها بنفسه •

ــ تريد ان تثبت لي انك خير الصيادين •

قلت هذا مطريا •اما هو فظن اني اشكك بتفوقه :

ــ اسأل من شئت انهم يعترفون لي بالسبق •

فقلت :

ــ لا اعرف منهم سواك ، فكيف احكم ؟

ـ اعرفك عليهم بنفسي ، على العشاء سنلتقي باجدعهم •

وهل كنت اتمنى اكثر من هذا ؟ لقد نست سحابة ذلك النهار وانا موقن بان بذرة جديدة تهيأت تربتها •

في اليوم التالي ، تأكد يقيني ، ففي بيت موسى الصالح ، وجدت ، في الانتظار ، عددا من امهر صيادي القرية ، كان حلولي بينهم حدثا بالنسبة لهم ، وهذا ما عكسته حفاوتهم الشديدة بي منذ قدومي ، وعنايتهم باية كلمة اتفوه بها او حركة تصدر عني • اذا نظرت ناحية الماء بادر احدهم لحمل الابريق لي ، واذا اظهرت اعجابي بسمكة وضعوها امامي مقسمين على ان تكون من نصيبي ، وحين فرغت من الاكل كان الثلاثة منهم يزاحمون مضيفنا ليصبوا الماء على يدي •

ومع كؤوس الشاي التي تبعت العشاء الشهي ، راق الحديث وامتد • واذ لم اكن خالي الغرض فقد أدرت حديثنا بما يخدم هدفي • ولأن الحكمة التي تعلمتها من موسى الصالح ، شاقتني ، فقد توسلت الدخول الى عقولهم بما يعرفونه معرفة يقينة ، بالفرق بين سمك اللجة وسمك الحواف وقد شاقهم هذا المثل مثلما شاقني وتوالت حكاياتهم تؤكد ما رميت اليه ، حكايا بسيطة ومعبرة ، مستقاة من خبراتهم • وحدثني احدهم ، وهو يتلمس استخلاص الحكمة العميقة ، عن سمك البربوط . هذا السمك حيوان برمائي يترك قطع النهر ، ويخرج الى

الشطوط ليرعى العشب ، وهناك يمسكونه بغير عناء وختم حكايته : معك حق ، فنحن لا ننجو اذا لم نحتم بالتيار •

كما ان للصيادين نمط سلوكهم المتميز فان لهم ايضا ، لغتهم الخاصة بهم • وهذا ما اوجب علي ان اكثر من الاستفسار عن معاني الكلمات التي يتداولونها ، فوجدوا اشياء يعرفونها ولا اعرفهـا فتبسطوا في الشرح ، وكانت الحواجز تذوب تباعا •

بعض صيادي البطيحة « يسرحون » في قوارب وهذه يملكها تاجر دمشقي يقيم في المنطقة طيلة الموسم ، يدفع للصياد ليرة ونصف عن كل سرحة ويستأثر بالسمك ايا كان مقداره • والسريحة هم اكثر الصيادين خضوعا للابتزاز ، فموسم الصيد يحل بعد ان تنحسر موجة الحر في الخريف ويتعثر في ايام الشتاء الماطر وينتعش في اسابيع الربيع الاولى قبل ان يهجم حر الغور من جديد ، لا يصطادون في الايام الحارة لان السمك يفسد بسرعة تحت اللظى الذي تتجاوز درجة حرارته الخمسين، والواح الثلج التي يجلبها التاجر من دمشق لا تصمد في جو لاهب كهذا ، وان صمدت بضع ساعات فان السمك سيفسد على الطريق • والى هذا ، فان سرحات القوارب تواجه المعوقات التي تتواتر يوما بعد يوم • الزوارق لا تصيد في النهر ، اما البحيرة فهم يمضون اليها خلسة ، لان اتفاقية الهدنة بين سوريا واسرائيل جعلت البحيرة كلها وشريطا عرضه عشرة امتار من شطوطها في البطيحة ، تحت سيطرة اسرائيل •

وهكذا يعد النزول الى البحيرة ، حتى من اجل الصيد أو السباحة ، مخالفة ترصدها تقارير المراقبين الدوليين الذين يقيمون مخفرهم على الشط ، وتتصدى لها اسلحة البحرية الاسرائيلية . في النهارات تظل القوارب في مخابئها ، وفي ليالي التوتر والاستنفارات يتعذر نزولها الى الماء . وفي الليالي المقمرة يكون النزول مخاطرة . الليالي المعتمة او الغائمة هي وحدها التي تستر الباحثين عن القوت . يهبط الصيادون بعد استحكام الظلمة ويعودون قبل انبلاج الضوء . وفي كل الاحوال ، هناك معوقات اخرى ، حنق الضباط اذا اختلفوا مع التاجر او احد صياديه حين يستثقلون طلباتهم او طلبات اصدقائهم وأقربائهم ، وقد يفلح التاجر في الضغط على امار المواقع المحلية باسترضاء رؤسائهم فوق . لكن هؤلاء الامار لا يعدمون الوسائل لتلبية حاجاتهم : يجورون على الصيادين ، أو يزودون قياداتهم بتقارير تؤدي لاعلان حالة الاستنفار ومنع اية حركة ، زيادة على الاستنفارات التي تعلن لاسباب وجيهة . كل هذا هين امام خطر الزوارق الاسرائيلية التي ترصد الحركة على صفحة البحيرة في الليل ، كما في النهار ، « عندهم » ــ قال صياد عتيق ــ « زوارق ترى القشة تحت الكحل ، وهم يفاجئونك بالاضواء الكاشفة فلا تعرف كيف تهرب ، تجوب زوارقهم البحيرة ، تمتص السمك من جوفها وتلاحق الصيادين العرب » ، وهناك البلاء الاكبر ، التاجر نفسه، قد يلقى صياد أو آخر نصيبه من رصاص الاسرائيليين لكن الآخرين ينجون ، وقد تنال احدهم علقة من عسكري او دركي حانق ، لكن

استرضاء الحانقين يبقى واردا ، اما هذا التاجر فهو الذي يملك وسيلة الرزق والنقود ، واذا سخط على واحد منهم انقطع رزقه وحلت به الرزايا ، وهو لا يعفو عن احد اذا سخط عليه ، ولو حاول المنبوذ ان يصيد لحسابه بالشبكة او الخيط فمن الذي سيشتري الصيد منه ؟ .

صيادون آخرون يسرحون بالشباك ، يتدبر واحدهم رزقه من الغدران الراكده او من الشواطيء الضحلة . ويظفر في العادة باحط انواع السمك . فيشتريه التاجر نصف ليرة لكل رطل زنته ثلاثة كيلو غرامات . والفالح منهم من يظفر في اليوم برطل او ورطل ونصف .

والشباكون آفتهم الجنود ونواطير ارزاق البك وخدمه .

اما صيادو السناره والخيط فانهم الفرسان ، وجلسائي تلك الليلة كان بعضهم من هؤلاء الفرسان ، تخترق سنانيرهم مجرى النهر ، والغدران العميقة ، وتشد سواعدهم اجود انواع السمك واكبره حجما . وفي الغاب فتيان اشداء حتى اذا امتص الكد فتوتهم في السنين صاروا صيادي شباك او سريحة زوارق . او عافوا المهنة . هؤلاء يشتري التاجر جناهم بليرة كاملة عن كل رطل ، يصيد واحدهم في اليوم بضعة ارطال ، والتاجر يدللهم ، يؤمن لهم حاجاتهم من المدينة بسيارته ، ويسلفهم النقود وينجدهم بسلف كبيرة عند الملمات .

حين قلت لمحدثي اننا نشتري كيلو السمك في دمشق بثلاث او اربع

ليرات في عز الموسم ، وحسبت لهم كيف يساوي هذا المبلغ اضعاف ما يدفعه التاجر ، تبادلوا نظرات مشدوهة • وتهيأ الجو لحديث ، لم يطرق آذانهم من قبل ، امتدو صفا مع هدأة الليل ، القيت حفنة بذور فانبتت فكرة تأسيس جمعية تعاونية للصيادين ، كانت الفكرة جديدة وغامضة ، لم يفهموا مضمونها لكن سوسة الصحو على مستقبل افضل اخترقت حجب المألوف • وانهالت الاستفسارات وتواعدنا على لقاء آخر •

* * *

تركت مجلس الصيادين وروحي نشوانة ، كنت احسني خفيفا مثل فراشة • وعندما عدت للبيت كان جدعان يقظا لا يواتيه النوم ، كما قال لي • واذ لاحظ طيب مزاجي ، اقترح ان نخرج لنتمشى ناحية البحيرة ، فرحبت بالاقتراح ، ثم عدل اقتراحه فصار علينا ان نتجول على الكمائن حتى نصل الى الشاطيء ، وبعدها نتنزه على هوانا ، نتمشى و « نؤدي الواجب » •

اجتزنا الدور ، ثم سلكنا درب الدورية الذي يعرفه جدعان كما يعرف راحة كفه • ومن كمين الى كمين ، اوصلنا الدرب الى مخفر الحاصل ، المبنى الصغير الذي تخفيه الاجمة عند المصب • كانت الليلة معتمة ، وفي الوقوف على الشط خطر كبير فلم يتح لي ان اتملى الموقع

الذي طالما استهواني وهكذا بقيت في مبنى المخفر . قبل قيام اسرائيل كان هذا المبنى يستخدم كنقطة مراقبة بين سورية وفلسطين ، بناه الفرنسيون يوم كانت فلسطين مبتلاة بالاحتلال البريطاني وحده ، ثم اصبح منذ عام ١٩٤٨ نقطة عسكرية لها اهميتها في هذه المنطقة ، لانها تشرف على السهل عبر النهر وعلى جانب واسع من شاطيء البحيرة ، وكان في النقطة مجموعة من الجنود وعدد من عناصر الحرس الشعبي يقودهم رقيب من زملاء جدعان ، وقد اقاموا كمينين خارج المبنى ، واحدا ناحية النهر ، والآخر ناحية البحيرة . تفقد جدعان الكمينين ، ثم انتقلنا الى الداخل حيث تنام بقية الرجال . وأخذ جدعان يتبادل حديثا هامسا مع زميله بينما رحت اتأمل المصب ووجوه الحاضرين الوسنانة وحين نبهني جدعان التواق لنزهة ليلية على الشط ، رجوته ان نأخذ طريق الشاطيء ، ناسيا انا كنا اتفقنا بالفعل على هذا .

سرت وراءه محاذرا ، كما طلب مني ، لئلا يصدر عنا صوت ، قال اننا سنمر بجانب البيت الذي يقيم فيه المراقبون الدوليون ، وما كان جدعان يحبهم ، بل بدا لي من حديثه انه يضيق بوجودهم ، فهؤلاء الاجانب الذين لا يعرف رطانتهم ، لا يبعثون في نفسه الثقة . وفهمت يومها ان وجود العساكر في مخفر الحاصل محظور ، لان طرف مبنى المخفر يقع ضمن الامتار العشرة التي تلي الشط وتعدها اتفاقية الهدنة ارضا اسرائيلية ، وعلى هذا يتسلل اليه العساكر تسللا ، حريصين على

ان لا يلحظهم المراقبون الذين يجاورونهم ، وحريصين كذلك ، على اخفاء اسلحتهم بحيث لا يحتفظون في المخفر الا بما يمكن تخبئته فيما لو داهمتهم دوريات المراقبين هؤلاء .

عندما حاذينا الفيلا الصغيرة ابتعد جدعان عنها قليلا ، ثم التقط حجرا وقذف به ناحيتها وقال وهو يهمس فرحا مثل طفل : « سوف ترى الآن كيف نشغل بالهم » استهواني عمله وهو يرمي حجرا بعد حجر وانا اترقب رد فعل نزلاء الفيلا . ولم يلبث ان أز بابها الخارجي وأطل احدهم بملابسه الداخلية البيضاء وفي يده مصباح بطارية ، يديره محاولا ان يستكشف ما اقلقه . داهمتني ضحة كتمتها ولاحظت ان جدعان يكتم هو الآخر ضحكة تغالبه . وانتظرنا الى ان اغلق الرجل باب الفيلا ثم انطلقنا . كنا منتشيين وحين اطل القمر ، وصار بدرا مشينا عدوا .

وصلنا قرية تقوم بيوتها عند حافة البحيرة ، وقصد جدعان بيتا يشع الضوء من شقوق بابه ونادى : ابو غسان فانفتح الباب ودعينا الى الدخول . كان البيت قاعة فسيحة ، جلس في ركنها ابو غسان الذي حزرت انه تاجر السمك ، وكان مع الرجل نفر من اعوانه ، يستدفئون حول موقد في حطبات متقدة وفي اركان القاعة الاخرى توزعت الصنادين المعدة لاستقبال السمك ، والميزان ذو الكفتين الكبيرتين المربوطتين الى حامل معلق في السقف بحبال مجدولة من اسلاك الفولاذ والحجارة التي تقوم مقام المكاييل ، واشياء اخرى من هذا القبيل ، متجر بدائي ، مثل

كل شيء في هذه المنطقة ، له هيئته المكمن الذي يترصد القادمين ليسلبهم احمالهم ، وابو غسان نفسه له هيئة تتسق مع هذا الوضع ، فهو ، بالرغم من غناه الذي لا ينعكس الا في سلوكه مع رجاله ، يبدو مثل قاطع طريق الجأه البرد الى وكره المختفي فاحاط نفسه بمن يحمونه من المداهمة ، كل شيء فيه ، ملابسه ، شعره الكث ، لحيته التي لم تحلق منذ ايام ، نظرة عينيه المخاتلة ، وقعدته الزرية في القاعة التي يخنقها مزيج الدخان ورائحة السمك ، وكذلك قلقة لان القمر اطل والسريحة لم يعودوا بعد يؤكد ان الرجل لا يجمع ثروته بيسر .

لم يبدر عن التاجر ما يشي بانه فوجيء بزيارة الرقيب في وقت كهذا . كان كمن الف مثل هذه الزيارات . واستقبلنا بحفاوة مدروسة ، واشار لاحد رجاله فقدم لنا الشاي . كان الرجل قد تجاوز الخمسين ، وفي وجهه قساوة صياد احترف منذ شبابه . اما ملمح الهناء الوحيد فتبدي في الكرش الذي ينغرس امامه ولا يبدو ان صاحبه عني في اي وقت من الاوقات بايقاف نموه . والملمح الذي يدل على مهنته تمثل في حركة عينيه ، ففي هذه الحركة خبث التاجر المحترف الذي الف استغلال الناس في هذه المنطقة الفقيرة . وقد التقط نظرتي المتفحصة وافهمني بنظرة صريحة عنه انه التقطها ثم قال موجها الخطاب لي :

ــ هذه اول مرة يشرفنا فيها الاستاذ . انا اسمع عنك ، نحن بلديات ، ومع هذا انت لا تزورنا .

لم أجب ، مططت شفتي ، وبقيت صامتا .

ـــ ... الرقيب جدعان اخونا .

قال هذا وهو ينظر لجدعان ، ثم حول نظره الي :

ـــ ... وانا سمعت انه صاحبك .

فقلت ، غير قادر على الاستمرار في تجاهل رغبته في محادثتي :

ـــ انا الآخر سمعت عنك .

ولا بد ان نبرة صوتي حملت شيئا لا يعجبه فكف عن مخاطبتي . ولعل جدعان استشعر برودة حوارنا ، فشاء ان يعدل الموقف :

ـــ ننوي ان نأكل سمكا طازجا . سنذيق الاستاذ سمك ابي غسان.

فقال التاجر بغير حماسة :

ـــ قريبا يرد السمك ، انزلنا الليلة قواربنا ، ولا بد ان تعود .

أول قارب عاد ، دخل رجاله وهم يشيلون شبكة كبيرة تكوم في داخلها السمك من اصناف عدة . ونشط رجال التاجر ، هيأ احدهم الشاي للقادمين الذين جلسوا مسندين ظهورهم الى الحيطان وتولى آخرون عملية الوزن وتوزيع الصيد حسب اصنافه على الصناديق . وباشارة من التاجر انتقى احدهم سمكتي مشط كبيرتن وانتحى ركنا من اركان القاعة وأدار لنا ظهره حتى قشرهما ، ثم ربطهما بخيط شكه في فتحتي الفوهتين وقدمهما لجدعان .

قال جدعان للتاجـــر :

ـ لم تزنهما ، اظنهما نصف رطل ، ومع ذلك اعطيك ليرة كاملة ، اكثر مما تدفع للصيادين •

ورد التاجر غير مرتبك :

ـ عيب •• سمكنا كله على حسابك •

فانتهزه صديقي :

ـ مع جدعان ، هذه لا تمشي ، انا لا آخذ السمك بالمجان •

ـ هذه المرة نحسبها من اجل خاطر الاستاذ •

فدس جدعان ورقة النقد في يده بحركة مؤنبة :

ـ العب غيرها ، الاستاذ ، مثلي ، لا يقبل المنة •

وحين خرجنا من القاعة المزكومة بالعبق الخانق ، كانت نسمة رخية تهب من ناحية البحيرة ، وفجة ضوء حبي تلوح من وراء التلال الشرقية ، هديتان من هدايا الطبيعة انعشتا جسدي وروحي ، سرنا في طريق العودة الى قريتنا تحثنا النسمة من خلفنا وتستخفنا انبلاجة الفجر التي تواجهنا وفي الطريق اقتربنا من عين ماء دلنا عليها قبل ان نبلغها جرس مائها الذي يشبه لغو الرضيع حين يصحو • رغبت في جرعة من الماء الرائق فتوقفنا • وبللت وجهي ببرودته التي تطرد الوسن • وقلدني جدعان شرب ، وتمطى ثم واتته فكرة فهتف :

ـ لماذا لا نجلس هنا ونتفرج على شروق الشمس ؟ منذ جئت الى

البطيحة لم ار طلعتها مرة واحدة • في ديرتنا كنت اراها كل صباح •

ـ فكرة فاتنة كما ينبغي ان تقول بالنحوي يا جدعان وطرأت له فكرة اخرى :

ـ نشوي السمك ونأكله هنا •

فقلت ، مستجيبا لاشراقة روحـه :

ـ بضعة اصباح اخرى وقليل من القراءة تصبح بعدها شاعرا •

قال جدعـان :

ـ ذكرتني ، انا اهمل التحضير للشهادة •

ثم انصرف يبحث عن الحطب ، حاولت مساعدته ، لكنه توقف وهو يشتكي :

ـ اف كل العيدان رطبة ، ستعمى عيوننا قبل ان تتقد •

وقال بعدهـا :

ـ ••• ابق هنا ، سآتيك بالحطب •

ومضى ليجلبه من اقرب البيوت • وعاد بعد قليل يحمل بيده عودا متوهجا ويحتضن حزمة جافة • وحين افلحنا في ايقاد النار كان صاحب البيت الذي قصده جدعان قد وصل الينا ومعه صاجان • وضع جدعان السمكتين في قاع احدهما وغطاه بالثاني ، ثم جعل الحطب من تحتهما وفوقهما واجج النار ففاحت رائحة الشواء ، وسرى طشيشه مختلطا

باصوات خرير الماء وتقصف العيدان تحت اللهب ، كان صباحا لا ينسى •

* * *

الجلسة الثانية مع الصيادين ، كانت ايضا ، في بيت موسى الصالح ، كان عدد الحضور اكبر وكانت المناقشات احد ، وبدا لي ان بعضهم حضر من اجل ان يناكف ، وهؤلاء لم تستهوهم فكرة الجمعية التعاونية ، وكان لهم منطقهم ، يسرح الصيادون الآن على هواهم ويدبرون امورهم على نحو او آخر ، وفي نهاية المطاف يحصلون على رزقهم • وقد فهموا ان ابا غسان سيقاوم الجمعية • وقد قال لهم ان تأسيس الجمعية سيفتح أعين الحكومة ، وعندها سيطالبون بالرخص والاوراق والذين ليس لهم قيود شخصية ، كما هي حال غالبية السكان ، فلن يظفروا بها ، والاخرون لن يظفروا بها بسهولة على كل حال ، ثم ان البك لن يرضى ، فما لهم وما للمشاكل ، لماذا يفتحون على انفسهم باب الرزايا ، واذا غضب التاجر وغضب البك فكيف يسوقون صيدهم • بعضهم دافع عن التاجر ، قال انه رجل طيب ، وان نجدته لهم في الضيق مضمونه ، وآخرون تحدثوا عن خوفهم من انتقامه ، واستشهدوا بما حل بزملاء لهم سبق ان تحدوا التاجر ففقدوا وسيلة عيشهم وكان لهذا المنطق تأثيره ، بل انه استأثر بتأييد غالبية الحاضرين • ولم يكن لدى ما اعدهم بـه لاحباط مقاومة التاجر والسرايا سوى دعوتهم الى التكاتف •

ــ التاجر محتاج لعملكم ، انه لا شيء بدونكم ، اذا تكاتفتم سوف يرضخ . قلت هذا ، واشياء مثله ، فانبرى لي صياد مسموع الكلمة ، اسمه ابو خالد ، كان طيلة الوقت يصغي :

ــ انت هنا اليوم وغدا في مدينتك ، فلماذا تريد ان تبدل ما الفناه ؟ حتى لو وافقك الموجودون هنا ، فهل سيوافق الاخرون ، ما الذي سيفعله سريحة القوارب ، افرض اننا اتبعنا رأيك وعادينا ابا غسان فاقفل متجره وسحب عدته من اين سنأكل ، هل ستشري لنا عددا وسيارات وقوارب ، اترك هذا ، ودعنا لما نحن فيه .

وبان التحرج على موسى الصالح ، وشاء ان ينجدني :

ــ الاستاذ يريد صالحنا .

فانتهره الرجل :

ــ اسكت انت . ما الذي تشكوه من حالك ، يوميتك بكذا ليرة تأخذها من ابي غسان ، فلاي شيء تسعى لقطع الارزاق .

وايده كثيرون .

كنت غريبا بينهم ، وكانت الخبرة تنقصني والذين ايدوني ما كانوا يعرفون اكثر مما اعرف عن الخطوة التالية ، كانوا يتأملون بالحصول على وضع افضل ، وظنوا اني قادر على ان ادلهم عليه ، ولم اشأ ان اخسر قضيتي دفعة واحدة ، فقلت :

— اني ادعوكم للتعاون فيما بينكم ، بهذا تحصلون على الحقوق التي يسرقونها منكم ، السعر اطلبوا سعرا افضل ، الوزن ، اطلبوا ميزانا حديثا حتى لا يغشكم التاجر في الوزن ، وسواء اسستم جمعية تعاونية ، ام لا فهذه حقوقكم .

ووجد قولي هذا بعض الصدى ، حتى ان ابا خالد الذي انبرى لمعارضتي ، اطرق :

— في هذه ، معك حق .

واتصل الحديث ، وتكرر في جلسات تالية ، في بيوت اخرى ، كانت الحلقة تضيق لكن الاراء تتقارب ، صرنا ، كما يكمن القول ، جماعة يشار اليها ، سمانا المحايدون جماعة الاستاذ . والمستهزئون سمونا جماعة الليرة ونصف لاننا طلبنا ان نرفع سعر رطل السمك الى هذا الرقم .

ابتلعت الارض امطار الشتاء ، وجففت السماء ارديتها وفرش الربيع المبكر الغور بشميمه الخاص من مزيج رائحة الارض والخضرة واسرار البحيرة . والغور ، الذي تصب عليه الشمس شواظها منذ مشاغله الكثيرة في الربيع المبكر . ففيه تعطي المزروعات جناها وينشد الفلاحون بكليتهم كي يصونوا جهد الموسم ووعوده فلا تمتصه الاعشاب الطفيلية او الحشرات او الامراض . وفيه يفيض السمك فيضا فيستأجر

ابو غسان شاحنة كبيرة مع الاخرى الصغيرة التي يسلكها لينقل كنوزه الى العاصمة • ويغدو الفلاحون اكثر كرما وتبلغ الانشطة الاجتماعية ذروتها فتنعقد اتفاقات الخطوبة وتبرم صفقات المهور تبعا لجودة المواسم ، وتقام احتفالات الختان وتوفى النذور من الذبائح وتتراكم الهدايا عند الحاج راغب الحمود مقابل التعاويذ التي تطرد الشر عن الزرع والضرع والناس ، او الحجب التي تجلب لهم الحظ •

كنت قد انتهيت لأن اصبح شخصا مألوفا في القريـة ومعروفا في القرى المجاورة ، وكنا قد كسبنا عددا مناسبا من الصيادين من اجل مشروع الجمعية التعاونية ، وخلال ما عانينا من اجل تشكيلها نبت مشروع آخر : ان نقيم دورة لمحو الامية • جاءت الفكرة بعد حوار بيني وبين موسى الصالح الذي كان اوفر المرشحين حظا لقيادة الجمعية حين تقوم • وبث هو الفكرة بين رفاقه وتحمس لها جدعان ، وقد كان في نوبات اهتمامه بالدراسة قبل امتحان الشهادة • وهكذا تعاونا ، تعهد جدعان بتوفير السكاير العسكرية الرخيصة لمن ينتسبون للدورة ، حتى من غير ربح ، واشترى الصيادون لوكسين كبيرين للاضاءة ، ودفع المنتسبون ثمن حاجياتهم من القرطاسية والكتب •

كان يوم افتتاح الدورة يوما مشهودا ، كما يقال ، اقمنا احتفالا خاصا ، حضره اهل القرية كلهم ، وجعلنا النقيب عوني ضيف الشرف فرأى ان نستضيف قائد الكتيبة ايضا • وشاء جدعان ان يضفي على

الاحتفال شيئا من الابهة ، فنظم مجموعة من الحراس الشعبيين ودربهم ليقدموا التحية بالسلاح للقائد الضيف ، انهمكنا طلية اليوم في الاعداد ، فلما قدم الضيوف كان الاستقبال لائقا ، خطبت في الحشد ، وخطب قائد الكتيبة ، ولما دعوت النقيب عوني ليقول كلمة لم يجد ما يقوله ، احتقن وجهه ، ثم تخلص من حرجه بان اخذ يحيي الحشد بحركات حارة من يديه . ووقف الفلاحون مبهوتين امام الحركات التي يرونها لأول مرة، فتدخل جدعان لانقاذ نقيبه . وهتف : يعيش النقيب عوني « وحين لم يستجب احد لهتافه امرهم بان يعيدوا ما يقوله ، وكرر الهتاف فرددوه ، ثم هتف يعيش الاستاذ سمير وهتف لقائد الكتيبة بهذه الصفة لأنه لا يعرف اسمه . وتحمس موسى الصالح فهتف : يعيش حضرة الرقيب جدعان فكنت اعلى المرددين صوتا وقد ابهجتني هذه اللفتة من الصياد وعددت ترديد التحية مكافأة يستحقها صديقي عن جدارة .

بعد الخطابات ، أبقينا الحشد خارج الحجرة ، وأدخلنا اليها المنتسبين وحدهم ، ودخل معهم قائد الكتيبة وقائد السرية والمختار ، وجلسوا على مقعد في الصف الاول ، بينما انتصب جدعان أمامهم في وقفة عسكرية مهيبة . يومها تعلم المنتسبون طريقة لفظ حرف آ وكتابته ، حصتهم الاولى من المعرفة الحديثة .

ثم فاجأنا النقيب عوني بدعوة للعشاء ، قائد الكتيبة والمختار والوجهاء وأنا على مائدته ، والمنتسبون مع جنود السرية ، وحين ضمتنا

المائدة صرنا جمعا كبيرا تكتظ به الحجرة ، وفوجئت بوجود أبي حسان ، لم يكن قد حضر الاحتفال أو دعي اليه ، وكنت قد نسيته تماما في الايام الماضية ، ويبدو أن النقيب عوني أرسل من يدعوه ويلح عليه في حضور العشاء . وجهت لأبي حسان تحية مجاملة فرد متجهما ، ثم لم يبادلني الحديث بعدها ، وذهبت بي الظنون بعيدا الى أن أفصح بنفسه عما يحنقه :

ـ دعوتم كل الناس ونسيتم أهل السرايا ، عيشتم كل الناس ولم يخطر خليل بك على بالكم مع انه صاحب الفضل على الجميع .

قال المختار مبادرا :

ـ خليل بك على راسنا .

ودار بعينه على الحاضرين مستطلعا تأثير عبارته ، ثم لم يقل شيئا .

اما النقيب عوني ، الذي كان في أول سكرته ، فقد زعزعه التحرج ، واذ لم يجد ما يرد به على غمزة الوكيل الحانق ، التي يراها في محلها ، فقد دارى تحرجه بجرعة كبيرة وتشاغل باقتطاع شريحة من سمكة أمامه . وأخذ يلوكها وهو ينظر الى السقف ، وتدخل ضابط دمشقي يقضي في السرية مدة خدمته الالزامية .

ـ لو كان البك موجودا لعيشوه .

كان هذا كافيا لو ان أبا حسان شاء أن يلفلف الموضوع . لكن الوكيل تلبسته روح الشر وأمعن في اظهار سطوته .

— « من لا ينسى فضل البك يحفظ حقه حاضرا وغائبا . اذا كنتم أنتم نسيتم فنحن لا يناسبنا ان ينساه الفلاحون . هذه الديرة لها راس ان ضاعت هيبته انفرط النظام . أول مرة يجري في البطيحة شيء بدون معرفة السرايا . ان كانت عيونكم مغلقة فعيوننا مفتوحة على الآخر ، نعرف الغلط ونراه .

قال قائد الكتيبة دون كبير اهتمام :

— لا تكبرها .

غير أن الوكيل لم يتراجع :

— انها كبيرة .

فرمى قائد الكتيبة النقيب عوني بنظرة لائسة ، فتشجع النقيب دون أن يفارقه حرجه :

— لا تعكر مزاجنا . عندما يحضر البك فان حقه عندي .

وصمت أبو حسان لحظات قذفني خلالها بنظرات مقرعة ، ثم دار بنظره في وجوه الآخرين ، وحين التقت عيناه بعيني النقيب عوني قرأ فيهما توسل النقيب بأن لا يفسد السهرة ، ولكن روح المكابرة ركبت الوكيل الغاضب لكرامة سيده .

ـ نعم انها كبيرة ٠

قالها بنبرة مجلجلة ٠

ولعل النقيب عوني أراد ان ينهي هذا كله ، فوقف فجأة ورفع كاسه واقترح ان نشرب نخب الوطـن ونخب الجيش الذي يحمي الوطن والمواطنين جميعا ٠

وقف الجميع بحماس ، وجرع الشاربون كؤوسهم ، ثم جلسوا ، أما أبو حسان فانسحب من الجلسة دون أن يفطن لذلك أحد ، سواي أنا والنقيب ٠

* * *

مع قدوم الربيع ، بدت البطيحة كأن يد ساحر خارق القدرة قلبت صورتها واذا كل ما فيها نشيط يفور بالحيوية ، كان الخصب الذي تفيض به الحقول يبشر بموسم جنى جيـد ٠ واستعد الجميع لأيام العمل القادمة ٠

أول امارات الاستعداد تمثلت في افتتاح السوق ٠ قدم سمسار الخضار حسين الفار ومعه أعوانه وخيامه وموازينه وأكوام الاكياس والصناديق الفارغة وحركة الشاحنات التي يملأ ضجيجهـا الفضاء ، انتصب السوق في الخلاء الذي يمتد امام السرايا وماج بالحركة التي لا تهدأ من اشراقة الضوء حتى مغادرة آخر شاحنة قبيل الغروب ٠ وبدا

حسين الفار سيد هذه الحركة وموجهها ، العلم الذي تتجه اليه الانظار كافة وتنتهي عنده المطالب والرجاءات والآمال ، يحتكر هذا الرجل بالاتفاق مع سيد الارض ، حق تسويق خضار المنطقة ، ينظم دائرة مغلقة يلف الفلاحين في فلكها وتستص تعب أيامهم • فهو الذي يبيعهم الادوات والبذور والعبوات الفارغة ، وهو الذي يسلفهم النقود على مدار العام ليحتسبها مع فوائدها ، على الموسم • وعندما تبلغ نشوة الفلاح ذروتها بجودة الموسم يبدأ العد التراجعي ، ويصير عليه ان يفي ما يسجله عليه دفتر السمسار ، ويدفع ، فضلا عن هذا ، أثمان العبوات ورسوم القبان والنطارة والتحميل والشحن وضريبة الدخل قبل أن تغادر خضاره البطيحة ، ثم تشيل الشاحنات الحمولة الى العاصمة ، وهناك يتولاها شريك السمسار ، يبيعها لحساب الفلاح الذي يتوجب عليه أن يعيد كرة الدفع وتأتي الفاتورة الى السمسار بعد ان يقتطع الشريك لنفسه خمسة بالمائة كعمولة • فاذا وصلت الفاتورة الى دفاتر حسين الفار يقتطع ثلث المبيع سلفا لحساب مالك الارض ، وخمسة بالماية أخرى لحسابه هو ، ثم تتوالى الاقتطاعات عن بقية الرسوم والاجور فان فاض شيء منها لحساب الفلاح احتسب سداد للديون المتراكمة ، أما اذا لم يوف الثمن ، كما تظهره الفاتورة ، بالاطلاق ، وهذا ما يقع من وقت لآخر ، فان الفلاح الذي خسر جني كده ، يدخل على الفور في حلقة الديون التي تدور لحساب الموسم القادم ، ليظل فريسة هذه الحلقة الجهنمية •

منذ وصل حسين الفار ، ارسل يطلبني لمقابلته . في السرايا حيث يقيم هو وكبار أعوانه ، فلما أبيت أن أزوره ، جاءني ، متحاملا على كبريائه ، الى حيث أقضي العصارى أمام دكان أبي جمعة . وطلب ان يختلي بي ليحدثني عن حاجته لرجا كي يعمل وزانا عنده في فترة الموسم . شرح غرضه بلباقة سمسار محترف يدرك أن طلبه سيلبى في الاحوال كلها . وأجبته بأن هذه مسألة يطلبها رجا وليس هو ، فقال : « احسبها على عمك حسين ، واذا راعيت خاطري فان خاطرك عندي كبير » كان يعجم عودي وما كان بحاجة للمساومة فأنا لا املك ان أمنع رجا وهو السقاء الذي لا يلزمه عمل في المدرسة رسميا بغير تأمين الماء ، فضلا عن انه يتمتع بهذه الرعاية كلها من ضابط المخابرات والمتنفذين الآخرين ، ومع ذلك لم أتعهد بوعد بات .

في المساء ، تشاورت مع جدعان ، وكان جدعان يبيت في نفسه تدبيرا ونصحني بأن أستجيب على الفور لطلب السمسار وأترك رجا يشعر بالامان من ناحيتي ، وبعد أن انتظم السوق ، نفذ جدعان تدبيره ، استقدم رقيب الدرك ، وأرغمه على أن يشهد كيف يغش رجا في الوزن لصالح السمسار ، ويعد ضبطا بالواقعة .

كانت فضيحة مجلجلة ، حدث الموسم ، كما سماها جدعان بفصحاه، وهو يعلنني بسدى فرحه اذ تمكن من ان يتصرف بحكمة هذه المرة . وانداحت أصداء الفضيحة، انقسم الفلاحون بين مصدق ومكذب وطاش

صواب أم رجا التي ظنت ان جدعان ينتقم منها هي بالذات . وعادت تحتثي على مقاطعته • وجاءني النقيب عوني بوجه كأن هم الدنيا كلها تكوم فوق سحنته • كان يرى ان جدعان ورط السرية في ما لا يعنيها ، ويعتقد ان خليل بك وسمساره نظيفا اليدين من الغش ، وان الامر لا يعدو كونه غلطة وقع فيها الفتى عن حسن نية ، بينما تجند صيادونا وأصدقاؤنا الآخرون للدفاع عن تصرف جدعان وفتح ملف الاستغلال والغش الذي يفترس أرزاق الفقراء ، وبثوا فكرة تأسيس جمعية تعاونية لتسويق الخضار • وعلى الشط تحسب تاجر السمك فاعتدل ميزانه وزاد عـــدد الارطـــال التي تسجلها دفاتره لحساب الصيادين ، كانت الفضيحة حجرا سقط بعنف وسط بحيرة الوعي فزعزع ركودها •

لكن الذين طالتهم الفضيحة لم يقفوا بغير دفاع ، ولم تلبث النتائج أن ظهرت : تلقى رقيب الدرك أمرا عاجلا بنقله الى درعا ، واستدعي جدعان للتحقيق عند المخابرات ، وبدأ أعوان البك والسمسار التهديدات الى نشطاء الصيادين بقطع صلتهم بي ، وحمل هاتف مخفر الدرك برقية لي من مدير المعارف أحمد بك كانت البرقية تسجل علي اني أشترك في تجارة السكاير ، وهذا ممنوع ، وتقرعني لاني افتتحت دورة لمحـــو الامية بدون استئذان المديرية ، وتأمرني بايقاف الدورة حتى يتم التحقيق في المخالفات العديدة التي ارتكبتها •

وجاءتني عائشة ، تحمل حزنها وخجلها ، ودعتني للقاء حماتها ،

قالت ان ام رجا لم تأت بنفسها لانها لا تدخل البيت الذي يسكنه جدعان • وفي طريقي اليها عرجت على دكان أبي جمعة لأصطحبه معي فوجدت الدكان مغلقا ، ثم وجدت أبا جمعة في انتظاري عند نسيبته ، كان الموقف صعبا بالنسبة لي ، بالرغم من أن أيا منهما لا يتهمني بأن لي دخلا في الحكاية • كان لوجه أبي جمعة قتام حجر بازلتي أما آم رجا فكانت مهتاجة :

ـ طلبوا رجا لفوق • هذا نتيجة خبث صاحبك ، سيرحلون رجا كما رحلوا عمه ، فيا خراب بيتك يا رقية •

كيف اطمئنها ان لم احك لها عن صلة رجا بالمخابرات وهل كان من شأن هذا الا ان يزيد حزنها واذلالها ، قلت مهونا الامر :

ـ النقيب عطية يعرف رجا ، ولن يظلمه •

لكن قولي لم يهدىء هياجها :

ـ رحت للوكيل فقال لي : لماذا لا تستعينوا بصاحبكم الاستاذ الذي تفردون له المناسف يا لشماتة الاعداء بك يا رقية اذا خرج رجا حيا من تحت أيديهم فبأي وجه يقابل الناس بعد الفضيحة ، تقع المصيبة على راس الولد لاني لم ارم نفسي على الرقيب •

كانت تتحدث ، وراسها ينوس وهي تلطم خديها على ايقاع نوسانه ، وكانت دموع صامتة تسح من عيني عائشة التي لا تجرؤ على الافصاح

عن مشاعرها • وكان أبو جمعة مسربلا بالكآبة ، وعيناه مزروعتان في الحائط • كيف أتصرف ؟

ــ •• اسمعي يا ام رجا ، ربما يضايقك ما أقوله ، جدعان رجل شريف ، أما رجا فسيعود اليك سالما لانهم •••

فصرخت في وجهي كأني أشتمها :

ــ تقول : شريف هذا الذي يريد خراب بيتنا •

ــ أقول ان رجا سيعود سالما • حطي يديك في ماء بارد من هذه الناحية ، أنا أعرف ماذا أقول •

هنا فقط ، تدخل ابو جمعة :

ــ •• أنت تصدق ما يقولونه عنه يا اخي ، يا ليت هذا صحيح حتى يسلم راسه •

في نوبة هياجها ، لم تنتبه لمغزى كلامه • وكان قوله بابا فتحه لي أبو جمعة كي ألجه لوضع الحقيقة امامها ، لكني جبنت ازاء حزنها وخشيتي من جرح مشاعرها • وبنظرة متواطئة ، رجوت أبا جمعة ان لا يمضي في هذا الحديث ، لكنه لم يلتقط اشارتي ، بل تابع :

ــ •• أنا اسمع أشياء ••

فقاطعته بنبرة تدعوه للسكوت :

ــ المهم ان يعود رجا لأمه ، وهذا ما أضمنه .

ابتلع ابو جمعة بقية عبارته غير فاهم لماذا أصر على اسكاته ، اما المرأة الملتاعة فحملت قولي على محمل آخر . توهمت ان لي نفوذا أعد باستخدامه لحماية ابنها ، وبدأت تستعيد هدوءها ، ولم أشأ ان افوت الفرصة دون ان ادافع عن جدعان .

ــ صاحبي لم يقصد ان يسيء لرجا ...

وافضت في شرح طويل ، انتقيت عباراته على مهل ، عن الاذى الذي يلحق الفلاحين كلهم من البك ومن السمسار وأعوانهما ، كانت تصغي ساكنة الحركة والتعابير ، ما دمت لا أطرق سيرة رجا ، فصار الامر أسهل ، وافترقنا بغير عداء .

بعد أم رجا ، زرت النقيب عوني ، استثرت فيه حمية الرئيس تجاه مرؤوسه ذكرته بشهامة جدعان وخدمته الممتازة في السرية التي يرأسها هو ، حثته على التدخل كي لا يؤذيه النقيب عطية . كان النقيب عوني مرتبكا ، فهو في دخيلة نفسه يحب جدعان ، ولكنه يخشى الاصطدام مع السرايا والمخابرات ، ويضيق بخشيته منهما ، وعد بأن يتدخل غير أني لم أعول كثيرا على مقدرة جواد السرية العتيق هذا ، كان النقيب عوني ، يفتقر الى الهمة .

في البيت ، وجدت في انتظاري رسولا بعث به ابو حسان ليأخذني الى السرايا ، أعطيت الرسول جوابي فانصرف مدهوشا ، ثم تمددت محاولا ان اعيد ترتيب أفكاري التي تركزت على مصير جدعان ، بعد قليل ، فوجئت بالوكيل يقتحم عزلتي ، وحيدا ، مع عرجه وحنقه :

ـ البك وصل ، وهو الذي يطلبك •

ـ تعرف اني لن أذهب اليه ، فحل عني من يريدني يأت الي ، هذه هي القاعدة على كل حال •

لين ابو حسان نبرته :

ـ اسمع لا تنشف رأسك نحن بلديات وعلي ان أهديك ، خليل بك ليس غبيا ، وهو يعرف ان جدعان لا يعملها من رأسه ، اذهب اليه وهدئه والا فلن تفوت على خير •

قلت ، غير مستجيب لليونته :

ـ جئت تهددني أو انك تنقل تهديده •

فزفز ورماني بنظرة لائمة •

ـ ما انشف رأسك اسعى اليك بنفسي لأمنع عنك الاذى، وانصحك كأب وابن بلد فلا يفيدني هذا ، أقول لك : ان لم تسترضه فسيصيبك بلاء كبير • سمعته يهدد ، وانا اعرف ما الذي يقدر عليه ، فاسمع من عنك ابي حسان ورح له •

كان يعيد نصائحه بغير فائدة • ظل يحاورني طويلا ولم يفلح في اقناعي ، الى أن يئس فانصرف محنقا كما جاء •

وبعد يومين رجع رجا ولا اخبار عن جدعان • روى الفتى انهم أفرجوا عنه بعد ان ثبت بطلان التهمة التي رماه بها الرقيب واستعاد قبان السمسار نشاطه بحراسة زلم السرايا الذين أحاطوا به وهم يحصون على الفلاحين المتشككين حتى نظرات عيونهم • وتوالت المضايقات ، نشط الوكيل فصادر مواشي من تكلموا ضد السرايا ، بعد ان اتهمهم بتسريحها لترعى في أملاك ليست لهم • وهاجمت جماعة ملثمة موسى الحسين في داره وهو نائم وأوسعته ضربا وهددته • وتجهم وجه ابي غسان تاجر السمك وأنذر جماعة الصيادين بالتوقف عن التعامل معهم ان هم تجرأوا على تحدي المألوف • وجوابا على المطالبة بتأسيس جمعية تعاونية تحرك مخفر الدرك يسأل الصيادين عن رخص الصيد •

زرت النقيب عوني مرة أخرى ، كان يرى هذا كله ولسان حاله يقول : « العين بصيرة واليد قصيرة » استدعاه خليل بك وقرعه لأنه يغض الطرف عن سلوك جدعان • وجماعة المخابرات أظهروا له العين الحمراء • كان تحرجه يزداد فغرق في الشراب ممعنا في الانطواء على نفسه • تحاصره همومه القديمة وهمه المستجد ، وهو يغرق فيها أكثر فأكثر • كل ما استطعت ان استخلصه منه انه تلقى وعدا بأن جدعان

سيعود الى السرية حين يفرغون من التحقيق معه ، لكنهم لا يعرفون متى سيتم هذا ، فالامر مرهون بمدى استجابته في التحقيق .

أما ابو جمعة فانفرد بي ليكرر نصائحه عن العين التي لا تعلو على الحاجب وعن خشيته من سطوة البك وانتقامه . سألته عن ام رجـا ، فاعترف لي بأنه كشف لها حقيقة صلة رجا بالمخابرات ، وذلك من أجل ان يطمئنها حين كان موقوفا ، وان حالها تبدل بعد ان عرفت الحكاية ، ومنذ رجع رجا وهي تلوب ولا تدري ماذا تفعل ، ولا انكر ان اعتراف أبي جمعة حمل لي نوعا من الراحة فقد أزاح عن كاهلي عبئا ، وفتح لي طريقا لأعيد صلتي مع المرأة التي لم أقع على مثلها . تدبرت زيارة بيتها في وقت كان فيه رجا في السوق ، فلم أجدها وأسفت كثيرا ، لكنهـا جاءت بنفسها في اليوم التالي الى المدرسة ، وقفت في ناحية من الباحة الى ان لحظتها وأنا بين التلاميذ فخففت اليها .

يصعب علي ان اصفها كما رأيتها في تلك اللحظة ، كانت امامي امرأة من نوع جديد ، كأني لم أعرفها من قبل ، مكسورة الخاطر بحيث يكاد تطامنها يرشح من عينيها ، وأنيسة مثل أخت ، وحيدة مثل عاشقة ، في آن واحد :

ــ عرفت الذي تعرفه عن رجا ، ما اضيع تعبي ظننته كبشا مع انه نعجة ! من أجله أضعت شبابي وهو يتلصص على خلق الله ويبيع ذمته .

لم أجـد ما أرد بـه ، فلذت بالصمت ، وانا أبحث في ذهني عن عبارة مناسبة •

ــ •• لن يبقى عندي ، طلبت منه أن يبني لنفسه بيتا يسكن فيه •

كانت تتكلم وهي تتجلد كي تبـدو قوية ومتماسكة لكنهـا لم تلبث ان اجهشت في نوبة بكاء ، وحين استعادت سيطرتها على نفسها ، صوبت نحوي عينين استخلص الاعتراف المجهد بعض اساهما وقالت بنبرة من استرد أنفاسه للتو :

ــ ••• ما اكثر من تأذوا بسببه من خلق الله ، عشت شريفة ويطلع من بطني هذا الابن •• وبصقت ، ثم عدلت قامتها وهي تنظر في عيني :

ــ •• ليست أم رجا التي تقبل الدنية ، لن أضعها واطئة امام أحد • باع عمه البيض للاسرائيلي ولم تذلني شماتة الناس فينا •

قلت مشجعا ، ومأخوذا بعزة نفسها :

ــ لن يخيب ظني بك • انت امرأة قد حالها ، هذا ما اعرفه •

سألت هي فجأة •

ــ ماذا قالوا لك عن الرقيب ؟

لم تحمل نبرة السؤال أي مغزى خاص ، لكني التقطت مغزى هذا الاهتمام بصديقي ، وفسرته لصالحه •

ــ جدعان قد حاله ، هو الآخر ، لن يطب •

وظل سؤالها معلقا في عينيها حتى أخبرتها بما اعرفه فقالت :

— حين يرجع ، قل له : أم رجا سألت عن راحته .

اية رسالة في هذه الكلمات القليلة! كانت أعز رسالة أحملها لجدعان. ووجدتني أمسك يديها وأهزهما محييا وممتنا ، فلم ترتبك ازاء حركتي المباغتة بل قالت بغير تأس :

— مات زوجي ، ووحيدي مثل الاموات . أما انت فمعزتك عندي كبيرة ، وحبابيك لهم علي واجب .

تمنيت لو ان جدعان كان قريبا حتى أطير اليه وأرى فراشات الفرح تنطلق من عينيه . لم أفتقد جدعان منذ أخذوه كما افتقدته في تلك اللحظة . واذا صح ان للانسان حاسة سادسة فان ما حدث بعد انصراف أم رجا يؤكد وجودها . عدت الى التلاميذ وانا افكر بجدعان ، وتمنيت لو انهم جاءوا وأخذوني ليحبسوني معه حتى أراه ، ولم تمض غير دقائق حتى وقفت جيب عسكرية وهبط منها رجلان وتقدما نحوي وانا أخرج لاستقبالهما مدفوعا باحساس غامض لا أتبينه . أوضح أحد الرجلين بعبارات مقتضبة انهما من طرف النقيب عطية ، وقد جاءا لأخذي ورجاني بنبرة حازمة ان أصعد للجيب بغير ضجيج ، حتى لا تتعقد أموري .

امتثلت للامر . وقبل ان نجتاز القرية ، رجوت ان يتوقفا لحظة أمام

دكان ابي جسعة حتى اشترى علبـة سجائر • وهكذا ضمنت انتشار نبأ اعتقالي •

أخذت الى المعسكر الكبير الذي تقع فيه قيادة اللواء ، على منتصف الطريق بين البطيحة والقنيطرة • اجتازت الجيب بوابة المعسكر ، ودلفت عبر أبنية متفرقة ذات طرز فرنسية ، ثم توقفت أمام واحد منها منزو تكتنفه شجرات كينا عتيقة • واقتادني الرجلان الى حجرة نظيفة ومرتبة ، ظننت انها حجرة نقيبهم ، وبقيا معي الى ان دخل ضابط شاب يضع شارة ملازم على بزة الميدان التي يرتديها ، فأديا التحية وانصرفا صامتين ، بينما اتجه الملازم الى المكتب وجلس وراءه دون أن يدعوني للجلوس •

ـ انا متعب ، هل أجلس ، أم ان هذا مسنوع ؟

ـ اجلس •

قالها برما • فجلست • ومن غير ان استأذنه ، أشعلت سيكارة ، وبحثت بعيني عن طفاية ، ولما رأيت انها على المنضدة وسط الحجرة ، انتقلت الى كرسي آخر لأصير قريبا منها ، كنت أتحرك وأنا أراقب بامعان ردود فعل الشاب ، وكان يتأملني بنظرات باردة ولا يتكلم • فسألته :

ـ أنت جديد ؟

فلم يرد . بل تشاغل بتقليب أوراق أمامه . فألحفت :

ــ أسألك ان كنت جديدا ، تبدو مهذبا ، نحن لم نتعارف ؟

دفعة واحدة ، انفجر حنقه :

ــ كف عن هذا ، انك موقوف ، ولا حق لك في توجيه الاسئلة .

كان غرا ، وصار علي ان أتعامل معه على هذا الاساس :

ــ الزعيق لا يناسبك ، ظننت انك مجند ولست من محترفي هذه المهنــة .

فتسلسل ، محاولا ان يحيط نفسه بالمهابة ، وهتف آمرا :

ــ اسكت ، واسمع .

وتوالت التهم ، كانت كثيرة وهي نفسها التي حذرني منها نقيبه : بث الدعاية السياسية بين العسكريين ، نشر الافكار الهدامة ، وتحريض الاهالي ضد النظام في منطقة عسكرية لا تحتمل القلاقل ، الطعن بسياسة الحكومة والقدح في المقامات العليا ، واحدة جديدة : تكوين تنظيم غير مشروع يتستر وراء الدعوة لتأسيس جمعية تعاونية .

واتصل التحقيق ، كان حوارا اكثر منــه تحقيقــا على الرغم من محاولات الملازم لفرض سطوته ، كان الشاب ، كما حزرت ، غرا وكان مجندا وليس محترفا ، تخرج من كلية الحقوق قبل عامين وبنفوذ أسرته

الميسورة وضعوه في المخابرات . بعد ساعتين من الحوار بدا المحقق مزعزعـا .

ـ أقوم بواجبي ، هذا هو الامر بالنسبة لي ، وانت تخالف الانظمة، ولو لم أكن في الجيش لكنت في المعارضة .

وأخذت باعلانه ، فاندفعت :

ـ مئات الضباط انضموا للمعارضة ولم يترددوا ، وانت ترى الى أين تنحدر الاحوال ، يكم النظام الافواه ويقمع النشاط السياسي ، ويمنع المظلومين من المطالبة بحقوقهم ، يتذرع بخطر وجود اسرائيل مع أن سياسته بالذات هي التي تمنع البلد من التهيؤ لمواجهة الخطر . بين الذين يهددون حرية الوطن والذين يسرقون لقمة شعبه تمحي الحدود ، الديكتاتورية واسرائيل نابان لأفعى واحدة .

كنت أرعبه بقولي .

ـ هذا في التحقيق ، فما الذي تنفثه هناك ، النقيب عطية على حق حين يؤكد ان نقطة من أفكارك تسمم بحيرة .

وأردت أن أقول شيئا لكن صراخه اسكتني :

ـ أنت هنا لنعاقبك ، لا لتحرضني أنا .

ثم صمت لحظات ، وقال بعدها بنبرة أقل صخبا :

ـ سوف أضع تقريري بأمانة ، ولا بد ان تواجـه النقيب ، وأنا

أحذرك : لن تلقى منه المعاملة التي لقيتها مني •

وآثرت أن أصمت ، أما هو فبقي مزعزعا ، دار حول مكتبه ثم دنا مني :

ــ بقيت لي شهور في الخدمة ، أريد أن أختمها بغير مشاكل ، والآن علي أن أضعك في الزنزانة •

قلت مستغلا تراجعه :

ــ هل أستطيع أن أرى جدعان ؟

فرد بنبرة غير حانقة :

ــ أنت فظيع ، أعاملك معاملة طيبة ، ومع ذلك تسعى لتوريطي ، أي ناس أنتم •

ــ لن أطلب شيئا • اهدأ ، فقد تجمعنا الايام بعد السجن ، واستجبت بغير تذمر لأوامره ، أفرغت جيوبي ، ونزعت حزامي ورباط حذائي ، وتركت ساعتي ونظارتي ، ثم تبعت أحد الرجال الى الزنزانة التي حدد الضابط رقمها •

أغلق الرجل باب الزنزانة ، وأصغيت الى ضجة المفتاح وهو يدور في القفل ، ثم تمددت على البرش الذي يغطي نصف أرض الزنزانة ، وأطلقت لأفكاري أعنة رخية لا تقيدها الجدران •

كنت موقنا ان ليل الديكتاتورية يوشك أن يولي ، وأسعفني

يقيني فلم أضق بحبسي ، ورحت أزن موقفي بمواجهة نقيب المخابرات ، كان امامه أن يتشدد ليحطمني على قاعدة « علي وعلى أعدائي ... » أو أن يسعى لمساومتي ، ولأني أعرف ان الرجل ليس غبيا فقد رجحت الاحتمال الثاني . ليس هو أعمى حتى لا يرى ما يراه الجميع ، ولا قليل الفطنة ، وهو ، بعد ذو مصالح ، ولا بد انه يتهيأ للنجاة من السفينة عند غرقها .

طالت رقدتي ، وافتقدت الساعة . وحين انبثق من السكون صوت محرك لجوج وفجأني ضوء المصباح الكهربائي المعلق فوق رأسي ،ايقنت ان الليل حل ، ولم يلبث ان دبت الحركة في الممر، كانوا يوزعون العشاء، والتقطت اذناي المتنبهتان صوت جدعان ، كان صديقي يحاور سجانه ، فقدرت انه في زنزانة قريبة . فلما خفت الحركة اعلنت جدعان بوجودي، فعلت هذا بقليل من الحذر ، اما هو فكان عديم الحذر بالمرة . وهكذا شاء ان يروي لي حكاية سجنه من اولها الى آخرها . لكنى استعجلته :

ـ بأي شيء يتهمونك .

ـ ضربوني لاشهد انك اقمت تنظيما حزبيا في السرية .

ـ من الذي يحقق معك .

ـ ملازم ابن مدينة ، له وجه مثل مرآة العروس ، اسمه حسان

امتلأ الممر ثانية بحركة الاقدام . واستمعت ، صامتا لشجار جدعان مع حراسه حتى غاب صوته وهو يصرخ : « يا اولاد الكلب ... » .

جاءوا لاخذي • ظننت اني سألقى النقيب ، غير ان الملازم هو الذي كان انتظاري • كان يرتدي بيجامة انيقة ويضع على ثغره ابتسامة مرحبة• وكنت اتحصن بحذري ، فلم اجلس •

ــ لم يقبل النقيب تقريري ، يتهمني بأني سايرتك ، انت ترى ، لست وحدي وعلى ان اقوم بواجبي •

فقلت ونظري منصب على وجهه الاملس •

ــ انا بين يديك ، متهم مع محقق •

ــ لو كنت في وضع غير هذا •• لكني ابن مهنتي ، لا تنس •

فلم ارد ، فالقى علي نظرة مستفسرة وبعد ابتسامة لزجة •

ــ في الصباح اعترفت لي •••

قاطعتــه :

ــ كنا نتناقش ، قال كل منا اشياء •

فسط ابتسامته :

ــ لا تخش ، لم أدون اعترافاتك في التقرير ، انك اعترفت بموقفك المعارض للنظام ، وعندي اضبارة مليئة بالوثائق تدل على انك مــن النشيطين ، فلماذا لا تقر وتريحنا حتى أستطيع مساعدتك عند النقيب المهتــاج •

ــ ليس عندي افكار اخفيها ، تعرف انت افكاري ، ويعرف النقيب•

ــ نحن نتحدث عن النشاط الذي تقوم به •

وكرر سلسلة التهم ، مستعينا باوراق الملف ٠

ــ هذه ادعاءات يرددها خليل بك وزمله ٠

ــ لن ينفعك التستر وراء الخصومة الطبقية ، حتى انا لا استطيع مساعدتك ، اذا تمسكت بالقول ان نشاطك محصور في المدرسة ٠ كأنك تستهبل الجميع فمن يصدقك ؟ لو بقيت المسألة بيني وبينك لمررتها لك، لكني لست وحدي ، وقد وضعوا بين يدي وثائق ناطقة ٠

وبحركة مباغتة ، وضع بين يدي صورة ٠ كانت صورتي وسط حشد المتظاهرين الذين هاجموا السرايا في درعا ٠

ــ مالك صامت ؟

ألقى السؤال بنبرة الواثق من انه أوقعني ٠

ــ لا ادري ماذا اقول ٠ يظلم الناس بشهادات المخبرين ٠ اراك متأكدا من اني موجود في الصورة ٠

ــ هل تنكر ؟

ــ لم اتعرف على نفسي في هذه الصورة ٠

ــ فظيعون ٠ من اين تأتيكم هذه الجرأة على المكابرة ؟

قذفني بعبارته ، وشفعها بصفعة برقت لها عيناي ٠

كانت الصفعة فاتحة القسوة ٠ تناوبوني لبضعة ايام ، الملازم ، ثم النقيب ، ورجالهما ، حتى يئسوا وانشغلوا بمعتقلين آخرين ٠ ورموني

في الزنزانة مهملا ، كليلا ، مدمى ، اتلقى الوجبات الثلاث ، واتبادل الاحاديث مع جدعان كلما تيسرت فرصة .

بعد اسابيع جاء الفرج ، تسلل الطاغية الى المطار فيما كانت الجموع تبحث عنه ، وفرالي الخارج .

وفي معسكر قيادة اللواء ، انتشر النبأ مثل نسمة معطرة ، فانبثق الفرح من اعماق الزنازين وغاضت الالآم والمرارات ، واشرقت النفوس التي عتمها القهر . ولم يلبث ان وصل الامر بالافراج عن المعتقلين ، فجمع النقيب عطية ضحاياه وقد هيأ احتفالا خاصا بهذه المناسبة .

كان الوقت صباحا حين انطلقنا الى باحة المعسكر المشجرة ، واستقبلنا حفيف اوراق الكينا المشبع بروح الربيع ، وزقزقة الطيور المنتشية والنور الذي يعم الفضاء . ثم اخذنا الى مستظل احتشد فيه عدد من ضباط المعسكر الذين أخذوا يرقبوننا بوجوه تختلط المشاعر على صفحاتها . وبعد قليل حضر قائد اللواء ، وتحدث النقيب عطية فبشرنا بأن عهد الجور قد ولى ، وبأن رئيس الجمهورية السابق عاد الى القصر بعد ان رحل عنه مغتصب السلطة ، وبأن حكومة جديدة قد تشكلت . ثم صوب نظره علي وهو يشرح موقفه :

ـ ستعودون الى اعمالكم بغير احقاد . كنا ننفذ الاوامر فهذا شأننا نحن العسكريين ، ولو دققتم في الامر فستجدون انا حميناكم من منفذين قساة كان من شأن الطاغية ان يأتي بهم بدلا عنا لو عصينا الاوامر .

اختار النقيب ، اذا ، ركنه على ظهر السفينة الجديدة • وما كنت لأندهش حتى لو انه تباهى بنضاله ضد العهد البائد ، كنت نشوانا بالحرية ولم اتوقف عند ضيقي بانتهازيته لاكثر من دقائق • بل انـي تابعته ، وهو يتلو خطابه المكتوب ، بشيء من التلذذ وانشغلت في تفحص مقدرته على الخروج من مأزقه وفصاحته اللغوية •

وبعد الاحتفال ، طلب النقيب ان يختلي بي ، وتبعته الى مكتبه ، وهناك ، حيث صرنا وحيدين ، تبدلت سحنته :

ــ عليك ان تفهم ، كنت اقوم بواجبي •

ــ سمعتك تقول هذا •

وكانت نظرتي الموجهة اليه اشد برودة من عبارتي • اما هو فظهر حوله اقبح ما يكون • واهتزت جفونه هزات متلاحقة ، لكنه لم يلبث ان سيطر على انفعاله •

ــ تبدلت الحكومة ، لكن واجباتنا لا تتبدل •

وكرر مقولته عن حساسيه المنطقة الحدودية ، ثم أوجز :

ــ لا اتصالات مع العسكريين ، ولا تحريض للاهالي وخصوصا للصيادين ، اقيموا تنظيماتكم في دمشق ، اما هنا فلا أريد ان تتواجد مرة اخرى •

ثم لين نبرته ، وقد احس ، فيما يبدو ، بانه افرط في القسوة ، واستقامت نظرته :

ـ لنبدأ صفحة جديدة ، اذا شئت ألا تؤذى .

فقلت متعمدا ان اتجاهل اقتراحه :

ـ اين جدعان ؟ لم اره في الاحتفال .

ـ جدعان رقيب ، لا يحق له مجالسة الضباط . ومن الخير لك وله ان تفترقا .

ـ الا ترى اني خبرت زنازينك . لماذا لا تؤمن بحقي ، في ان انتقي اصدقائي ؟

فاهتزت الجفون . وقال وهو يكظم الغيظ :

ـ عنيد ، هذا انت . سوف نلتقي مرة اخرى .

ورددت ، منتقيا الفاظي ، ومتسلحا بالبرود الذي يغيظه :

ـ ارى انك متشوق لاعتقالي . وان كنت لا اظن انك ستفعلها اليوم .

فقال متبرما :

ـ عد لمدرستك .

كان يأمرني بالانصراف ، لكن روح المناكفة ركبتني .

ـ ولمخبرك رجا ؟

وخزته غمزتي ، وانعكس تأثيرهما على سحنته ، وبصوته الرقيق نق مثل صفدع يختنق :

ـ لن اغفر لك تخريبك لصلته بامه .

ـ القرية كلها تعرف ، ولست انا وحدي .

وكان هذا ما اردت ان الفت نظره اليه ، وهو ما لم يغب عن باله :

ـ ليس عيبا ان يخدم مواطن مخابرات جيشه .

فابتسمت ، ولامر ما تذكرت لحظتها توصية عصام : كن حذرا مع نقيب المخابرات .

ـ لن نتفق ، اعرف اننا لن نتفق ، فكن حذرا ، والان اذهب لمن ينتظرونك ، وتذكر ان لنا عيونا كثيرة .. هذا من اجل صالحك . تلا وصيته ، ثم وقف ، وبسط كفه للمصافحة وعلى وجهه ابتسامة ليس لها معنى .

كانت الساعة الحادية عشرة ، وامامي اربع او خمس ساعات قبل ان تمر شاحنة فوزي ، وعزمت على ان انحدر ماشيا الى ان اتعب . اسلمت نفسي لنشوة الربيع التي تزغرد في الانحاء ، وانطلقت ، مع فراشات افكاري . وحين تعبت ، قعدت على طرف الطريق عند حافة حقل يتماوج فيه بحر من السنابل الخضراء ، وفردت روحي على مداه ، وسرحت احلم بالبشائر ،

رآني فوزي ، فأطلق الزمور بنغمة مجلجلة ، وقفز ، وعانقني ، وتبعه ركاب الصندوق ، ثم دعاني للجلوس بجانبه • وهناك كانت فاطمة ، حفية ، ومشرقة ، ودون ان اسألها قالت بانطلاق •

ــ تزوجنـــا •

ثم لململها الخفر وأنا اهنئهما ، فامسكت ذراع فوزي واعتصرتها وهي تغمض عينيها ، وقال فوزي :

ــ ظلت ورائي حتى تزوجتها •

فاعتدلت فاطمة ، متصنعة البرم ، وقرصته دون غل ، عدلت المرآة التي امامها وراحت تنظر الى نفسها فعلق فوزي :

ــ اذا بقيت غادية ذاهبة معي مع هذا الطريق فستذبلين •

وضحك ، اما هي فعبست ، وعضت على شفتها ثم هتفت :

ــ لن اتركك ، الست اساعدك ؟

واشتكى فوزي •

ــ تزوجنا منذ اسبوع ، وفي كل يوم تجد سببا كي تسافر معي •

واعترضت فاطمة :

ــ ليس كل يوم ، امس رحت وحدك • فماذا فعلت ، قل لـــه بنفســك •

فقـــال فوزي :

ـــ تغـــار علي •

وعقبت هي :

ـــ اعرفك ، التي تحرشت بها البارحة ، حكت لي امام الناس ، ارادات ان تغيظني •

وعلى هذا النحو مضى حديثهما ، وكنت استطيبه • وحين بلغنا القرية ، جلجل فوزي بالزمور مرة أخرى ، وراح يطل من نافذة السيارة ويبلغ الناس بقدومي ، ولم يتوقف الا امام منزلنا •

وهكذا دخلت المنزل وورائي زفة حقيقية •

وكان هناك جدعان والذين جاءوا للسلام عليه ، وكانت أم رجـــا بينهم ، ومع شوقي لجدعان فاني بدأت بالسلام عليها • وتلقيت دفقة حنان مسحت تعبي ، وحين انتظم المجلس مع السلامات ، جلست قبالتي واشارت الى وجهي :

ـــ هكذا احسن ، اين النظارة ؟

لحظتها فقط ، تذكرت انهم لم يعيدوا الي اشيائي •

ـــ ما عدت بحاجة اليها •

لم تطل مكوثها ، لكن اثر زيارتها بقي يعبق في الحجرة ، وكان

جدعان نشوانا ، ولم يكد يختلي بي حتى احتضنني ثانية ، شدني بقوة وشالني ودار بي ، ثم اجلسني كما يفعل بطفل ، وواجهني بنظرة تفيض بالمشاعر •

ـ معجزة ، كما تقول بالنحوي ، غدا ، وليس بعد غد ، ستخطبها لي •

– ١٩ –

كانت في الانتظار مفاجأة اخرى ، ابو زعل وصل الى البطيحة في غيابي ، يحمل قرارا بتعيينه آذنا للمدرسة • جاء به محمود عبد الجواد ، واحضر الحوائج ، وقد اقام الآذن في السرايا •

في المساء جاءني ابو زعل ، وقبل ان اقول شيئا ، ابتدرني :

ـ انا في خدمتك •

ثم حكا لي حكاية تعيينه •

بعد يوم الاحداث نشطت اجهزة الامن للتعرف على الذين هاجموا السرايا في درعا ، وذات يوم جمعوا المولجين بمراقبة السرايا ، وعرضوا عليهم صورا بالفانوس السحري • ادعى ابو زعل وهو يحلف انه لم يكن يعرف غرضهم ، وحين ظهرت صورتي بين الحشد وانا امسك بيدي قضبان البوابة واصرخ ، هتف بغير ادراك ، : « الاستاذ الشامي ، أبو النظارة » • فسألوه ان كان يعرفني ، وأحس لحظتها بالخطر ، فتردد ، وقال انه رآني عند موظف الاستعلامات مرة وعرف بالصدفة اني معلم من دمشق منقول الى درعا ، وتكتم ما عدا ذلك • وقد سألوه

يومها ان كنت انا اعرفه ، فانكر . وقبل ايام استدعوه وابلغوه انهم سيرسلونه الى البطيحة ، وكلفوه بان يراقبني .

لم اجادله ، ولم احاول ، الذي تعرفه خير من الذي لا تعرفه . وابو زعل ليس ، بعد ، سيئا ، بل ان وجوده كان مفيدا اذ صار بامكاني ان املي عليه التقارير ، وان اعرف منه ما يلتقطه من انباء السرايا .

* * *

وصل خليل بك الى السرايا بغتة بعد انقطاع طويل ، وجمع اعوانه على عجل واختلى بهم ، كانت البلاد مقبلة على انتخابات عامة ، وهو يستعد للعودة الى البرلمان .

وكان لا بد من أن ازور دمشق ، لاستعيد صلتي بالاحداث ، ولانقل للحزب رغبة جدعان وموسى الصالح في الحصول على العضوية ، تشاورت مع الصديقين ، كان وضع المدرسة هو وحده الذي يقلقني بدأنا التدريس متأخرين ، وانقطعنا عنه شهرا ، وصرنا على ابواب العطلة الصيفية . وانتهينا الى قرار : سنستمر في الدراسة اثناء العطلة ، فيستعيض التلاميذ بعض ما فاتهم ويتيسر لي ان ابقى من اجل الحملة الانتخابية ، اما اثناء غيابي فان جدعان سيشغل التلاميذ .

وهكذا ، طرت الى دمشق احمل حماستي وخططي : « وصلتها على

لهب الاحلام الحارة التي اججها انتظار الديمقراطية » ، هكذا وصفت الامر لعصام وانا افيض مرحا •

قال عصام :

ـ ارجو ان تظل على حماستك الى ان تظهر النتائج • عندي اخبار لك •

بعد سقوط الديكتاتورية ، انقسمت القوى التي تضامنت من اجل اسقاطها ، والامور آخذة بالتبلور ، نحن وحزب البعث العربي الاشتراكي نتعاون في الشؤون العامة ، والنية متجهة لتكوين جبهة تضم ايضا بعض احزاب البرجوازية وشخصياتها ، ذلك من اجل مواجهة الضغوط الاستعمارية التي تتعرض لها البلاد والمنطقة ، ومن اجل تعزيز التوجهات الديمقراطية ضد الرجعية التي تتكتل في الداخل ، وتتلقى العون من الخارج ، والانتخابات هي المحك ، لابد من بذل الجهود حتى يفوز تكتلنا بالاغلبية في البرلمان •

ثم اوضح عصام :

ـ في الدائرة التي تتبعها منطقتكم مرشح نوافق عليه وقد وافق عليه حلفاؤنا ، محام شاب من فيق ، سيخوض المعركة ضد الاقطاعي ، صدرت التعليمات اللازمة لرفاقنا ، في مناطق الدائرة وها انا ابلغك ايضا •

اعترضت :

ــ لماذا لا نشق طريقنا ، ونعبيء الناس حول مبادئنا ؟

ــ كيف ؟

سأل عصال متبصرا ، فقلت :

ــ نقدم مرشحنا ، ونجمع الناس حوله ، حتى لو لم ينجح ، فانها فرصة لبث دعايتنا .

ــ انت تهمل حقيقة قوتنا ، عندنا سمعة طيبة ، لكن السمعة ليست كل شيء ، لو اقتحمنا الميادين ونحن ضعفاء فمن شأن القوى الكبيرة ان تتضامن لسحقنا . خذ منطقتك ، من لدينا فيها ؟ انت ؟ معلم ليس من اهلها ، ومرشحان للعضوية ، وبعض الاصدقاء ، وقس عليها مناطق الدائرة الاخرى ، فهل تظن ان قوة كهذه تصلح لاقتحام يستفز الاقطاع والبرجوازية الكبيرة والصغيرة ايضا ؟

كنت اسمع وحماستي تتراجع ، ولا بد انه كان يلاحظ ما يسوج على قسماتي .

ــ نقيم حساباتنا في ضوء ميزان القوى في البلد كله . سنؤيد في دائرة فيق هذا المرشح ، وانت تستصعب الامر ، فماذا لو كنت في الدوائر التي سنؤيد فيها برجوازيين كبارا .

ــ لكن البرجوازية اذا تمكنت فسوف تجتث رقابنا .

ـ من طبيعتها ان تحاول ، ولذا لا يجوز ان نكون رخوين • علينا ان نلقي بذورنا ، ونهيء مناجلنا لنحصد ما نزرعه حين يحين الوقت ، هل تفهـــم ؟

وأخيرا هتفت :

ـ افهـــم :

ثم تتالت التوجيهات ، وظفرت بالموافقـــة على نســـم جدعـــان وموسى للحزب •

وعدت للسهل القائظ بافكار باردة ، اما فراشاتي فخلفتها في الحجرة التي اختليت فيها بعصام •

عرفت ان خليل بك سأل عني اثناء غيابي • ولم يلبث ان زارني ابو حسان • اتى الى المدرسة وسلمني رسالة تركها لي محمود عبد الجواد • واشار الوكيل لي كي اقرأ الرسالة • كانت رسالة رقيقة ، يقول فيها الرجل الطيب انه التقى خليل بك في درعا وعدل الجو بيني وبينه ، وينصحني بان اظهر حسن نيتي فاعاونه في الانتخابات •

وقال ابو حسان :

ـ مرة اخـــرى آتيك بشيبتي وهيبتي من اجـــل المصالحة ، لا تنشف راســـك •

وكرر عبارته المألوفه :

— ... هذا من اجل صالحك ، لا اريد لك الا الخير .

بل قل : ان هذا من اجل الانتخابات .

فرد دون ان تكون نبرته حانقة :

— اسمع ، البك لا تنقصه جهودك ، النتيجة بالنسبة له مضمونة ، ليست هذه اول انتخابات ، فاهم ؟ خير البك في فم الجميع ، كل مافي الحكاية انه لا يريد شغبا ، ومن الخير ان تمر فترة الانتخابات بهدوء ، له خصوم في الشام ولا يريد ان يعطيهم سلاحا ضده .

وقدم الوكيل عروض السرايا : سيدعم خليل بك المدرسة على ان احصر نشاطي بها . وسيهبها قطعة ارض استثمرها كما اشاء ، وسيحميني حيث احتاج للحماية ، وهو لا يطلب غير الهدوء ، لانه يعرف اني راس الشغب ، واذا لم اقبل فمن السهل عليه ان يتدبر امر اعادتي لدمشق ، الست ممن اضطهدوا في العهد البائد ؟

لم اعد الوكيل بشيء ، ولم استشره ، فغادرني محتارا ، وفي اليوم التالي فوجئت بخليل بك قادما الى المدرسة ، اتى وحيدا على ظهر حصان . وقبل ان احزم امري بشأن الطريقة التي سأستقبله بها ، كان يقتحم الحجرة بحركة نشطة ويلقي التحية ، مفاجئا التلاميذ الذين جمدت الهيبة حركتهم فلم يقفوا ليردوا التحية ، وكأنما حدث هذا صدفة ، حين توافد عدد من الناس ، ثم تكاثر الوافدون حتى صاروا حشدا ملأ

الباحة • وصبر خليل بك حتى فرغت من القاء الدرس ، ثم تبادل حديثا مرحا مع التلاميذ ، وبعدها ، فرض عليّ صحبته للقاء الحشد •

هتف رجل : « يعيش خليل بك » فردد الحشد هتافه ، ثم هتف الرجل نفسه باسمي • وهكذا استوفى خليل بك رده على حفل افتتاح دورة محو الامية ووضعني في مصيدة • كان هذا تدبيرا ذكيا على ايـة حال • ارتدى سيد السرايا عباءة الديمقراطية وطوقني بها امام حشد من انصـاره •

في الليل ، اجتمعت حلقتنا ، وابلغت جدعان وموسى موافقة الحزب على ترشيحهما للعضوية ، وهنأتهما ، ثم شرحت خطتنا للانتخابات ، كنت اتوهم اني ساجد صعوبة في اقناعهما بالعمل من اجل المحامي ، غير انهما تقبلا الامر ببساطة ، اليس ضـد البك ؟ وحددنا خطواتنـا القادمة • وصار على موسى ان يذهب مع وفد الصيادين الى فيق ليطلبوا من المحامـي ان يساعدهم في الحصول علـى رخص الصيد • وفي الاجتماع ، رسمنا طريقة طلب يد ام رجا لجدعان ، كان جدعان قـد زار دراها عدة مرات والتقاها بين زوارها العديدين وكنت قد فاتحتها في الامر وفزت بموافقتها ، الا ان مشكلة برزت امامنا ، فهذه المرأة المقتدرة ليس لها وليّ أمر ، ومن يجرؤ من بين اقربائها على ان يضع نفسه في هذا الموضوع ، فلمن نتوجه اذا ما دام لا بد من مراعاة التقاليد • موسى الصالح وجد الحل ، تذكر ان لها اخا اكبر منها ، ومع ان هـذا

الاخ الف استقلالها حتى كاد ينسى حقوقه عليها ، فمن الممكن التوجه اليه بعد قليل من التمهيد •

وتست الخطوبة ، رحنا الى الاخ ، كنا وفـدا كبيرا ، كان الاخ مرتبكا ومع ذلك جرت الامور بيسر ، اعد الرجل قهوة جديدة وحين مد اول فنجان فعلت كما علمني موسى ، قلت : « لنا غرض عندك ولن نشرب القهوة حتى نحصل على غايتنا ، هؤلاء قوم كرام جاؤوك من اجل غرض شريف ، وانت كريم وابن اصول ، فلا تردهم خائبين » فرد الرجل : « اشرب قهوتك ، مرحبا بك وبهم » • ثم وضع المنسف مجللا برأس خاروف ، فاكلنا ، وبعد الاكل ، فتحنا الموضوع ، تحدث موسى فاشاد بجدعان ، وتحدث ابو جمعة فاشاد بحمولة ام رجا ، وتحـدث آخرون ، واطنبوا ، وقال الاخ : ساعطيكم كلمتي بعد مشورة ، كانت تلك هي العادة ، وعرفنا ان الامر قد انتهى •

بغتة ، اقتحمت ام رجا المجلس ، فوقفنا جميعا ، وافرد لها الرجال مكانا متميزا • وشملتهم بنظرة دارت على المجلس ، ثم استقرت صوب الاخ وسألته : « هل اعطيت هؤلاء الخيرين كلمة » ؟ وجمجم الاخ المفاجأ برد ، فعنفته على طريقتها : « ارفع راسك ، اختك ترفع اكبر راس ، ثم خاطبتنا جميعا : « انا اعطيت كلمتي ، اخي يعرف واريد ان اقول لكم ، ستظل رقية هي رقية ، لا تزيد ولا تنقص وهذا الغريب الذي ارادني ، ظلمته كما ظلمه غيري ، ولكني الآن اعرف ، والذين ما زالوا

يتقولون عليه ، بسطاره انظف من السنتهم ، واذا كان الحسد يأكلهم فليموتوا بغيظهم فيا رجال عودوا غانمين وقولوا للذي ارسلكم : ما اشرف ما نلته » .

وعدت ، واخبرت جدعان ، فتلقى الامر برزانته ، لكم تبدل ! اما المعركة الانتخابية فما اسرع ما حركت الركود الذي شمل السهل بعد انتهاء الموسم . انخرطنا في النشاط الدائب ، اجرى موسى اتصالاته لتشكيل وفد الصيد ، فاصطدم بمعارضة فريق منهم . كان للمعترضين منطقهم ، فالكثير من الصيادين ليس لهم في الاساس قيود شخصية ، وفتح موضوع الرخص سيفتح هذه المسألة ، وكان لنا منطقنا ، ان العيون مفتحة ، وعاجلا او آجلا سيستخدم تاجر السمك والبك حكاية الرخص للضغط على الصيادين ، ثم انها مناسبة لفتح قيود شخصية للجميع مادام المحامي سيساعدنا ومادامت الحكومة قد اعطت ، بمناسبة الانتخابات ، فسحة لتسجيل المكتومين ، لم نفلح ، بالطبع ، باقناع الجميع ، ولكنا ، على كل حال ، اثرنا الحماس لهذه المسألة ، فذهب الوفد وعاد حاملا توجيهات المحامي ووعوده .

ومن هذه المشكلة الى غيرها ، كنا نغرق في العمل ، وكانت دوائر المتصلين بنا تتسع ، والبذور المخبوءة تكشف عن مكنوناتها ، كنا سعداء سعادة خلية النحل التي وقعت على مرج زهور ، وتحول منزل أم رجا الى مضافة ندير منها حملتنا . كانت قدرتها على اجتذاب الانتباه

خارقة ، وكان لديها ما تحيكه عن الاقطاعي والسمسار ، أليسوا هم الذين أفسدوا ابنها ، ابن البيت الشريف ، وجعلوا منه بصاصا ولصا ينبذه أهله ؟ وأسعفتنا رحلات فوزي السائق الى القنيطرة ، فأدخلنا الجريدة الى المنطقة . وتحولت الاماسي التي نعقدها ، بعد ان تنكسر حدة القيظ أمام دكان ابي جمعة الى منتدى نقرأ فيه الجريدة لمن اجتذبهم التوق لاكتشاف عوالم ما كانوا يظنون انها موجودة . يوم وصول الجريدة لاول مرة كان حدثا ، انتظرنا عودة فوزي ، فلما وصلت الاوراق المطبوعة أخذها موسى الصالح وقرأ العنوان الرئيسي بسهابة ، أخطأ في القراءة ، لكن العيون كانت تلتهمه . لقد أثبتت دورة مكافحة الامية جدواها . وقرأت أنا وسط انبهار المحتشدين . والنقيب عوني الذي كانت اوجاع ضميره تستحوذ عليه ، لم يكن من المستحيل الظفر منه بما يفيد في ساعة صحو ، وهكذا أمكن حثه على اصدار أمر بمنع عسكريي السرية من التسلط على أرزاق الفلاحين والصيادين ، على ان يكون من حقهم شراء السمك بالسعر الذي يدفعه التاجر . أما الضباط . وهم الذين لا حد لطلباتهم ولا قدرة للنقيب ، على وقفهم ، فأخذنا نحثهم على التوجه الى التاجر ، فعلنا هذا مستفيدين من الظروف الجديدة ، ومن حاجة السرايا لاعادة تقييم موقفها وسط الرياح التي هبت في البلاد . وأما النقيب عطية فانه لم يضايقنا ، كان ، هو الآخر ، يعيد تقييم وضعه ، وكان بحاجة للوقت . لم يزر المنطقة الا مرات قليلة

خلال الحملة . ولم يتدخل ، كان يأتي الى قيادة السرية ليتأكد حسب قوله من ان العسكريين لا يتدخلون ، وكنا من جهتنا قد أعفينا جدعان من الاسهام في حملتنا هذه ، وظللت أشرف على التقارير التي يرسلها أبو زعل ، كان المخبر الدرعاوي مستجيبا ، بل متحمسا للخدمة ، يرتع في نعيم السرايا ، ويحظى برضانا ، ويغرق رؤساءه بالتقارير ، ويلاحق النساء هنا وهناك ، كان كما يصف نفسه ، مثل كبش وقع على مرعى دائم الخضرة ، لا يزعجه منه أحد . وقد علمته عبارة راح يرددها في السرايا : « الحكومة قالت انها لن تتدخل ، وانا ابن حكومة » وكان حين اختلي به لا يفتأ يقص علي حكاياته القديمة والجديدة .

* * *

ذات يوم وصل مرشحنا المحامي ، نزل في مخفر الدرك فاستقبله الرقيب الجديد ، وجندنا أنصارنا على عجل بجمع الناس من أجل اللقاء به ، وتوافد الفضوليون من تلقاء أنفسهم ، فاجتمع امام المخفر حشد كبير . وحين دخلت عليه ، كان الرجل الذي ارتدى بدلة كاملة يجفف عرقه ، قدمت له نفسي فتلقاني بحفاوة ، وقال رقيب المخفر كلمات طيبة عني ، ولان فيق ، حيث نشأ المحامي ، ليست سوى قرية ، فان مرشحنا على الرغم من البدلة التي حبس نفسه فيها ، أحسن استقبال الذين دخلوا للسلام عليه ، ثم شاء المحامي أن يخطب في الحشد فشجعته ، واغتنم

رئيس المخفر المناسبة ليخطب هو الآخر ، وحين واجهنا الجمهور شد الرقيب حزام بدلته الرسمية ، ونفخ صدره ، ثم هتف « ايها الاخوة المواطنون » فاذا الحشد يردد العبارة ، كما ألف أن يردد التحيات ، فاضطرب الرقيب الذي بوغت ، وتلجلج ، فأنقذه تدخل رفيقنا موسى الصالح ، الذي انبثق صوته من وسط الحشد ليس هكذا ، نسمع حضرة الرقيب ، ثم نسمع المرشح ، ونشرح مطالبنا ، واكتفى الرقيب بتقديم الضيف ، أما الجمهور فصمت متهيبا •

أخرج المحامي من جيب سترته ورقة مكتوبة ، بيانا انتخابيا تلاه والعرق يسح منه ، وكنت ، من موقفي بجانبه ، اتصفح الوجوه ، فلا أستشف لكلامه صدى ، فما كانت الوجوه تعكس غير الخشية من اساءة التصرف كرة أخرى • وتمنيت لو يتدخل موسى ليكسر هذا الجمود ، لكنه لم يفعل ، كان نظره هو الآخر معلقا بالمحامي ، وهو يجاهد ليلتقط معاني العبارات ، وختم مرشحنا خطابه دون أن يصدر عن الحشد أي رد فعل ، فأساء فهم الموقف ورجع الى حجرة الرقيب محبطا ، وحانقا ، ولم يفطن الى ان موسى الصالح راح يتكلم • وتبعت المرشح فوجدته وقد حل رباط عنقه وأخذ يجفف عرقه بعصبية ظاهرة :

ــ الله يعينك يا استاذ عليهم •

قالها ليعبر عن حنقه ، وانبرى الرقيب ملاحظا :

ــ الاستاذ بألف خير اذا قارنت حاله بحالنا ، نحن الذين نواجه

مشاكلهم كل لحظة . أنا سمعت ان بين هؤلاء الناس والاستاذ تفاهما لا أدري كيف توصل اليه .

وكانت ملاحظة الرقيب مدخلا ألجه لحوار ساخن ، فاستعاد المحامي توازنه ، لم يكن بغير فطنة ، وتراجع بلباقة .

ـ انفجرت في لحظة غضب ، أنا أعرف أن وضعهم يرتب علينا مسؤوليات كبيرة لتطويرهم ، ومن أجل هذا ، أسعى لدخول البرلمان حتى ...

فقاطعته :

ـ لست ملزما بمجاملتي . نحن هنا نقوم بالدعاية لك ضد الاقطاعي . المسألة بالنسبة لنا مقررة ، عليك أن تقنع جمهور الناخبين.

واندفعت في الحديث ، بسطت مطالب المنطقة كما أفهمها : تطوير المدرسة ودعم التشريع المطلوب لجعل التعليم الابتدائي الزاميا ، ومساعدة الصيادين وارغام تاجر السمك على استخدام ميزان حديث ، وتطبيق القانون ضد غش سمسار الخضار ومنعه من تحصيل الرسوم والاجور المضاعفة ونصحته بأن يتعهد بهذه المطالب أمام الحشد ، وأن يتجول على بيوت الفلاحين ، ويناقشهم في مشاكلهم . كان يصغي ويهز رأسه مؤيدا ، بل انه شكرني بحرارة . وهكذا ظفرنا بأكثر من منبر في ذلك اليوم ، وبت ليلتها سعيدا ، بعد ان أمليت على ابي زعل تقريره الطويل .

انداحت أصداء زيارة المحامي في السهل • وفي اليوم التالي ، هيأت السرايا ردها ، دعت وجهاء القرى كافة ، والعديد من أزلامهم لوليمة عامة ، نحرت الخراف والعجول وطاف السمن البلدي فوق المناسف وجاءني أبو زعل متخما •

ـ لا تزعل مني ما شبعت في حياتي كما شبعت اليوم أقول لك الصدق ، لستم مثلهم ، أقول لك الصدق ، الاصول ، اذا جئت للاصول، هناك جماعتكم مثل كل عباد الله ، يعني مثلنا ، أما جماعتهم فعبيهم تشتريكم كلكم •

وأفاض أبو زعل في الوصف :

ـ جاء المخاتير والوجهاء على الاصايل ، وتوزعوا في الرواق على دائر باحة السرايا ، والباحة امتلأت ، ولما أطل البك وقف الجميع وحيوه• ثم اصطحب المخاتير الى داخل الفيلا وما أكثر اللحم الذي حمل اليهم وبعد الغداء دارت القهوة ، بينما راح رجال السرايا يملأون اخراج البهائم بالعلف ، اما المخاتير فقد نال كل واحد منهم صرة ، وقيل ان فيها ألف ليرة ، لا أضع أحدا في ذمتي لكن هذا هو ما قيل • وقيل انهم وعدوا بمبالغ أخرى يدفعونها لجماعتهم عند التصويت •

وعقب أبو زعل •

ـ هكذا الشغل ، وليس مثل خطاباتكم وجريدتكم التي تتعب الراس •

وفي المساء داهمني ابو غسان تاجر السمك ، جاء مشحونا بحنقه ازاء الدعاية التي تحاصره :

ـ كرمى لعيون النبي . اذا كنتم تعرفونه ، حلوا عني • كانت أحواله تسوء ، حتى بدون دعايتنا • انحسر الغيض الربيعي ، والقيظ الذي يكوي الاحياء يفسد ما يجنيه • وبعد سقوط الدكتاتورية تزايدت استفزازات اسرائيل واشتد تواتر الاشتباكات الليليـة التي تحبس السريحة عن العمل • وهكذا أطبق عليه فكا كماشة : قيظ النهـار ، ومخاطر الليل •

نعم ، ادفع للصيادين قليلا ، هذا ما تراه ، لكنك لا تضع في حسابك اكلافي ، الشاحنة التي لا يمتلىء ربعها في هذا الوقت الرديء • وألواح الثلج الذي يذوب قبل أن يصلنا ،والافواه التي علي أن أسدها هنا وهناك بعد أن قيمتم علي الضباط وأصحابهم • هنا ، وعلى طول الطريق، عسكر ودرك ومدنيون ، لا يشبعون ، واذا لم تمتلىء كروشهم حتى يتجشأوا فما أهون ما يعطلون عملي • وانتم تسوطونني بكلامكم • تريدون ان تنتفوا ريشي ، ما عاد علي ريش •

ـ أترك المهنة ، ان كنت تخسر حقا •

فقذفت عيناه دفقتي حنق :

ـ لم يبق عليكم غير هذه لماذا تحسدون عباد الله على رزقهم ؟

ــ أعرف انك تأكل لحم الصيادين منذ سنين ، وتكنزه ذهبا وليرات مشكلتك ليس نقيقنا بل سلوكك مع الصيادين • اعط الناس حقوقهم وأرح نفسك ، الصيادون لا يطلبون كثيرا • ميزان جديد ومكاييل صحيحة بدل الحجارة ، هذا حتى لا تغشهم في الوزن ، ودفتر يسجل الرطل رطلا وليرة زيادة على كل رطل •

ــ كأنكم تقولون اني حرامي ، وهذه بالذات ، لا أقبلها ، أنا تاجر شريف •

ــ ضع شرفك على كفة ميزان لا يجعل الرطل نصف رطل •

ــ فظيع أنت •

فح بالشتيمة ، وأكمل دون أن يهدأ •

ــ ••• كأننا لسنا بلديات • صرت منهم •

ثم هددني :

ــ لا تخدعكم هذه الفورة فهي لن تدوم خليل بك موجود ، وهو يعرف أقدار الناس وأماناتهم •

أما حسين الفار فبعث تهديده مع رسول من أعوانه ، وكان رجله أمينـــا :

ــ الموسم انتهى ، يقول معلمنا ، واذا لم تكتف بما أصابك أنت وجدعان فان الموسم التالي لن يحمل لك الخير •• وما كل مرة تسلم

الجرة • يد المعلم طائلة بأكثر مما تظن • اترك ما خلقه الله كما خلقه فلست انت الذي يبدل نظام الكون بعد ان خطه رب العالمين بيده • والحقيقة ان المعلم لا يحب ان يراك هنا في السنة القادمة •

كنا نسد أظافرنا في خياشيم من استطابوا الربح الحرام ونلج حجور الافاعي ، ونحشر أنوفنا في أعشاش الدبابير ، ولكني كنت أدرك ان يد البطش الحكومي لن تنالنا للتو • فالحكومة المؤقتة التي جاءت على مهاد حركة ديمقراطية شاملة ، تلتزم الحياد ، والمعركة المحتدمة تحت رايات الانتخابات تطلق قوة الشعب في كل مكان • وهذه فرصة لنا نعرض فيها برنامجنا ونوقد الجمرات الكامدة ونعبىء القوى للصدمات القادمة ، ونبذر بذورنا •

وظل النقيب عطية يتجنب الاحتكاك بنا وهو مشغول بالهموم المستجدة • والحريق الذي اسقط الطاغية امتد الى الجيش وفرقه كتلا وتيارات : كان الضباط الذين جعلوا ظهورهم سروجا للطغيان وسواعدهم سياطا له ، يتحسسون اقفيتهم وينشدون الستر ، ويتشممون اتجاهات الرياح ، اما الذين ركبوا رؤوسهم فقد اقصوا والضباط الشرفاء الذين حملهم المد الشعبي الى صدر القافلة ، كانوا يصارعون قدر طاقتهم من اجل تطهير الجيش وربطه الى عجلة الحركة الوطنية التقدمية •

وهكذا انصرف ضابط المخابرات الى البحث عن الامان الشخصي

وانكفأ الى واجباته العادية ، ولم يعد يلقي بسنانيره خارج حدودها ، ورفع شـراع الحرفية وراح يبحث عـن مكان لشراعه الجديدة حتى لاتجتاحه العاصفة .

كنا ننخرط في المعمعة ووسط آلامها وافراحها ، كانت قواتنا تكتسب صلادة الصوان ــ ومدت بذورنا جذورها في التربة ومضت عميقا حتى اتحدت في الصخر . وانضمت اما رجا الى قواتنا فرشحناها للعضوية . وكان حولنا كثيرون ، فتهيأت لنا اكثر من بقعة نستنبت فيها مزيدا من البذور .

* * *

في غضون ذلك ، صارت خطبة ام رجا لجدعان حديث القرية وقرى البطيحة كافة . بل ان الاهتمام بها فاق الاهتمام بالانتخابات . وانقسم الناس كعادتهم ازاء اي حدث ، بين محبذ ومستنكر ومتفرج . وبين الجميع كانت فاطمة الموسى الاطول لسانا في التشنيع على الخطيبين ، راحت تروي الحكايات وتدس الدسائس وتنقل الاقاويل ، واغتنمت السرايا الفرصة فانطلق ازلامها يعبئون الناس ضد الرقيب الذي سحر الارملة الفتية وقلب عقلها وفرق بيها وبين ابنها واستأثر بها بعد ان رفضت على مدى السنين خيرة رجال المنطقة ممن تقدموا اليها .

كان موقف السرايا مفهوما ومن السهل التصدي له ، ومثله كان

سلوك فاطمة الموسى ، فهي ، آخر الامر ، ثرثارة معروفة . اما الحاجز الذي صعب علينا اختراقه ، فهو جفوة النساء لام رجا ، فالكثيرات ساءهن ان تقبل المرأة التي تمنعت طويلا على الرجال هذا الغريب • ومع ان الزواج برقيب في بيئة كهذه يثير الحسد ، فهذا الرقيب بالذات لايعرف احد اصله او نسبه •

كانت ام رجا تتجلد ازاء الحملات المسلطة عليها ، ولكن شيئا في داخلها كان يمضها •

ـ لو ان احدا من اقربائه يأتي

قالت لي هذا مرة ، ثم اطرقت

وحاولت ان ادفع جدعان ليبحث عن اهله ويتصالح معهم

ـ كيف اعود اليهم بعد هذه السنين

وتشبث بأبائه

ثم جاء الفرج مصادفة على يد شيخ من شيوخ البطيحة له بين الناس سمعة اقرب الى الاسطورة

كان الشيخ كايد رجلا مهابا في المنطقة ، انتزع مكانته بحد السيف بالمعنى الحرفي للكلمة ، وذلك قبل ثمانين سنة من التقائي به كان في شبابه عبدا لاحد جدود خليل بك ، وتمرد مع مجموعة من العبيد وقادهم في نزاع مع السرايا ، امتد سنوات الى ان انتزع حريته وحرية

مجموعته ، واقطعتهم السرايا تلا سكنوا فيه واستصلحوا ارضـه وزرعوها • وبمضي السنين نجح المتمرد في اقامة قرية تحظى بمعاملة خاصة وصار شيخا لها واقام فيها مجتمعا اقرب الى المشاعة • وقد تجاوز المائة من عمره وما يزال قادرا على فرض هيبته بعد ان عززها بزيجات عقدها مع بنات عدد من وجهاء العشائر المعروفة واقام علاقات واسعة مع هذه العشائر •

زارني الشيخ ليبحث معي امر تسجيل عدد من ابناء قريتـه في مدرستنا • ومنذ وقع نظره على جدعان حزر من اي عشيرة هو ، وشاء ان يتأكد فحاوره ، فتلجلج جدعان ثم انسحب ، واغتنمت الفرصـة فحدثت الشيخ بقصة انقطاع جدعان عن عشيرته ، فاستمع بانتبـاه شديد ولم يعقب بشيء وبعد ايام قليلة فوجئنا بكوكبة من الفرسان قادمة الينا وعلى رأسهم الشيخ كايد • ووالد جدعان بينهم •

كان صديقي خارج المنزل ، فأرسلت من يستقدمه ، وحين وقف جدعان بباب الحجرة المكتظة ووقعت عينه على الوالد الملتاع القـى بنفسه بين احضانه ، ولم يفه اي منهما بكلمة ، كان عناقا اذاب مرارة السنين • وبارك الوالد الابن والخطيبة • ورحل بعد ان وعد بالعودة ليشهد زفافهما •

- ١٧ -

قبل الاقتراع بيوم واحد زرت دمشق ، هذه المرة لم يحرك عصام مطرقة النقد ، فما كان بحاجة اليها ، اسعده تقريري ووافق على تقديراتي ، وبهذا نلت جائزتي • وكان لديه ماعده هدية لي : قرار الحزب بان ارجع لدمشق بعد الانتخابات • كانت طريق العودة ممهدة لان الحكومة قررت انصاف الذين سرحوا او نقلوا في العهد البائد باعادتهم الى اماكن عملهم السابقة • ولم ادر هل اغتبط لاني سأعود الى الاسرة واجواء العاصمة او اكتئب لاني سأفارق الجو الذي انشددت اليه • كان رد فعلي مختلطا ، اما بالنسبة للحزب فالامر مقرر لانهم بحاجة لي ، وقد تدبروا السبل كي يدفعوا شابا من رفاقنا ليحل مكاني ويكمل المشوار الذي شققت طريقه •

ولان مكوثي مع عصام طال اكثر مما قدرت ، لم اتمكن من زيارة الاهل ، ووعد الرفيق ، الذي حثني على التعجيل بالعودة الى البطيحة، بأن يرسل لاسرتي من يطمئنهم على احوالي ويبشرهم باقتراب اوبتي وهكذا عدت في اليوم نفسه •

كان القيظ شديد الوطأة حتى في الليل حيث تشتد الرطوبة فتتكتم

الانفاس ، وحيث ينشط البعوض فيصد النوم عن العيون . وفي تلك الليلة كان لدينا سبب آخر منع عنا النوم ، فقد شاءت اسرائيل ان تقول رأيها للتأثير على مجرى الانتخابات ، فاطلقت قذائف مدفعيتها ورشاشاتها عبر خطوط الهدنة طيلة الليل ، في ومنطقتنا نشطت الزوارق فرمت البطيحة برصاصها بغير توقف .

وطالعنا نهار ملتهب ، شواظ تصبه السماء ولظى تبثه الارض . ورطوبة تختلط بالاغبرة وتدهن جلودنا بالدبق . مع ذلك ، كان علينا ان نشيل دبقنا وننشط في يوم الاقتراع كنا وسط تيار تحتدم لجته بالنشاط ، وعلينا ان نحتفظ بقدرتنا على الحركة فيه .

جندنا جماعتنا الصغيرة ، واصدقاءنا ، عدا جدعان ، فقد احتجزه الاستنفار المعلن في وحدات الحدود ، وماكان له على اي حال ان يفيدنا ، لان القانون يمنع العسكريين من المشاركة في الانتخابات وام رجا كانت هي الاخرى محرومة مـن التصويت لانهـا لا تحمل شهادة الدراسة الابتدائية التي لا يحق للنساء ان يصوتن بدونها ، ومـا من امرأة في البطيحة صوتت ، ومع ذلك خفت الى المدرسة حيث يجري الاقتراع ، وكانت الوحيدة التي تواجدت فيها ، وقد نفعنا وجودها كثيرا . اما موسى الصالح فكان انشط الجميع واذ صار يعرف كتابة الاسماء ، حسبنا ان لا تزور اوراق الاقتراع التي يدلي بها اصدقاؤنا .

كنا ندرك ان اغلبية الاصوات تنصب لصالح رب السرايا ، ولكن

اغلبية الصيادين المسجلين جاءت الينا ، ولم نعدم مصوتين من بين الفلاحين • وكان همنا ان نحصل على اكبر عدد ممكن من الاصوات •

كان المحامي قد وكل موسى الصالح فصار من حقه ان يشهد فرز الاوراق • وحين انتهت عملية الاقتراع سبقنا موسى الى البيت وانتظرناه حتى جاء قرابة منتصف الليل ، وعرفنا ان مرشحنا حصل على مئة وعشرين صوتا بينما صوت قرابة الفين لصالح خليل بك • لم تكن تلك نتيجة تبعث على الافتخار • لكنها ، في ظروفنا لم تكن ، ايضا ، بغير معنى ، ذلك ان خليل بك كان قد نجح في تسجيل جماعته بعد ان حصل لهم على وثائق حكومية ، في حين ان معظم انصارنا كانوا من غير المسجلين وفي كل الاحوال ، فان يوجد مئة وعشرون شخصا مستعدين لتحدي سلطة الاقطاعي ليس بالامر ، الهين ، وهكذا قومنا النتيجة ، وعزينا انفسنا بان منطقتنا ليست الوحيدة في دائرة فيق ، وبأن حصيلة الانتخابات في المدن وفي الارياف الاكثر تقدما ستعطي ثمارا افضل ، ووسط الحماس لمعرفة النتائج كلها ، انبثقت فكرة سفري من جديد الى دمشق ، وتحمس لها الرفاق • وفي تلك الليلة اتفقنا على ان يتم زواج جدعان وام رجا فور عودتي •

وفي الصباح اراد فوزي ، كعادته ، ان يحشر صبية بيني وبينه ، لكني هذه المرة اعترضت قلت له : « لاتغتنم فرصة غياب فاطمة والا

اخبرتها فاستجاب بغير غل وانصاع لاعتراضي وطلب من صبيته ان تذهب للصندوق » • قلت لفوزي ونحن على الطريق :

ــ آن لك ان ترتدع عن هذه العادة ، الا تستحق فاطمة الوفاء ؟

فلم يرد • كان كأنه يفكر في الامر منذ وقت طويل ، وفي الطريــق صارحني :

ــ « لااجد خيرا من فاطمة ، لكن ، كيف اقول ، وسوسة الشيطان»

ثم فتح موضوعا جديدا :

ــ •••• فاطمة ركبها وسواس • تريد ان تتعلم ، وتطلب مني ان ارجوك بالسماح لهاكي تقرأ مع الرجال في المساء • وشجعته :

ــ بعد اسابيع يبتدىء العام الدراسي الجديد ، وستكون لدينــا ست تلميذات في الصف الاول الابتدائي ، وعندنا ام رجا في الدراسة المسائية فلماذا لاتنضم فاطمة اليها •

لم يكن يجد للامر أي فائدة ، لكن سوسة التفكير به اخترقــت تمنعه ، وامتد بنا النقاش ، فلما عرف اني سأترك البطيحة تمسك بحجة جديدة :

ــ بعدك لن يكون تعليم

ــ انت مخطىء ، اقول لك ، الخطوة الاولى تست • وعندكم الان من يطالبون بحقوقهم ، ومامن شخص سيوقف سلسلة مطاليبهم •

كانت هذه الحكاية هي اول مارويته وانا اقدم تقريري لعصام وكان الصديق يصغي للتقرير وهو يردد : معك حق ، وهذا يضخم واجباتنا ، وبعد التقريظ جاء دور التوجيهات .

ـ خسر الاقطاع الجولة .. في البرلمان كتلة لابأس بها من التقدميين ، والبرجوازية ، منقسمة على نفسها ،وبالامكان اجتذاب عدد من ممثليها الى التحالف الوطني ان احسنا نحن وحلفاؤنا التصرف خليل بك يقف في الجانب الاخر ، انهم يشكلون قوة لايستهان بها . وفي البطيحة سيسعى للانتقام منك ولتحطيم البذور التي اخذت تنبت. ولذا ينبغي التعجيل بعودتك وعلى رفيقنا الذي يحل مكانك الا يكشف نفسه ، هكذا نحميه ونصون البذور .

قلت باريحية

ـ استطيع البقاء ، فانا احب المكان والظروف صارت محتملة ، واظن اني سأكون انفع من الرفيق الجديد فأنا ...

لكن عصام لم يتركني لاتباهى :

ـ لا تكن مغرورا تقدم المنطقة لا يتوقف على شخصك . اذهب اليوم الى وزارة المعارف وقدم طلبك للنقل . وغدا عد الى البطيحة ورتب امورك من اجل الرحيل

كانت المودة هي التي تفيض منه ، وليس الاوامر . وما اشد ماتوطدت صداقتنا في تلك الفترة .

في اليوم التالي ، لم اسافر ، سقط الوالد صريع الحمى والالام ، ظل يغالب ضعفه ، الى ان وقع امام بيت النار في الفرن • فحملوه الى الدار • وحين لمته لاهماله زيارة الطبيب منذ البداية تذرع بأن مصائر البشر بيد الله وهو الشافي وليس الطبيب ، كانت كبرياؤه تمنعه من الاقرار بأنه شاء ان يوفر نفقات العلاج • جئته بطبيب من رفاقنا ، فاتضح انه مصاب بمرض التيفوئيد ولابد من نقله الى المستشفى • وهكذا بقيت في دمشق اياما حتى اتدبر الامر • وتكفل الرفاق بالعناية به اثناء غيابي ، فسافرت •

رآني فوزي اقبل على الشاحنة فبش لي ، ولم يدع احدا للجلوس بيننا ، كان في فمه كلام لم يلبث ان فاض منذ انطلقنا :

ـ غبت كثيرا وكنت انتظرك • اهلي واهلها يعترضون ، لكن فاطمة ستتعلم ، وراق مزاجه • وظل طول الطريق يحدثني عن حنق جماعة السرايا علي ، وعن فرحهم حين عرفوا اني سأترك المنطقة وانبأني فوزي ان النقيب عوني مات ، ظل يشرب حتى غاب عن الوعي وجمدت حركته ، فعل الرجل المنطوي على نفسه هذا يوم وصل الى البطيحة نقيب شاب عينوه ، بدلا منه ، لقيادة السرية ، وقال فوزي ان النقيب الجديد اكرم خلفه فنظم له جنازة لائقة ورافق جثمانه في سيارة السرية حتى قيادة الكتيبة • وافاض في وصف مزايا الضابط الجديد :

الخالق الناطق أنت : والناس يقولون انكم من طينة واحدة ، وقته للسرية ، لايكشر في وجوه الفلاحين ، ولايذهب الى السرايا .

وحين وصلت المنزل وجدت جدعان في أتم نشوته : كان قد ظفر بثقة رئيسه ، وفي المساء انبأني ابو زعل : « قائد السرية الجديد بعثي . وهم ، في السرايا ، مغتاظون على الاخر » ثم علق « الدنيا تتبدل » وكان كل شيء معدا لاحتفالات الزفاف وكان هذا كله حسنا .

اوقفت الدراسة النهارية وصرفت التلاميذ حتى يستريحوا لكي يعودوا الى صفهم الجديد . واحتفلنا في اليوم نفسه بانتهاء دورةمكافحة الامية واستضفنا قائد السرية الجديد الذي بهره الاحتفال لانه كما قال ، ماكان يتوقع شيئا كهذا في منطقة مثل البطيحة . وتحررت من العمل في التدريس بانتظار وصول الامر بنقلي . وغادرها جدعان الى القنيطرة ليؤدي امتحانات شهادته بعد ان منعته مشاغله من تأديتها في دورتها الاولى ، وترك لي مهمة الاشراف على اعدادات الزفاف .

يوم الزفاف كان يوما مشهودا رتبنا برنامجه بعناية ، وكان النقيب سعيد قائد السرية الجديد اشد المتحمسين لترتيب الاحتفال ، لايبزه في حماسته الا ابو جمعة الذي بدا كأنه يستعيد شبابه .

منذ الصباح ، هيأ فرسان السرية احصنتهم واستعدوا للطراد ، وجاء خيالة القرى وناسها ، كان العرس آخر الاعراس التي يشهدها

الموسم وحميت المنافسة بين الرجال واهتاجت الخيول ، والجميع يلجمون توقهم للانطلاق بانتظار مقدم العريس •

واخيرا ، اقبل جدعان بعد أن هيأوه في السرية ليوم زفافه ،البسوه حلة عسكرية جديدة بكامل زيناتها ، وانتقوا له افحل الاحصنة واحاطوا به كأنه في استعراض • وكنت مع والده والشيخ كايد والمحتفين الاخرين ننتظره في الصيوان الذي نصب في طرف ميدان الطراد ، وحين اطل ، نهضنا لاستقباله • واذ كان بيننا النقيب سعيد وضباط السرية ، ادى جدعان ، وهوعلى حصانه ، التحية العسكرية ، ثم قفز عن الحصان وتقدم من الوالد يطلب بركته ، فاحتضنه وعانقه واوصاه بصوت مسموع ان يرفع رأس العشيرة عاليا •

ثم ابتدأ الطراد

كان الميدان يمتد في السهل ، والمحتفلون من غير الخيالة يحفون به مشكلين حذوة حصان يتناهى طرفاها عند منتصفه • اعطى الشيخ كايد الاشارة فانطلق الخيالة في شوطهم الاول ، وابتعدوا حتى اخفاهم الغبار ، ثم عادوا وجدعان في المقدمة ، وكان هذا هو التكريم الذي تواطأوا على منحه للعريس في الدورة الاولى • وتوالت الدورات • واجهد خيالة البطيحة انفسهم وخيولهم ليظفروا بسبق ، لكنهم لم يفلحوا مرة واحدة امام فرسان السرية بخيولهم المعافاة • واهتاج الحشد واشتد اللغط في حلقتنا ، وبدا الامتعاض جليا ، على وجه الشيخ كايد•

وطاش صواب ابي جمعة الذي كان من موقعه بجانبي يتلوى ويتشكى ويقذف خيالة قرينه باقذع الشتائم ، « خصاكم الكسل وزراعة البندورة » جلجل بهذه الشتيمة في وجه الخيالة بينما راح فارس عسكري ينحني على ظهر حصانه وهو في المقدمة ، ثم ينتصب ويؤدي التحية العسكرية .

وعنت لي فكرة ، فعرضت على ابي جمعة ان يريهم فنونه ، لكنه وقد فوجيء رفض : « في مثل هذه السن اين انا من تلك الايام » ؟ وحثثته ، مذكرا اياه بالايام التي كان فيها سيد الميادين ، فتردد غير ان البريق الذي اخذ يلتمع في عيني الفارس القديم بين الفينة والاخرى . كان يشي بانبعاث شوقه من تحت الرماد .

وفي نهاية احدى الدورات ، وبمبادرة جاءت في وقتها تماما ، تقدم جدعان من ابي جمعة ومد له سوطه ، اشارة الى انه يقدم له حصانه ، كانت لفتة زعزعت تردد الخيال العتيق وفجرت توقه الحبيس وجمد ابو جمعة لحظات متفكرا كأنه القائد المتقاعد يدعونه لادارة المعركة بعد ان حمي الخطر .وشد هذا المشهد انتباه الحشد بأسره،وخفت الاصوات حتى صار الميدان كله مسكونا بالصمت والترقب . ثم هتف رجل بصوت له قوة النفير : « ونحن اخوان عايشة » ، وكان هذا هو الهتاف الذي ينتخي به رجال العشيرة التي ينتمي اليها ابو جمعة .

كنت اراقب تبدل التعابير وتعاقبها على وجه الرجل وهو يواجه

امتحان عمره ، رأيت عينيه تشعان ببريق يصعب وصفه ، هل تراءت له عزيزة ؟ هل كانت المشاعر التي كبتتها سنوات القهر والتطامن تتقد من جديد ؟

واخيرا ، انفتح برميل النبيذ المعتق فسرت حمياه . تناول ابو جمعة مقبض السوط من يد جدعان ، فهلل الحشد ، وانطلقت هتافات النخوة من اعماق الصدور وبخفة مدهشة ، قفز الرجل الكهل الى سرج الحصان كأن قوة خارقة شالته في غمضة عين وادار رأس الفحل باتجاه الميدان .

زغردت النساء ، والقى الرجال حطاتهم على الارض من فـرط التأثر ، واهتاج الحشد .

ومرقت عائشة من قيود خجلها ، فخرجت من الصفوف ، واطلقت زغرودة رنانة . فاهتز بطن المرأة التي على وشك الوضع ، كأنه يحتفل، هو الاخر ، بعودة الحياة الى الاب الذي اقعده القهر سنين طويلة .

والتقطت عيناي اشارة من يد الشيخ كايد وجهها لحفيده ، فدار الشاب ليبلغ مضمون الرسالة للخيالة وتلقى فرسان السرية اشـارة مماثلة من النقيب سعيد . وهكذا اخلي الميدان لابي جمعة وحده . وكأنما احس ابو جمعة بما يعنيه هذا من تكريم ، وبما يلقيه على عاتقه من مسؤولية ، فاطلق لحصانه العنان ودار العنفوان المتجدد بابـي جمعة في الميدان ، فراح وعاد محاطا بصيحات التشجيع والحماس .

وفقدت عائشة كل تحرج ، فاخذت تدور وتدور ، وهي ترقص وتزغرد ، وبطنها يرقص معها ويهتز طربا •

كان ابو جمعة يستعيد ثقته بنفسه شيئا فشيئا ، فراح يتفنن حتى انتزع من الحشد شهقات الدهشة ، ادار الحصان في نهاية شوط مضى به بعيدا . وعاد الى الحشد بأقصى سرعة ، وبغتة ، انتصبت قامة الفارس ووقف على السرج وهو يهز العنان بيد ويلوح باليد الاخرى . كان الناس يكتمون ايفاسهم وهو مقبل فلا يسمع وسط الميدان غير دبيب حوافر الحصان • وتحفز جدعان قلقا وبادلني نظرة تشي بخوفه على الرجل الكهل • حتى اذا وصل ابو جمعة الى حيث نقف ، وانفجرت هتافات الاعجاب من الصدور ، قفز جدعان وامسك رأس الحصان وانزل الفارس • وهب شبان آخرون فانضموا الى جدعان • ثم لم يلبث ان تخلى الشيخ كايد عن مهابته ، فخف اليهم ، وهو ينتخي بفم مفتوح على آخره ، وقد ضاع صوته بين الضجيج • وحمل جدعان ابا جمعة على كتفيه وراح يدور به على الحشد الذي تزاحمت جموعه لتحية الرجل • اما عائشة فما كان اسعدها وهي تتقدم حلقة الشبان بوجهها المضرج •

بعد هذا الاحتفال الذي اوقد التماعات الفرح في عينين طال انطفاؤهما ، استأنف الخيالة طرادهم ، وجاء ابو جمعة ليقف بجانبي مبهور الانفاس والنظرات ، فامسكت يده ، وشددت عليها واحتفظ

بها في يدي ، كانت دافئة وسخية الود . وجاء الشيخ كايد متهللا ، واعلن باعلى صوت وهو يوجه الخطاب لابي جسعة :

ـ لك مني مهرة اصيلة ، حلالا زلالا

* * *

وفي الصباح زرت العروسين للتهنئة ، وفاجأتهما بهدية ما كانا يتوقعانها . كنا رتبنا الامر خفية دون ان يشعرا به ، وجمعنا مبلغا مني ومن موسى الصالح والاصدقاء ، واشترينا لهما راديو يعمل على البطارية ، احضره فوزي من القنيطرة ، وكان اول راديو يدخل بيتا من بيوت السهل . وضعت العلبة الكبيرة ورجوت جدعان ان يفتحها . كان منظر الراديو مألوفا بالنسبة له اذ سبق ان رأى مثله في الجيش فانصرف لتشغيله . اما ام رجا فكانت مفاجأتها به كاملة . وعندما انطلق من الاداة الخشبية صوت مغنية تشدو للصباح ، ربطت الدهشة لسان ام رجا . ولما استفاقت من دهشتها مع تشجيع جدعان لها ، كان اول مانطقت به : « اعوذ بالله من الشيطان الرجيم »

وكان من رأي جدعان ان انتقل للسكن في بيتهما بقية فترة اقامتي في البطيحة ، فبهذا يعود البيت الذي اسكنه الى مستحقية واتسلى انا بالراديو . وسيكونان سعيدين باستضافتي . ثم اكد جدعان سيبهجنا وجودك بين ظهرانينا ، كما يقال بالنحوى وعلق على عبارته وهو يضحك: « تعبت طويلا حتى حفظتها » .

وجددت ملكة الطوارق فارسها ، ورمت نحاسها بعيدا ، وما اشد ماتألقت في تلك الايام .

* * *

انتقمت السرايا من ام رجا بعد الانتخابات والزواج ، جاءها رسول من السرايا وابلغها ان الارض سحبت منها فلم تهتم ، بل انتهرت الرسول : « قل للبك : ان تجبره لن يذل رقية » ونصحتها « اشتكي . عندنا صديقنا المحامي في فيق » ومع انها قبلت النصيحة فانها لم تشتك ، لان الارض سجلت باسم رجا في اليوم الذي انجبت فيه عائشة مولودها .

وخطت السرايا خطوة اخرى . جاء دركي يحمل انذارا . كان خليل بك يطلب اخلاء المنزل لانه يقوم على ارض يملكها . وكان هذا حقه بحكم القانون ، ففاض حنق ام رجا وادركنا ان في الامر تحديا لنا جميعا ، فاستنفرنا قوانا ، بسط جدعان الامر امام قائد السرية ، وابلغنا المحامي لعله يستطيع ان يفعل شيئا . وقررنا ، ان نقاوم الاخلاء بالقوة اذا اقتضى الامر . وانقسم الفلاحون الذين ذكرتهم خطوة السرايا بعبوديتهم ، بين مؤيد لنا ومتطامن . وثارت ازمة فتكهرب الجو .

واطل النقيب عطية ، قال ان الامر خارج عن اختصاصه مالم تقع اضطرابات وانه يجيء وسيطا ، واقترح حلا : ان تصالح ام رجا ابنها رجا ، وعندها سوف يتوسط لدى السرايا .

وجاءت عائشة ، حملت وليدها الى جدته ، وبكت : « سيقتلني هذا الحال اذا دام ماذا اقول لابني عندما يكبر ، من اجله ياعمة صالحي اباه » ولم تلن ام رجا : « فيك الخير ياابنة ابي جمعة ، اما ذلك النجس فلن يطأ لي دارا ماحييت » • وكان جدعان من رأيها •

وجاء الفرج من دمشق ، حملت الجريدة لنا نبأ المظاهرات التي تطوق البرلمان وتطالب باقرار تشريع عاجل يمنع تهجير فلاحي الاقطاعيات من دورهم حتى لا ينتقم الملاكون لهزيمتهم في الانتخابات ، وتعلقنا بالراديو نترقب النتيجة،واخيرا اقر التشريع وانفثأت الازمة•واغتنمنا المناسبة فنظمنا اول مظاهرة في البطيحة للتعبير عن ابتهاج الفلاحين بأول تشريع يحميهم من التشريد • كان يوما اخر ، من الايام التي لا تنسى ، دعونا الناس فلبتنا المئات ، ومنذ سرنا راح اخرون ينضمون الينا ، وكان طريقنا الى مخفر الدرك حيث اعتزمنا ان ننهي المظاهرة ، يمر امام السرايا ، حين بارحناها تحمس بعض أفراد الحرس الشعبي فاطلقوا النار للتعبير عن حماستهم • وشهدت رجال السرايا الذين انتشروا امام بوابتها ليتفرجوا علينا ، يدخلون اليها ، ويغلقون البوابة • وجاء النقيب سعيد مع مجموعة من عساكره ، يستطلع الامر بعد ان سمع اصوات الرصاص ، فأحاط به متظاهرون بادروا لانزاله عن حصانه وحملوه على اكتافهم وراحوا يهتفون للجيش • وامر رجاله بأن يواكبوا المظاهرة ويخرجوا منها كل من يطلق رصاصة ويعتقلوه ، ثم ركب حصانه ، وغمزني بعينه ، ومضى

وامام المخفر عرف رقيب الدرك كيف يخطب هذه المـرة ، وامتـدح الحكومة التي تسهر على راحة الاهالي وشكر الجمهور باسمها •

وفي المساء جاءني ابو حسان ، وقف امام باب الدار وناداني باسمي، وطلب ان نمشي ونتحدث وكان ابوزعل انبأني انخليل بك تكلم بالتلفون من دمشق ووبخ وكيله وحثه على عمل شيء •

قال ابو حسان ونحن ندرج تحت ضوء قمر صاف :

ــ انك تربكني ، لا تريد ان تتركنا بخير •

ــ ما الذي يريده البك ؟

ــ بل قل ، ما الذي تريده انت ؟

ــ انا كما تعرف ، عائد الى مدينتي •

ــ لكنك فعلت اشياء ، كنا قبل هذا الوقت ، نقتل من يفكر فيها •

ــ هل تصارحني ، ام انك تنذرني ؟

ــ انا نفسي ما عدت اعرف • تعبت ، الدنيا تتبدل وانا لا افهم ، يتهمني خليل بك بالتراخي بعد هذا العمر ، وتنظرون الى انتم كعدو ، وانا ضائع ، اخشى ان يفلت كل شيء اذا تراخينا ، واخشى ان افعـل شيئا فلا ينوبني الا سواد الوجه • ظل هذا الشنب عزيزا فهل استأهل البهدلة ؟

كنت يومها متفائلا فرحت احذره :

ـ يتوقف الامر عليك ، فلماذا لا تنجو بنفسك قبل فوات الاوان ؟

ـ انت تقول هذا ، وما اسهله عليك ! خدم ابي هذه السرايا ، وكان وكيلا مهابا ، ونشأت انا في الخدمة ، اما انت فأبوك فران وها انت متعلم وعندك شهادات ، وقد صرت زعيما ، طريقان ، ياولدي انا فاهم انتم تفتحون طريقا ، وانا مربوط بطريقي ، خليل بك لا يرحم ، لا يرضى ولا ولا يرحمكم ، لو عرفتم الذي اعرفه لما خفتم على انفسكم فقط . بل لا شفقتم علي ايضا .

قال هذا ونشج لحظة ثم تماسك ، وواجهني :

ـ انصرف الآن ، وارحل عن هذه المنطقة الملعونة باسرع ما تستطيع ، لا اريدك ان تكون شاهدا على وضاعتي .

لم اقم يومها وزنا كبيرا لهذه الكلمات ، لكني لم البث ان تذكرتها بعد وقت لم يطل ، وما ازال اتذكرها الى اليوم .

* * *

بعد ايام ، جاءني ابو زعل وقد طردوه من السرايا ، كشفوا امره ، وتيقنوا من انه ينقل اخبار السرايا الينا فطردوه . وادركت ان اقامته في البطيحة لن تطول . وكان اسفا لانه فقد النعيم الذي يرفل فيه .

قلت لـه :

ـ انت آذن مدرسة ، وهذه وظيفة افضل من وظيفة المخبر .

لكن هذا لم يعزه عن الخسارة •

وحين اقترحت عليه ان يتدبر في المدرسة ركنا يبيت فيه ، تذمر •

ـ بعد السرايا ، انام في قن •

كنت متيقنا من ان خليل بك سيفلح في طرده من البطيحة كلها •

ـ لن يطول الامر حتى تعود لدرعا قريبا من اهلك •

ـ ليت لي فصاحتك حتى افهمك ، كنت مرتاحا لوضعي ، وقد احببتك من قلبي ، والآن ينتهي هذا ليتني تعلست مثلك • ولم يكن لدي حل لمشكلته •

فاجأتني عائشة بزيارة • جاءت حزينة ولكنها لم تكن هيابة • وقبل ان تتكلم ، دمعت عيناها ، وبكت ، حتى هدأتها •

ـ خير ؟

ـ ارسلني رجا اليك •

نطقت بالعبارة ، ثم امسكت يدي وهمست بتقبيلها لولا اني سحبتها على عجل •

ضاق العيش في وجه رجا منذ افترق عن امه ، أهمله النقيب عطية ، وقاطعه الناس ، ووسط الوسطاء لترضى عنه لكنها عاندت • وتنكدت حياة عائشة ، وهي حامل لا تريد لابنها ان يحمل سمعة العار ، ويبدو ان رجا قرر ان يقوم بمحاولة اخيرة ، ان يوسطني انا لمصالحته مع

امه وهو مستعد لاي شيء من أجل استرضائها ، هذا ما فهمته بينما عائشة تتحدث وتنهنه .

ــ قال لي اذهبي للاستاذ ، هو الذي بدأها وهو الذي ينهيها .

فقلت ، معطيا نفسي منحة من الوقت للتفكير قبل ان اتعهد بشيء .

ــ ما الذي استطيع ان افعله يا عائشة ؟

ــ ما الذي يدريني ، ان لم تحلها فسيخرب بيتي ، فرجا ينوي الرحيل اذا لم تصالحه امه .

وبكت من جديد .

ــ ... اتدري ، اذا رحل فلن اذهب معه .

ثم كفت فجأة وصوبت الي نظرة فاجأتني جرأتها :

ــ .. رضيت بالمرار وانا في ديرتي بين اهلي ، اما الغربة فلست احتملها ، انفلقت قشرة الحياء فبانت ابنة ابي جمعة اذا . ولعلها استشعرت اعجابي بموقفها فخطت خطوة أخرى .

ــ .. أقول لك الحق . لم يرسلني رجا فجئت بنفسي ، ذكر اسمك فحلفت ان أجيء اليك أنا أحب أم رجا ولا أريد أن اتمرمط بعيدا عنها . واذا اردت أن تصون بيتي اصلحها مع رجا حتى نعود كما كنا .

صحبت عائشة الى دار حماتها . كانت ام رجا منذ طردت ابنها

تظهر لعائشة ودا خاصا ومن اجلها ابقت له واحدة من قطعتي الارض • وكانت تقول : هذا لانها طيبة ولانها ابنة ابي جمعة •

وحين جئنا معا ، ادركت ان لهذه الزيارة غرضا خاصا • لكنها لم تتعجل حملنا على الافصاح عنه . وكنت محرجا ازاء هذا الموضوع بالذات ، فأنا لم اتحادث مباشرة مع أم رجا عن علاقتها بابنها منذ افتراقهما ، كنت اسمع رأيها من جدعان واعلم ان قلبها مغلق ازاء الابن الفاسد •

وبعد ان ادرنا احاديث متفرقة • ضاق صدر عائشة فهتفت :

ـ ياعمتي •

وردت العمة المتبصرة :

ـ قولي ماعندك ياعائشة •

لكن عائشة خانتها العبارات ، فاستنجدت بي بغير مداورة •

وتبسمت ام رجا :

ـ دبرتما امرا ، لماذا لا تحكيان ؟

وحكيت ، فأصغت الي هادئة وهي تنقل نظرها بيني وبين كنتها ، الى ان افرغت ما عندي • فاطرقت هنيهة ثم تكلمت :

ـ جئت من اجل البنية . افهم هذا ، ولكني اسألك : هل ترضى لي الدنية ؟

وبهذا احرجتني •

ولم تنتظر اجابتي •

ـ تعرف ، مثلما اعرف ، ما الذي فعله هذا الولد ، وعائشة تعرف انها عزيزة علي ، وهي ابنة اصل ، ولكنني أم رجا ، لا اضعها واطئة من اجل احد •

ثم راحت تعدد ما عرفته من حكايات عن ابنها وعن الناس الذين آذاهم •

ـ ما الذي تريدانه مني بعد ، ان اعين المؤذي ؟

وبعد ايام رحل رجا من القرية ، وقيل انه التحق بعمه ، وشاءت عائشة ان تسكن مع عمتها او مع ابيها ، ولكن ام رجا نصحتها ان تبقى في دارها • وحين ترددت عائشة استعانت ام رجا بي ، وبحضوري قلت لها :

ـ لك دار فابق فيها صونيها ، وغدا يكون لك ولد فربيه على الكرامة ، ولا تغفلي عنه حتى لا يعيد سيرة ابيه •

ـ ٢٢ ـ

يوم تهيأت للرحيل وقع ما استبقاني • في ذلك اليوم أنذرت وحدات الحدود بأن عدوانا اسرائيليا سوف يقع بين ساعة وأخرى ، وقال لي النقيب سعيد ، وكنت ازوره لأودعه ، منذ قدمت لهذه البقعة لم تأمر القيادة باستنفار اشد من هذا ، ويبدو ان في الامر ما يقلق ، حقا ، هذه المرة • ونصحني ان ابقى لاشهد معركة حقيقة ، انا الذي لم ار طيلة اقامتي في البطيحة غير معارك التراشق عبر خطوط الهدنة •

لم تكن الاستعدادات العسكرية كافية بأي حال من الاحوال ، فسرية خيالة تنتشر في هذا السهل الفسيح لا تستطيع ان تدافع عن خطوط تمتد لاكثر من عشرة كيلو مترات ، والحرس الشعبي تعوزه الخبرة والاسلحة والعدد اللازم من الضباط لقيادته • وليس بين ايدي المقاتلين غير البنادق والرشاشات ، فالمدافع كانت منصوبة فوق التلال ، اما الآليات فما كان لها حتى لو توفرت ، ان تصبح ذات جدوى كبيرة في هذا السهل المكشوف الذي يفتقر للطرق •

ومع توالي النذر ، راح النقيب سعيد يبذل جهده ويرسل طلباته الى قيادة الكتيبة ، وكانت قلة الذخائر اكثر ما يقلقه ، فتحدث بشأنها

مع قائد الكتيبة • وتلقى وعده بالمساعدة وظل ينتظر • وكان لـدى النقيب سبب آخر للقلق ، فنظام الكمائن التي تتوزع على الخط الاول يجعلها صالحة للتنبه لقدوم الخطر ، ولكنها عاجزة عن توفير الحمايـة فيما لو قرر الاسرائيليون اقتحام المنطقة • وحتى يغدو التنبيه مجديا لابد ان تتوفر اجهزة الاتصال في الكمائن ، في حين لم يكن في أي منها جهاز هاتف • وهذا ايضا ، ما الحف النقيب في المطالبة به •

امضيت سحابة النهار عنده ، ونحن نحلل الوضع ، ونعيد تحليله ، ونصوغ استنتاجاتنا ، ونخوض في شتى الامور الاخرى •

عندما قدم النقيب الشاب ، حاولت السرايا ان تجتذبه لكنه تملص، متذرعا بمشاغله الكثيرة ، وانتوى النقيب ان لا يصطدم بالسرايا مـا امكنه ذلك ، الا أنه صمم على ان لا يسمح للبك وازلامه بركوبه كما فعلوا مـع سلفه • « انا عسكري » ، كان يقول لهم هـذا ، وعندي واجبات « كل همي ان اقوم بها » وكان يقول لي « هذه هي قناعتي ، اما الهموم الاخرى فهي على عاتقكم وانا احميكم اذا اقتضى الامر » وقد حاول النقيب عطية ان يدس علي عنده فيحرضه ضدي ، لكنه اوقف ضابط المخابرات عند حده •

وكان النقيب سعيد معجبا بكفاءة جدعان • ويعرف ، بصورة ما ، ان ثمة شيئا ابعد من الصداقة البريئة يجمعني مع الرقيب ، ولم يعترض• « فقط »،كان يقول « اريده حذرا حتى لا يحرجني مع جماعة المخابرات،

فهو ، آخر الامر ، عسكري ، وللجيش نظامة ، الجيش ليس مؤسسة حزبية » كان يثق بجدعان ويعده أهلا للاعتماد عليه في المهمات الصعبة. وعملت من جهتي على تعزيز هذه الثقة وتعهدت له ، بصورة غير مباشرة، بأن لا يخرج جدعان في سلوكه عن الحدود المقبولة .

وفي احاديثنا في ذلك اليوم ، تطرقنا ، ايضا ، لسيرة جدعان ، فامتدح النقيب سلوكه ، وكرر تحذيراته ، وكررت تطميناتي له ثم قلت :

ـ ينبغي الا نبالغ في التهيب ، الست ، انت نفسك ، حزبيا ؟

فابتسم ، وقال باختصار .

ـ لا نريد ان نخسره .

وابتسمت بدوري ، وامنت على كلامه ، ثم اضفت .

ـ لن يقع جدعان على نقيب مثلك في كل سرية يخدم فيها .

وكنا قد فرغنا من تناول الغداء سوية حين رن جرس الهاتف ،ونبأني النقيب أنه تلقى تحذيرا جديدا من قيادته ، وان احتمال هجوم العدو صار شبه مؤكد ، وان كانوا ، فوق ، لا يستطيعون ان يقدروا مدى الهجوم واهدافه . وقال النقيب ان شاحنة عسكرية ستصل بين لحظة واخرى ، وفيها الذخيرة واجهزة الهاتف وورشة لتركيب الاجهزة .

واستدعى النقيب جدعان وامره بأن يستنفر من يثق بمقدرتهم على القتال من عناصر الحرس الشعبي ، فهو لا يريد غير الاكفاء لان قليلي

الخبرة يصبحون عبئا اذا وقعت الواقعة فعلا • فتلقى جدعان الامر صامتا ، ثم حيا ، وانصرف لتنفيذه •

وارتفعت حرارة الجدية والاحساس بالمسؤولية في حديثنا ، كان في تقديري ان اسرائيل ستشن غارات مركزة على مواقع بعينها في الجبهة تختارها من بين أضعف المواقع لتجعل ضربتها موجعة • ففي البلد بوادر تحرك رجعي كبير هدفه الانقضاض على النظام الديمقراطي ، واسرائيل تتحرك لتدعم هذا التحرك ، ومن شأنها ، في حالة كهذه ، ان لا تحتل ارضا جديدة حتى لا تسد الطريق امام التحرك القادم ولا تعرقل مهمته• اما الغارات المركزة فانها تفي بالغرض ، اذ تضعف هيبة النظام القائم وتزعزعه •

اصغى النقيب سعيد لشروحي فيما ظل باله مشغولا بأمور اخرى ، وحين استوضحته عما يشغله ، قال :

ــ انت ترى ، الاحداث تداهمنا ونحن بغير استعداد ، واذا فعلنا شيئا ففي اللحظات الاخيرة • اليس غريبا ان ينسوا وصل الكمائن بقيادة السرية كل هذه السنين ، والآن ، وفيما نحن نترقب الهجوم ، علينا ان ننتظر الى ان تحل العتمة حتى تتمكن الورشة من مد خطوط الهاتف ، ولو فعلنا ذلك تحت هذا الضوء ، فان العدو ، الذي يرصدنا دون شك ، سوف يكشف كمائننا كافة •

كان متوترا وانجهد لاخفاء توتره • ولم يلبث ان استأذنني لان عليه ان يقوم بجولة ليشرف على الترتيبات القائمة ، فافترقنا على ان نلتقي بعد ان يفرغ من جولته •

وعدت الى الدار • كان جدعان قد فرغ لتوه من استنفار جماعته ، وجاء للحظات قبل ان يذهب الى الحاصل لان النقيب امره بقيادة واحدة من المجموعات التي تدافع عن هذا الموقع •

قلما رأيت مزاج جدعان رائقا كما كان في تلك اللحظات • ولابد ان اوقات الخطر تنشط مزاج هذا العسكري المحترف • ومنذ دخلت ابتدرني مازحـا :

ــ هل ستدخل النقيب الى الحزب ؟

ولم اكن في مزاج ملائم ، فقلت بنبرة جافية :

ــ لا تضع هذا في حسابك ، ولا تنس ان تتصرف معه وانت تضع في حسابك فارق الرتبة • ولكن جدعان لم يؤخذ بجفوتي ، بل انبرى لـي :

ــ حين يحمى الوطيس ، كما تقول بالنحوي ، فالمعول على الشجاعة وليس الرتبـة •

واذا استشعر نظرتي المؤنبة ، اضاف :

ـ النقيب رجل طيب ، وهذه الليلة ، ان وقعت ، فسنختبر رجولته فانتهرته بجفوة اشد .

ـ عليك ان تعرف ، انه اهل للثقة .

وبوغت جدعان ، فتراجع دون ان يفارقه مرحه :

ـ كنت اهزل ، غدا ساشيل النقيب على راسي وانا بكامل هندامي العسكري واؤدي التحية لنجومه الثلاث .

كانت روح جدعان في ذروة اشراقها ، وكنت افكر في هذا حين نبهني صوته :

ـ لا تتعب حالك .

قالها بنبرة متخابثة ، وانتظر ان استوضحه ، غير اني تأملته وانا صامت فأضاف :

ـ ستر تاح الليلة ، امرني بان لا ارسلك الى الكمين ولعله توقع ان احتج .

غير اني قلت :

ـ سأراه الليلة .

فسحب جدعان ملامح التخابث عن قسماته وقال بجد :

ـ اظن انكما تدبران امرا فما الحكاية ؟

ــ اذهب لمخفرك وافتح عينيك ، هذه هي الحكاية ٠

وقبل ان يمضي جدعان ، وصلت ام رجا ٠٠ ودون ان تلقي التحية ابتدرتنا متسائلة :

ــ القرية قائمة قاعدة ، فأية اسرار يخبئها الرجال وراء هذه الوجوه المتجهمة ؟

واشارت الى وجهينا بحركة احتجاج على صرامتهما ، وحين لم تتلق جوابا ، قال :

ــ لعل كأسا من الشاي تفرد خلقة ربنا ٠

وشرعت تعد الابريق دون ان تبتعد عنا ٠

كانت حفية ومشرقة ، احتفظت ام رجا بقوة حضورها وشخصيتها غير ان الشراسة التي لصقت بها في ترملها فارقتها منذ احبت جدعان ٠ وقد انسى اشياء كثيرة ، ولكن لن انسى تلك اللحظات التي جمعتنا ثلاثتنا فوق المصطبة ونحن نشرب الشاي ٠

مضى جدعان ٠ ولم يطل مكوثي مع ام رجا ، او لعله طال وانا لا أشعر بمضي الوقت ٠

جاء حاجب النقيب يستدعيني فخففت الى قيادة السرية ٠

كان النقيب قد تلقى تحذيرا اخر بان الهجوم سيقع الليلة ، وقد تعجل وجودي الى جانبه ٠

سألته ، غير عاتب في واقع الامر :

ـ الست من عناصر الحرس الشعبي ، فلماذا لم تشأ ان ترسلني الى الكمائن فابتسم ، وسألني بدوره :

ـ ما المشكلة في ذلك ؟

ـ انت تعرف اني من المقاتلين ، ولا اريد ان اخسر سمعتي في اخر يوم لي هنا .

ـ هونها رومل يخسر الصحراء ؟

وتبسم ثانية ثم اكمل :

ـ .. حتى اريح ضميرك ، آمرك بالسهر معي ، انه امر عسكري ، فتبسمت بدوري ، وفكر هو لحظة ثم اصطنع جدا مبالغا فيه :

ـ ... نحن العسكر نحتاج لمن يعقلنا اذا حمي صوت الرصاص ، اليست هذه مهمة جليلة لرجل الفكر والسياسة الذي هو انت .

ـ بلى اقولها جادا .

وزع النقيب ضباط سريته على المواقع التي يعدها حساسة ، وارسل واحدا منهم الى الحاصل مع عدد اضافي من الجنود ، مشددا على انه أهم المواقع ، وأوصى الضابط بأن يعتمد على الرقيب جدعان ، وكان ، في غضون هذا ، يتلقى تقارير الورشة التي تركب الهواتف . وكلما

فرغوا من تركيب جهاز اتصلوا بمقر قيادة السرية ليجربوه •

كان النقيب قد قسم الورشة الى مجموعتين ، تبدأ احداهما عملها من ناحية النهر والاخرى من ناحية البحيرة ، على ان تلتقي المجموعتان في الحاصل فتزرعا الاجهزة ، وتتصلا به من هناك ، وتنضما الى القوة التي تدافع عنه • وفيما كنا نترقب اتمام المهمة ، رحنا نتبادل الحديث • كان النقيب هادىء الاعصاب وامتد بنا السمر • وتوصل قائد السرية الى وضع تقديراته للموقف :

ـ يغيب القمر في الثالثة ، ولن يهاجموا قبل هذا •

ثم اقترح :

ـ امامنا ، اذا ، ساعتان ، فلماذا لا نكسبهما في النوم ، ولو طرأ ما ليس في الحسبان فلدينا الهاتف الذي يوقظنا •

وكانت حاجتي للنوم واضحة بحيث لا تجوز المكابرة • وأوصى النقيب معاونه كي يشرف على اتمام مهمة مجموعتي التركيب ، وطلب منه ان يوقظه عندما تجيء المكالمة من الحاصل •

وكنا ، كلانا ، نهوم للنوم ، عندما دخل المعاون الحجرة ليعلن رئيسه ان قائد الجبهة بنفسه على الخط • ولامر ما ، لم يطلب النقيب نقل الجهاز اليه ، بل ذهب ليكلم القائد من حجرة المعاون ، وبعد لحظات عاد ومعه الجهاز ، واستلقى على سريره وهو يقول لي :

ـ المسألة جادة ، يتصل قائد الجبهة بنفسه ليرفع معنوياتنا فلننم حتى لا يهبطها النعاس •

وكنت اهوم للنوم حتى تبهتني خاطرة لم استطع ان انحيها ، فوجهت سؤالا للنقيب •

ـ ما دمنا نعرف انهم سيعتدون ، فلماذا لا نفكر بمبادأتهم ؟

ولم يسمع صديقي السؤال، كان قد اغفى، وراحت الخاطرة تكبر في ذهني،لماذا نبقى مثل سمك الحواف،يلقون سنانيرهم ويصطادون منا من يشاؤون كلما شاؤوا،متى تهتدي اسماكنا الى اللجة وتندفع معها.ومع سطوة النعاس الذي كان يغالبني ، رحت احلم بيوم ينهد فيه جدار الاذى المنتصب في وجـه الوطن •

وافقت على صوت جرس ملحاح • جاءت المكالمة من اقرب الكمائن الى الحاصل على النهر ، كانت جماعة التركيب الاولى تبلغ ان الاسلاك نفدت وانها لا تستطيع ان تصل الحاصل بقيادة السرية ، فتلقت امـر النقيب ، وهو يستعيد يقظته ، بان تبقى حيث هي وان تكون على حذر لان القمر اختفى وقد يبدأ الهجوم في اية لحظة •

ثم بحث النقيب عن المجموعة الثانية ، فوجد ان موقعين مازالا يفصلانها عن المصب ، فطلب منها ان تضاعف همتها •

وبنبرة من يحاور نفسه قال لي :

ـ خيرة رجالنا في الحاصل . واظن انهم سيحسنون التصرف حتى لو عجزنا عن تحقيق الاتصال بهم •

ومرة اخرى ، رن الجرس الملحاح ، كان قائد اللواء هـو الذي يتكلم . وسمعت النقيب يقول له : نستطيع بامكانياتنا ان تتعامل مـع العدو حتى الصباح لو هاجم بقصد الاغارة ، اما لو هاجم بقصدالاحتلال فان صمودنا يعتمد على التعزيزات •

وحين فرغ من المكالمة وجه الخطاب لي :

ـ يسأل قائد اللواء عن الامكانيات كانه لا يعرفها • اهملت الدولة الحدود طيلة سنوات • والآن ، يا سعيد دبر راسك •

وبغتة قفز كالملسوع • وما رأيت في حياتي هذا المقدار مـن الالم يعتصر وجه انسان واحد مثلما رأيته تلك الليلة على وجه النقيب سعيد•

ـ ••• نسينا توزيع ذخيرة الاحتياط • هذه هي نتيجة التحرك في اللحظات الاخيرة •

واستدعى معاونه بصوت بدا كالحشرجة :

كان الملازم الاول هادئا قبل ان يعرف ، فلما عرف اعتصر وجهـه الألم الذي اعتصر وجه نقيبه ، لكنه ظل يتجلد وهو ينتظر التوجيهات ، وبحثت عينا قائد السرية عن اقتراح لدى المعاون . فارتسم جـواب المعاون على وجهه قبل ان ينطق به •

ـ يكفي اننا جازفنا بتحريك جماعتي التركيب .

ولفنا ، ثلاثتنا الصمت ، ثم لم يخرجنا منه الا اندلاع صوت المعركة ، وانتقلنا للتو الى الخندق المحفور في الباحة وانتقل معنا جهاز الهاتف . وامتد امامي بحر من العتمة ، شمل السهل والبحيرة لا تقطعه الا التماعات القذائف التي تشق الظلام والصمت ، ثم لم تلبث ان انطلقت قذائف الاضاءة كأنها اضواء سحرة يهبطون من السماء ويبحثون عن شيء عزيز ، كان كل مافي المشهد ، صوتا وصورة ، يوحي بأن الاشتباك شديد .

وفيما استغرقني المشهد ، بقيت مشكلة الذخيرة هي الهاجس وهي الشوكة التي تقف في حلوقنا ولا تبرحها . ومع اشتداد اصوات الاطلاق وتوالي شكاوى الكمائن من عدم كفاية الذخيرة ، قرر النقيب المجازفة ، فطلب من الكمائن ان ترسل من عندها من يحمل صناديق الذخيرة ، من قبل ان ينبلج ضوء الفجر ، واذ استراحت الضمائر لهذا الحل ، برغم المجازفة ، فان مشكلة الحاصل ، الذي يفتقر للهاتف ، بقيت بغير حل ، فيما كان تركيز المهاجمين عليه يبدو واضحا من حجم القذائف التي تكتنفه .وتحت وطأة الاحساس بالتقصير ،حاول النقيب ان يفعل شيئا فأمر رجال اقرب كمينين الى الحاصل بأن يزحفوا اليه ، ثم راح يعزي نفسه ويطمئننا بان في الموقع كمية من الذخيرة اوفر مما في غيره ، لكن امتداد الاشتباكات واحتدامها حول الحاصل بالذات جعل هم هذا الموقع يسري

في اذهاننا سريان السم ، وكانما ، لنعبر عن عجزنا ، كففنا عن التحدث بشأنه . وانشغل النقيب لبعض الوقت بتسليم صناديق الذخيرة للقادمين من الكمائن • فلما لم يعد أحد يأتي اصبحت المشكلة هي وحدها التي تؤرقه • وانتشرت فضة الفجر والمشكلة تزحم تفكيرنا • واخيرا عزم النقيب على المجازفة من جديد ، فطلب من حاجبه ان يستدعي اي عدد من رجال القرية ، وجاء الرجال مكبلين بوسنهم وخوفهم من العـدو وتهيبهم من المهمة التي دعوا من اجلها •

كان عدد الذين لبوا النداء اكبر مما قدر النقيب ، فقرر ان يوزع الذخيرة على الكمائن كلها • وهكذا اخذت الصناديق تدرج فـوق الدروب محمولة على اكتاف الرجال • وكنت قد رافقت النقيب حين اصطحبهم الى الحجرة ليوزع الصناديق ثم عدت الى الخندق بينمـا بقي هو ليتم المهمة ، وعندما انصرف اخرهم جاءني النقيبوقد هدا قلقه•

وفيما امتد نظري مع الافقالذي كانت فضتهتتشرب ثار الارجوان، استحوذت على انتباهي قامة امرأة تحمل صندوقا على رأسها وتنحدر من الدرب المتجه الى الحاصل •

ـ من المرأة الباسلة ؟

وجهت السؤال للنقيب الجالس بجانبي في الخندق وعيناي تتابعان حركة المرأة فرد باعجاب :

ــ زوجة جدعــان •

ولعله تنبه الى قلقي عليها ، فراح يشرح الامر :

ــ قبل الرجال ان يذهبوا الى اي مكان لا الى الحاصل ، فرحت احثهم ، واعنفهم • وقتها وصلت ام رجا ، فانتخت وظننت انهــا تفعل هذا لتحسسهم ، قالت انها ستذهب حتى لو كان الدرب مزروعا بالالغام• والحقيقة ان كلامها اثر في اثنين منهم فحملا صندوقين وانصرفا • ولكنها اصرت على ان تذهب هي الاخرى • وحين اعترضت راحت تعنفني : « هل يكفي صندوقان مع جنهم المفتوحة هذه ، ايهون عليك الرجال » : وقبل ان اتدخل ، نترت صندوقا ، وهي تشتم الخوافين ، كنت مشدوها ازاء جرأتها ، والحق ان حماستها تلبستني فلم املك الا اخلاء سبيلها •

وداركت ان ام رجا خشيت ان اتدخل لمنعها فتسللت تسللا حتى لا اراها ، وكنت اصغي للنقيب وعيناي على القامة التي يسيزها الرداء الاسود كان الوقت يسر وهي تمضي على الدرب وكلما اوغلت في السهل تأجج قلقي واهتاجت هواجسي ، ورافقتها بذهني ايضا وهي تتابــع الرحلة ، وحين ابتعدت ، تناولت منظار النقيب فتابعتها بعدسته ، كانت امامي ، اشــارة استفهام تنتصب وسط دائرة ، لتكبر وتكبر • وكنت حانقا واشارة الاستفهام تملا ناظري ، ومخيلتي كراية حداد تعلن السخط على اهمال المهملين وتقاعس الجبناء •

ــ وصلت ، اعطني المنظار •

انتزعني صوت جليسي في الخندق من استغراقي في افكاري . كان مثلي ، اذا ، يتابع خطوات المرأة ، ثم هتف بغتة :

ــ ... ما الذي يجري ؟

اختطفت المنظار من يده ودققت النظر .

كان شيء غامض يجري عند مدخل الحاصل ، وكرر النقيب سؤاله ، فأجابه قلقي :

ــ اخشى ان يكون جدعان قد اصيب .

فاختطف منظاره ، ثم لم يلبث ان هتف :

ــ احموا المرأة .

وبعدها ، قال بهدوء :

ــ لقد انتبهوا .

- ٢٣ -

صمد الحاصل ، ظل يطلق النار الى ان انسحب المهاجمون مع شروق الشمس ودعاني النقيب لمرافقته في جولته لتفقد النتائج ، وما كنت بحاجة للدعوة اذ كنت سامضي وحيدا لو رفض اصطحابي •

ودون ان يشاورني قرر ان يبدأ بالحاصل •

ما اكثر ما تقت لزيارة هذا الموقع في النهار ومعاينة مشـــهد التقاء العاشقين الذي فتنني عندما راينه اول مرة • فاية مناسبة تلك التـــي حملتني الى المصب في عز الضحى •

بدا كل شيء كالحا ، كانت الريح ساكنه وفروع الاشجار هامدة • وانسحت صفحة البحيرة كأن قوة خفية جمدت امواجها • ولكم بدا نهر الاردن كليلا وهو يحمل ما ابقاه الصيف الآفل من ماء الينابيـــع ويلقي بنفسه بين احضان البحيرة الهامدة •

كنت اسير بمباراة النقيب ، وكان مشينا يغدو جريا كلما اقتربنا اكثر فاكثر • وفي داخلي تخالطت الاحاسيس ، فقد جعلني قلقي مما رأيته في المنظار اتوجس مما سأعانيه ، فيما رحت اراود الامل بأن اجد جدعان وام رجا سالمين •

ومنذ ولجنا مدخل الموقع ، طالعنا الاعياء المكتوم على وجـوه العسكر ، وجالت عيناي تبحثان بلهفة عن الرفيقين ، الى ان وقعت عليهمـــا •

كان جدعان مسجى في ظل شجرة ، وقد تجمدت فوق صدره بقعة دم • وام رجا تقتعد الارض بجانبه حزينة ، وجليلة ، تمسح ببصرها جسده وتحوطه بالمشاعر ، ولا تحس بما عداه ، وكانت عصابة بيضاء تلف رأسها ، وقد سطعت بقعة دم حمراء لها هيئة نجمة •

واذ خففت اليهما ، غذيت املي بأن يكون صديقي حيا • فلمــا اقتربت والتقطت عيناي عيني ام رجا وهممت بطرح السؤال ، جــاء سكون العينين افصح من اية اجابة •

قد انسى اي شيء ، اما ذلك المشهد وتلك اللحظة فما اصعب ان يغيبا عن ذاكرتي •

كانت ملكة الطوارق امامي ، الملكة التت احبت آخر من عشقها فخطفه الموت لحظة ان قذفت بنفسها في شدق الموت لتحمل له اسباب النجاة • وما كان لاية مؤاساة ان تخرق جلال حزنها • وبدل الكلام جلست بجانبها متحاشيا ان اؤذي صمتها • ومسحت عيناها الجثمان المسجى ثم نظرتا الى كانها تدعوني بهذا لاتأمله • وامتد الصمت بيننا وترا نعزف عليه همنا المشترك ونبثه كل ما يجمعنا معا نحن الثلاثة •

اجهدت مشاعري لابدو متماسكا •• وكانت هي مثلي تتجلد ،

والصمت الواصل بيننا يلجم الكلمات • وحين نطقت جاءت عبارتها صدى لما افكر فيه : « رحل كما ينبغي لمثله ان يرحل • ومع العبارة ، مسح كفها بحنان الوجه الحبيب ثم اكبت عليه وراحت تغسله بدموعها •

واقبل النقيب سعيد ، لعله تركنا ، بعض الوقت ، لما يخصنا وحدنا ، ثم جاء ليذكرنا بما يخص الجميع •

والتقطت ام رجا الاشارة ، فنهضت ، وتقبلت مواساة قائد السرية صامتة واستمعت الى كلماته المشجعة دون ان تتجاوب معها • وكان النقيب متفهما فتركها ، واجتذبني باشارة من عينيه لاتبعه ، ولما ابتعدنا قليلا وصرنا وحدنا عزاني تعزية اراد بها ان يفهمني ان في جدعان ما يخصني • ثم ناقش مع ضابط الموقع تفاصيل نقل الجثمان ودفنه •

وعلى الدرب الذي جئنا منه ، سرت بجانب ام رجا ، وامامنا الجثمان مسجى على نقالة يشيلها جنديان ، ونحن ما نزال نتواصل بصمتنا •

وتم كل شيء بعد ذلك بهدوء ، الجنازة والدفن ، والعزاء الذي وفد للمشاركة فيه اهل القرية كلهم • وكانت ام رجا تستعيد ببط حضورها بين الناس ، وحين انصرف المعزون وبقيت جماعتنا وحدها ، سألت ام رجا كنتها عن حملها واوصتها بان لا تجهد نفسها ، فلم تتمالك الكنة نفسها فاجهشت بالبكاء ، ولكن ام رجا لم تتركها لتسترسل ، فانتهرتها بود ، وامرتها ان تذهب الى الحجرة الاخرى لتستريح •

ثم التفتت الي وسألتني بنبرة اعتيادية :

ـ متى سترحل ؟

وبدل ان اجيب ، وجهت لام رجا العبارة التي هيأتها من قبل •

ـ الآن يا رفيقة رقية ، قدمي للحزب تقريرك عن استشهاد رفيقنا جدعـــان •

فلم تتمالك نفسها اكثر من ذلك ، فنشجت ، ونشج الرفـــاق ، وغالبتني الدموع فنهضت ، وناديت عائشة لبيت حماتها ، وذهبت لابيت عند النقيب سعيد •

ولست اذكر كيف وصل بنا الحديث الى ما قاله لي ابو حســـان قبل ان نفترق آخر مرة « لو عرفتم الذي اعرفه ••• » ولست ادري لماذا استوقفتني العبارة حين تذكرتها • في تلك اللحظة قرنت قول ابي حسان بواقعة نقلها لي ابو زعل قبل ان يطروده من السرايا • وكان ابو زعل انبأني ان شخصين « ليسا مـــن جنسنا » قدما لزيارة السرايا في الليل وادخلهما ابو حسان من باب الفيلا المطل على الطريق ، وظننت انهما من مراقبي الهدنة جاءا وسكرا مع خليل بك ثم انصرفا في العتمة حتى لا يلحظهما احد ، لان المراقبين الدوليين ممنوعون من الاتصال بالسكان •

مع الهواجس التي ثارت ، وانا اتذكر هذا كله ، حدست بان السرايا كانت على علم بالهجوم الاسرائيلي وبأنها كانت تعول عليه ، وبسطت شكوكي امام الضابط الصديق ، فاستوقفه الامر ، وناقشناه مليا في ضوء الاحاديث الرائجة عن الاتصالات التي تجريها الكتلة البرلمانية

الرجعية ، وخليل بك من اقطابها ، مع العدو ، وشاء النقيب ان يفعل شيئا فبعث من احضر ابا حسان •

حين دخـل الوكيل علينا . كانت حالته ، وحدهـا ، كافية لتعزيز شكوكي ، جاء الرجل كأنه يغوص في بركة من الهلع ، عيناه زائغتان ، ويداه مرتخيتان ، وساقاه تكادان لا تشيلانه ، كل هذا مع ان العسكري الذي استدعاه لم يقل له سوى ان النقيب يريد رؤيته •

واستخلص النقيب سعيد ما التقطته من هذا المشهد ، فلم يعطه فرصة ليداري خوفه ، بل بادره بالاتهام •

ــ اذا شئت ان ينجو رأسك فارو كل الذي تعرفه عن اتصالات السرايا بالعـدو •

ولدهشتنا ، لم يحاول الوكيل الزوغان :

ــ قلت للبك : لو عرفوا لرحنا الى المشنقة ، لكنه لم يصغ الي • وراح يبكي ، فتركه النقيب الى ان افرغ توتره ، فيما بادلني نظـرات متفهمة • وسألت النقيب همسا :

ــ هل سترسله الى المخابرات ؟

ــ كنت افكر في هذه المسألة •

وقطع ابو حسان تهامسنا حين كف بغتة عن البكاء وبدأ كانه اتخذ قرارا ووجه الخطاب للنقيب متجنبا ان يلتقي نظره بنظري :

ـ اعرف اشياء خطيرة ، اخطر مما تظن وسوف احكي وطلب كوب شاي •

في تلك الليله ، استمعت لحكاية طويلة ، وكنت مدهوشا ، وكان النقيب مثلي ليس محققا محترفا ، وما كان ابو حسان بحاجة لمن يوجه اليه الاسئلة ، ومن طبيعة الحكاية استخلص النقيب ما يجب عمله •

ومع منتصف الليل ، استيقظ قائد الجبهة على صوت النقيب سعيد وهو يقول له :

لدي ما ينبغي ان ابلغ عنه فورا • اذا اذنتم برفع الالغام عن الطريق فساحضر حالا ، وحين تعرف ستسامحني لاني اتجاوز التسلسل •

❋ ❋ ❋

في اليوم التالي كنت عند ام رجا • وكانت جهامة المشاعر التي كبلت لسانها في اليوم السابق قد خفت وراحت تحكي قصة استشهاد جدعان • كانت ام رجا فخورة وكانت في كامل قدرتها على استقطاب الانتباه •

❋ ❋ ❋

٤٠٠٠ / ١٠ / ١٩٨٣

الطبع وفرز الالوان
مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٣

سعر النسخة
١٥ ل.س.ل